أثر اليعسوب

رواية

ميخائيل عماد

كيان
KAYAN PUBLISHING

أَثَرُ اليَعْسُوب
سَنَةٌ مَفْقُودَةٌ مِنَ التَّارِيخِ

أَثَرُ اليَعْسُوبِ

سَنَةٌ مَفْقُودَةٌ مِنَ التَّارِيخِ

ميخائيل عماد

رواية

تنويه واجب وبعض الإرشادات:

ـ معظم التغيرات الزمنية في السنة المفقودة من التاريخ تم حسابها بدقة، وهي صحيحة وفقًا لعمليات حسابية زمنية معقدة، حتى ما حدث مع وينستون تشرشل وافتتاحه دكانة عطارة في الأنفوشي.

ـ تم إضافة بعض الحواشي والمعلومات لمساعدة القارئ غير المُلم بالعام 1898 المفقود من التاريخ وأحداثه.

ـ يأتي الاختصار (س.م.ت) في أحداث الرواية بمعنى (السنة المفقودة من التاريخ) مثلما تعني (ق.م) قبل الميلاد.

ـ أحداث الرواية تتم على يد محترفين ومتخصصين في مجالاتهم وخصوصًا كل ما يتعلق بالأسفار الزمنية على يد (الخواجة بنيامين). السفر الزمني أمر خطير وصعب، ولا يجدر بك ممارسته في المنزل إن كنت تعرف.

ـ لا تفتح جوابات بنيامين قبل الوصول إليها، فهنا يكمن السر كله (وصدقني أنت لا تريد إفساد متعة الرواية على نفسك).

ـ لتجربة أفضل، جرب الاستماع إلى الplaylist الخاصة بالرواية في أثناء القراءة، ومزامنة ما تقرأ مع ما تسمع.

ـ أثر اليعسوب يُرى، أثر اليعسوب يمكن أن يزول، لو أمكنك اصطياده.

اهم احداث الزمن الاصلي في(س.م.ت)

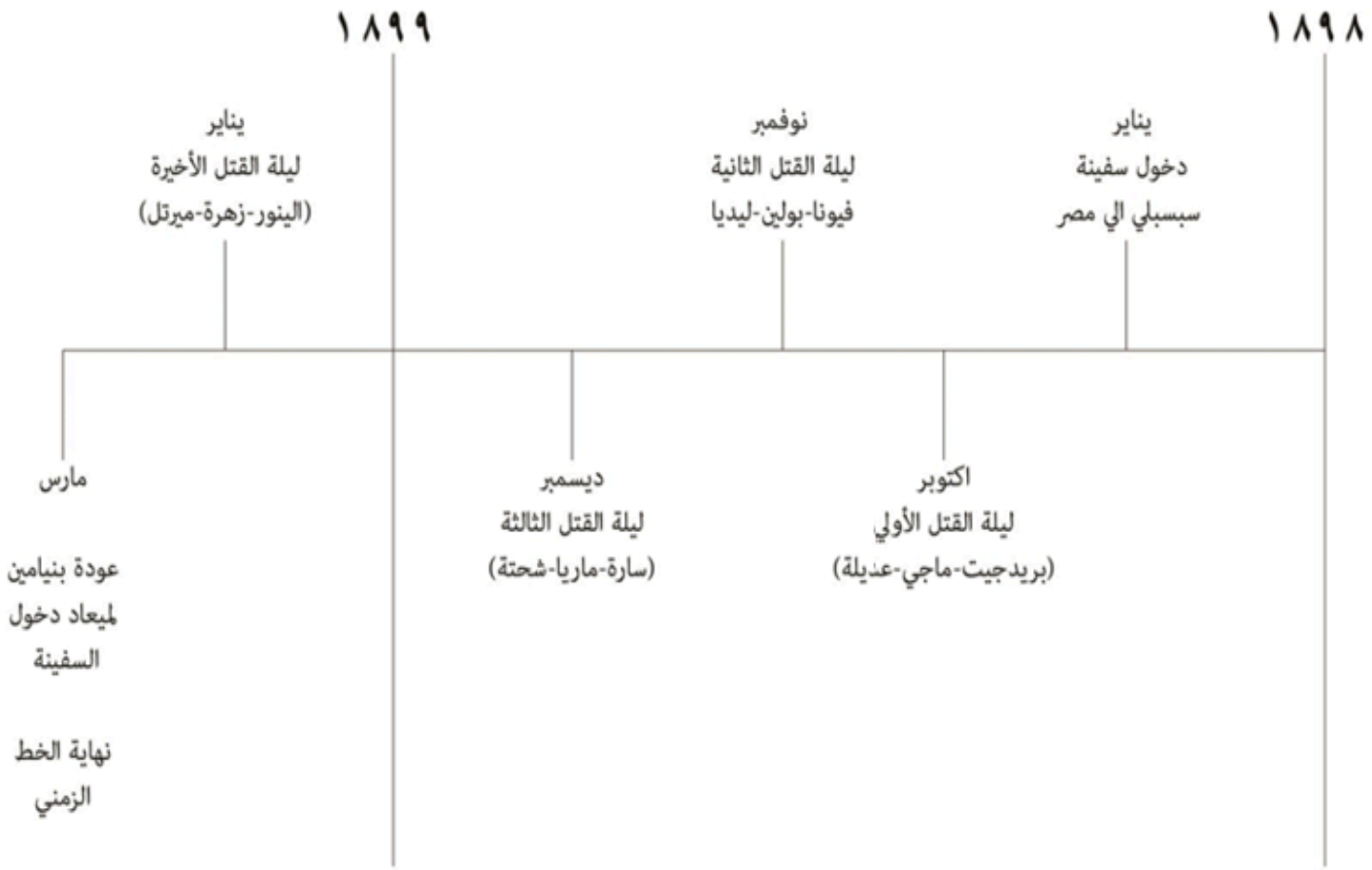

كيان للنشر

أفضل دار نشر مصرية ٢٠٢١

أفضل ناشر عربي ٢٠٢٣

للتواصل معنا :

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زوروا موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: 0235918808

هاتف محمول: 01001872290/ 01000405450

وللاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية، يمكنكم متابعتنا على حسابات التواصل الاجتماعى التالية:

KayanPublishing

سنة 1898

(السنة المفقودة من التاريخ)

برد

ظلام

ضباب

في اضطرابٍ لمست قدماي الأرض الحجرية تحتي فاختل توازني قليلًا قبل أن أستعيده.

هاجمني البرد بضراوة ونشب أسنانه في ذراعي، فأحكمت ملابسي حول جسدي علَّها تقيه بعض البرودة، ثم رميت بصري لأبعد ما استطعت فوجدتني في زقاق ضيِّق شاع فيه ظلام الثالثة فجرًا. سلاحي الوحيد ضد الرعب المتصاعد بداخلي هو التنفس: فأخذت شهيقًا باردًا دخل حادًّا كشظايا زجاجية تقطع رئتيَّ، وطردته زفيرًا اندفع في شكل بخار لوَّنَتْهُ خيوطُ نور القمر. بدافع القلق وقبل أي شيء أمسكت بالسلسلة الفضية الملفوفة حول رقبتي، والتي اخترتها لتكون دليلي للعودة من السفر الزمني، تحسستها لتزرع بداخلي بعض الطمأنينة ثم أخذت أتفحَّص المكان وأتذكَّر الخطة:

هذه دكانة (كونستانتين) الأرمنية للتبغ وهذا كلوب (العثمانلي) يجاورهم أحد الحمامات الشعبية، إذن أنا في حي المنشية بالإسكندرية الخديوية. ثلاث شابات سيُقتلن في شوارعها الآن، (عديلة وماجي وبريدجيت)، نعرف عناوين الجرائم الثلاثة بالتحديد ولكننا لا نعرف ترتيبها بالضبط، وهنا يكمن اللغز كله. ووفقًا للعضلة في الناحية اليسرى من صدري والتي أشار لها الخواجة بنيامين قائلًا: (اِمشي ورا ده)، اتبعت قلبي وحدسي وقررت أن أبدأ بعنوان الضحية الفرنسية ماجي؛ أثقلهم وزنًا وأقواهم جسمًا، ربما قرَّر السَّفَّاح البدء بها حتى يتسنى لي الهروب أسرع، وهو ما وجدته تفكيرًا منطقيًّا خاصة وأن النساء يفـ. ... صراخ!

صرخة أنثوية بشعة قاطعت أفكاري، بلا مقدمات شقَّت سكون الليل ومعها مزقت طبلة أذني المتحفزة، صرخة أبعد بكثير مما يفترض أن تكون ماجي موجودة، ومما أنا موجود، وهذه

كارثة. دقَّ قلبي بعنفٍ وتحسست المسدس الصغير في جيبي ثم خمَّنت طريقي عبر ظلام الزقاق الذي اخترقته خارجًا لشارع أوسع، أصغي سمعي لأي إشارة ترشدني في هذا العالم المجهول وشوارعه النائمة الخالية من أي مخلوق.

ثم تعالت صرخة جديدة من بعيد،انتبهت لها أذناي وانتصبتا في سلوك الكلاب البوليسية. مذعورًا التفتُّ حيث الصوت وأخذت أجري في الشارع المضاء بكلوبات الغاز وأنا أسبُّ حدسي وألعنه. من حولي كان المشهد سريعًا مهزوزًا فلم أدري هل كنت أنا من أجري أم أن بيوت الإسكندرية القديمة تسابقني متحمسة، تركض معي على جانبي الطريق بنوافذها وأبوابها التي تبتسم في وجهي بكراهية وتقول لي: (ليس لك مكان هنا)، وقد أضفَتْ عليها مصابيح الشارع مسحة مرعبة من الضوء الخافت رجَّت قلبي وهزته.

عند ناصية أحد الميادين نال مني الإجهاد فتوقفت ألهث وأسعل، أي طريق أذهب؟ أي اتجاه أسلك؟ تصاعد الخوف أمام عينيَّ كقطٍّ أسودَ ضخمٍ يكاد يبتلعني، فكل شيء كان حقيقيًّا، حقيقيًّا حدَّ الرعب وحدَّ الموت؛ الأرض الحجرية القاسية تحت حذائي والبرد القارص الذي يخمش جلدي في دموية، وظلي التَّائِه الذي يفترش الأرض المقمرة ويتلفت حوله ... أنا لا أحلم، بل هذا هو الواقع، هنا، يحاوطني ويتلاعب بي في شوارعه وحواريه.

ثم أتتني صرخة أخرى لكنها أضعف، صرخة حملت آثار مقاومة تخفت وحياة تتلاشى ... ابتلعت ريقًا جافًّا وجريت صوب الشارع على يميني، تتبعت بكل ما أملك من تركيز بقايا الصرخة التي ما زالت ترن في أذني لكن تمحوها أصوات خطواتي السريعة، انحرفت يمينًا فيسارًا، من شارع لآخر يقودني الأدرينالين ويحرك جسدي، حتى لمحت في نهاية حارة مسدودة كومة صماء تفترش الأرض. خيال أسود لجسد يرقد ساكنًا في ضوء القمر الفضي أسقطت رؤياه قلبي في قدميَّ، فركضت حيث يرقد الخيال بغير وعي ولا تصديق، ومع اقترابي بدأت حدود هذا الخيال تتضح وترسم صورة بالألوان كنت قد رأيتها من قبل لكن بالأبيض والأسود.

ها هو جسد الشابة بريدجيت ـوليس ماجيـ مسجًّى أرضًا ومنه تسيل شلالات صغيرة حمراء اللون، منظر مُقبض بالفعل، ولكنه لا يقارن بمشهد وجهها، فللقتيلة وجه مسلوخ مرعب بلا شكل ولا ملامح، أعصاب وجهها ظاهرة وعضلاته تبتسم رغمًا عنها في وحشية

وتقطر دماءً لزجة، وعلى معدتها حُفر حرف (v) بالإنجليزية، ضخم ذي حواف معقوفة فيمتد كزهرة لوتس دامية تنبع من مهبلها وتتفرع لجانبي جسدها. كدت أتقيَّأ، عبثت رائحة الدماء الطازجة بأنفي نزولًا إلى بلعومي فسددتُها بالمنديل القماشي عندما قلب المنظر معدتي.

هذا عمل فني رُسم بأصبع الشياطين، بل الجنون ذاته وضع لمساته الخاصة عليه متمثلًا في شعرها الأحمر الذي اختلط بدمائها القانية حتى تكاد تسمعه يصرخ غضبًا، وفي مقلتي عينيها المتسعتين عن آخرهما، اللتان تنظران للخالق في السماء بشكوى احتجاجية بكْماء.

يمينًا ويسارًا تلفت، أمامي وخلفي نظرت، أين الناس؟ أين الحياة؟ في ليل الإسكندرية الأسود لا يوجد سوى صمت وقمر ... وقتل. بصعوبة جاهدت للعثور على فكرة في رأسي لكن لم أجد بالداخل سوى فراغ يرن، دخلها أحدهم ونثر محتويات الأدراج وقلب المكاتب، تمتمت في سري بالمعوذتين و... صرخة.

بلا تردد درت على عقبيَّ، ركضت إلى حيث حددت مصدر الصرخة بعقل غسله الرعب ومحى منه أي خاطرة سطرها المنطق. اخترق جسدي مساحات الأضواء الشحيحة في الشارع الخالي وأنا أحاول التماسك والعودة بأفكاري أدراج الواقع:

1ـ أنا في مهمة لإنقاذ الشابات الثلاث من السَّفَّاح.

2ـ أنا في زمن مختلف عن زمني.

3ـ أنا في المنشية حيث مُتنَ من قبل، وهذا المكان هو شياخة الهماميل، عرفتها من الصور التي أراني بنيامين إياها.

الآن قُتلت الشابة الأولى بريدجت في حارة جانبية، أما الصرخة الجديدة أتت من اتجاه الغرب، حيث من المفترض أن تُقتل ماجي في شارع تبخَّر اسمه من رأسي وطار، ولكني أعرف منظره جيدًا: شارع طويل تحفُّهُ أعمدة الإنارة والعمارات الأنيقة وفي آخره بورصة الإسكندرية. غدوت أبحث عن ماجي في كل مدخل وشارع وزاوية، ألهث ويلهث معي عقلي، أطارد السَّفَّاح وتطاردني خيالاتي ومخاوفي بالإضافة إلى عدو ثالث تمثَّل في الصقيع المؤلم الذي نخر جسدي وعظامي، كم أمقتُ الشتاء الآن، كم أمقتُ قراري بقبول عرض بنيامين. أنا

في منتصف اللاشيء، أنا أغبى إنسان في الكون، أنا مَن يطارد حبًّا منسيًّا بمهمة مستحيلة، أنا .... أنا وجدت ماجي.

أسفل أحد أعمدة الإنارة كان جسدها مستلقيًا كنجمة في استعراضٍ مرعبٍ، فلمعت عليها بقعة الضوء الساقطة من العمود لتبروز كلَّ تفصيلة وتضخمها بطريقة مسرحية، وبجوارها كانت بركة واسعة من الدماء ما تزال تتغذى بخيوط تسيل من وجهها المسلوخ والجرح الذي نحت معدتها وجانبيها. بيأس معدوم المنطق انحنيت أتفحص نبضًا هرب من رسغها قبل أن ألمح داخل الجرح أجسامًا تتحرك كالحشرات، ومستعينًا بضوء العمود رأيت سرطانات بحرية صغيرة تهرب خارجة من الجرح بحركتها الأفقية، قمت أتلفت حولي كالممسوس، أين ذهب هذا الشيطان!؟

الآن وقتٌ مثالي للبارانويا والهلاوس، وحتى يخترع عقلي مليون سيناريو في آن واحد:

ربما سيبرز هذا الملعون الآن من ركن ما ويغمد سكينه في عنقي، ربما سيهبط عليَّ من السماء ليمتص دمائي، ولكن لا، هو في طريقه لعديلة الآن. عديلة ... عديلة، أين قُتلت عديلة، أو بالأحرى أين ستُقتل عديلة بعد لحظات؟

حارة نمرة 14، ميدان القناصل، المنشية.

رغم وقوفي في ضوء العمود تغطَّى كل شيء بظلام الرعب النابع من داخلي، واستحضر عقلي خريطة الحي التي أحفظها ثم أطلقت لقدمي العنان باتجاه العنوان المذكور في الشوارع الفخمة، الميتة. لا بد أن ميدان القناصل باتجاه الشمال، أو الشرق، اللعنة. تمنَّى جزء مني أن أسمع الصرخة الإرشادية التي ستدلني على مكان عديلة وهي تُذبح، وصلَّى الجزء الآخر ألَّا أسمعها أبدًا. من حارة لأخرى دلفت، طال وقت البحث ومعه استطالت أفرع فزعي، فتطاحنت كل حواسي مع قلبٍ يلهث هو الآخر في صدري، حتى انعطفت و... وجدته، أخيرًا.

لم أرَ وجهه لكن ربما رآني هو، على درجات سلم في ممر ضيق كان قابعًا في الظلام، منهمكًا في نحت آخر تحفه الفنية: فتاة في ملابس ريفية بسيطة تقاوم باستماته سكينًا حادًّا لمع رغم الظلام، ولكن كما قالت – أو ستقول – تقارير الطب الشرعي «لم تتمكن الحُرمة من الحركة بسبب كسر في الحوض نتج عن اغتصاب عنيف» كسر سيمنعها من مقاومة السَّفَّاح الذي سيسلخ وجهها ويمزق معدتها ناحتًا رمزه، لكن كل هذا تغيَّر عندما رآني.

قام مسرعًا من أعلاها وفرَّ هاربًا إلى شارع جانبي قبل أن أستطيع رؤية أي شيء يخصه، سوى خطوط جسده الخارجية وقبعته في ظلام الحارة الذي لفَّ كل شيء، أخرجت مسدسي وبلا تردد جريت خلفه، ها هو هدفي، أنا على بعد أمتار للخروج من هذا الكابوس أخيرًا، ولكن استوقفتني تنهيدة.

«آه ... آه»

تتنهد عديلة، الشابة ما تزال على قيد الحياة!

لثوانٍ وقفت ممزقًا بين الجري خلفه أو تلبية ندائها الخافت، أأختار إنقاذها أم قتله؟ أختار حياتها أم موته؟ غاضبًا ألقيت سبة وعدت إليها مسرعًا، كانت تحدّق فيَّ برعبٍ من بين نوافذ عينيها الموشكتين على الإغلاق للأبد، لحسن الحظ لم يكن الملعون قد تمكَّن من سلخ وجهها أو بَقْر بطنها بعد، فقط ترك جرحًا كبيرًا في رقبتها التي تزينت بسلسلة بسيطة تحمل ناب أسد مميزًا.

سددت الجرح بسرعة بمنديلي القماشي وتحسست بظهر يدي جبينها البارد، ثلجي كان بفعل لمسات الموت وقطرات عرق الوداع المجتمع عليه، والذي بلَّل شعرها الأسمر الأكرت فالتصق بوجهها هو الآخر، لكنها ورغم سكرات الموت حدجتني بنظرة مرعوبة كما لو رأت عزرائيل، ثم قالت بشفاه ترتجف: «چ ... چ ... چاك». فأوصدت فمها بحركة لطيفة من سبابتي، چاك هرب قبل أن يتمكن من سلخك يا عزيزتي، يمكنك أن تنامي الآن أو تموتي في سلام.

«أُقف عندك ... اِثبت محلك .... وعزة جلالة الله هنطخوك بالنار لو اتحركت».

وكانت هذه الكلمات بالطبع صادرة عن كونستابل يقف خلفي بملابسه السوداء وشاربه الكث، موجهًا إليَّ مسدسًا يتراقص بين أصابع ترتجف ... اِثبت يا مجرم، هكذا قال، ومن بعده سمعت صفارة عالية تبعها وقع أقدام تجري لثلاثة كونستابلات آخرين وقفوا يحدقون فيَّ برعبٍ، نظرة لا تحتاج إلى مترجم حتى أفهم ما تقول: إنهم أمسكوا بي متلبسًا وبين يدي جثة فتاة تموت، هذا غير چثتين أخريين هم على وشك اكتشافهما، لقد قُضي عليَّ.

هنا، في زمان غير زماني، ومكان غير مكاني، انقلب الموقف وصرت شاة محاصرة وسط قطيع من الذئاب. لم أقوى على فكرة أو حركة واحدة، فقط رغمًا عني تذكرت كل ما حدث الشهر الماضي، وقادني إلى تلك البقعة الملعونة، فرضَتِ الذكريات السريعة نفسها على رأسي في تلك المصيدة.

قبل شهر

سنة 2023

(الزمن كما نعرفه)

«أنا هويته وانتهيت، وليه بقى لوم العزول؟»

صوت سيد درويش ينساب من مسجِّل السيارة في عذوبة تغلبت بمعجزة على رداءة التسجيل. آخر ما أحتاجه الآن هو أغاني الحب المعذب التي تضيف المزيد من الملح لجروحي المفتوحة، ولكن دائمًا ما تجعل أغاني أبو السِّيد من ليلي مكانًا أكثر أُلفة وأمانًا، فينقلب الطريق الصحراوي الكئيب الممتد أمامي إلى شقة خالتي، بمنتهى البساطة يجعل صوته من أسفلت الطريق سجادة عجمية ومن سواد الليل حيطان صالون دافئ.

على جانب الطريق لافتة تقول: «الإسكندرية 40 كيلو»

طوال عمري لم أحب الإسكندرية قط ولم أفهم سر شعبيتها الجارفة، بل لطالما قلت لنفسي إنها ثالث أكثر مكان مبالغ في تقديره في العالم من بعد برج إيفل وأهرامات الجيزة، ولكن بعدما حدث ما حدث انتحرَتْ كل قناعاتي وتركتها، لشهور سبَّحت حياتي في عدمٍ فارغ حتى أخذ نداء خفي يدهمني منذ أيام، سمعته يتردد بين جنبات عقلي ويلح عليَّ نائمًا أو مستيقظًا كالملاك الذي نادى يوسف النجار ليهرب إلى أرض مصر: «خذ السيارة واذهب إلى الإسكندرية من دون تفكير» فقررت تلبية النداء، وفي خلال ساعات وجدتني أقود على الطريق الصحراوي في الحادية عشر ليلًا، هاربًا متخفيًا في جُنح الظلام، أجري من قبضة الاكتئاب التي تعتصرني والذكريات التي تصرعني كل ليلة باكيًا، متجهًا للإسكندرية التي لا أعرف فيها مخلوقًا واحدًا ولا مكانًا محددًا، ولكنني أعرف الآتي: يجب أن أكون هناك.

صورة (إيمي) البولاروید وهي تحتضن كلبها ميكي ما تزال تتدلى من مرآة السيارة، كيف نسيت أن ألقي بها في أقرب سلة قمامة؟ كيف لم أعقد محرقة جماعية لكل ذِكرى تجمعنا معًا، لعل الدخان المتصاعد للسماء يأخذ معه كل قهري فأجدني تطهرت من حبها؟ ولكني

أعلم الإجابة، لم ألقِ بها لأن جزءًا ما بداخلي يؤمن أن هناك فرصة للعودة، في مكان ما بداخل قلبي أتمنى أن أرى اسمها على شاشة هاتفي الآن. مع ذكراها طعنتني غصة الحلق المُرة مجددًا، فقاومت الأحاسيس السوداء التي بدأت في التصاعد برفع صوت الأغاني والدندنة مع سيد درويش، وفي أقل من ساعة كنت قد وصلت المدينة.

رائحة الماء المالح هي أول ما طال أنفي قائلة: هذه رائحة البدايات الجديدة. ابتسمت، ربما تكون هذه بداية جديدة فعلًا! ركنت سيارتي بجوار أقرب مقهى ارتحت لمنظره ونزلت، وتدريجيًّا بدأ يتضح أن قراري المفاجئ أفضل بكثير مما تصورت، فما أن لمست أقدامي الأسفلت كان إحساسي بها مختلفًا! شعرت فجأة وكأني طفل حديث العهد بالعالم يختبر كل شيء للمرة الأولى، يمشي للمرة الأولى ويرى الشوارع للمرة الأولى، فجأة أصبحت أريد أن أمشي وأن آكل، لا، بل أريد أن أجري جريًا وأن أتلذذ بكل قضمة، ولكن قبل أي شيء يأتي دائمًا فنجان القهوة.

الجلوس بالمقاهي كان عادة اكتسبتها في محاولة لتقليد نجيب محفوظ عندما قرأت أنه كان يداوم على الكتابة بمقهى (ريش) في وسط البلد، حتى صارت تلك العادة تدريجيًّا طقسي الأكثر قدسية وأهمية، ومن داخل المقهى المجاور استقبلني صوت مجلجل يحلق في فضائه،الصوت المميز لأم كلثوم ضيفة كل المقاهي وهي تغني في حفل على قناة روتانا زمان (ودارت الأيام ... ومرت الأيام ... ما بين بعاد وخصام) لتفرض حالة من الشجن الحلو على المقهى الذي غام بسحبٍ من دخان الشيشة والسجائر وخليط روائح أحجار الفواكه والمشاريب الساخنة، فسحبت متمزجًا كرسيًّا خشبيًّا متهالكًا وجلست في يدي مفكرتي العزيزة وقلمي الذي لا يفارقني، لأمارس هوايتي في تأمل البشر وتدوين ما يصلح منهم للكتابة.

هذا العجوز النحيل مثلًا: وحيدًا تمامًا على طاولته كشجرة في الصحراء، يجلس على كرسي كهربائي متحرك مرتديًا بذة عسكرية من أيام العدوان الثلاثي عليها سطر فخور من النياشين الثقيلة، ولكن النيشان الأهم هو ندبة تزين رأسه الأصلع وتقول باعتزاز إنه كان بطل معركة ما يزال يعيش على ذكراها. تهتز يده الممسكة بكوب الشاي فيكاد ينسكب، ربما هو مصاب بمرض (باركنسون)، ربما هاجر أبناؤه وماتت زوجته منذ ثلاث سنوات مما أصابه بالحزن حدَّ

السقم، أم الأفضل أن أجعله عاقرًا؟ عاقر في جعبته مئات القصص التي تقبل بمرارة أنه لا جمهور ليسمعها؟

نحنحة مؤدبة قاطعت حبل أفكاري وكتابتي المنسابة، ثم سؤال أحفظه جيدًا: «علاء مدبولي؟». اعتدت سماع اسمي بصيغة السؤال من عشرات الغرباء يوميًّا، الأمر الذي كان ساحرًا في البداية ثم صار مضجرًا بمرور السنين، ولكن على كل حال قفزت إلى شفتاي ابتسامة العلاقات العامة الأوتوماتيكية وأومأت برأسي إيجابًا، فسحب الشاب السائل الكرسي المقابل لي دون إذن قائلًا: «أنا بحب حضرتك ياما وحياة ربنا أنت مش متخيل، أنا عندي كل رواياتك».

معجب آخر هو آخِر ما أريده الآن، ولكن لا بأس، رحبت بالشاب الأسمر بحفاوة مشفقًا على عينيه اللتين ترمشان بسرعة مضاعفة، بلطف قلت:

ـ شكرا جدًّا.

ـ أنت مثلي الأعلى والله.

ـ ربنا يخليك ده أنا على قدي.

ـ لأ فعلًا، رواية ديابلو دي أحلى حاجة قريتها في حياتي.

ـ يمكن ديابلو أنجح واحدة فيهم بس أكيليس هي أقربهم لقلبي.

ـ ديابلو وأكيليس ودراغاو... رواياتك الخمسة كلها Masterpiece. ده حتى أساميهم مميزة جدًّا، بتختارها إزاي؟

كنت على وشك القول بأن مفتاح تسمية الروايات الناجحة في هذا الزمان هو اختيارك لأي اسم شاذ يصلح كعلاج للحموضة أو للإسهال كـ(أوجمنتين) أو (شلالات أنتوسيد)، لكني مبتسمًا أجبته الإجابة اللطيفة المستساغة لدى الجمهور: «شوية دراسة على إلهام».

ثم أخذنا نتحدث لحوالي ربع الساعة عن رواياتي وأبطالها ولحظاتنا المفضلة في كلٍّ منها، أحدِّثُه بوقار الكتاب ويحادثني بإسكندرانيته المتحمسة كثيرة الفتح قليلة الكسر. والحق يقال، سأكون كاذبًا لو قلت إنني لم استمتع بهذا الحديث حتى لو سمعت أمثاله مئات

المرات، فلا توجد متعة عند أي مبدع تفوق متعة تلقي الاستحسان، حتى ولو أظهر عكس ذلك.

وفيما ظننته نهاية الحوار اللطيف فوجئت بالشاب يطلب مشروبًا غازيًّا من القهوجي ثم يعتدل في جلسته وقد بدأت ملامحه تتخذ أنماط التوتر المعروفة؛ تنحنح وفرك يديه وكاد يتحدث أكثر من مرة لكنه سرعان ما أغلق فمه حتى قال أخيرًا: «أنا بحب الكتابة ياما ومحتاج مساعدة حضرتك، يعني أنا ... أنا بحب أكتب وعندي الموهبة بس ما بعرفش أكمل رواية، عايز أعرف أعمل إيه».

كما توقعت، سؤال يخص الكتابة. ابتسمت ابتسامة خفيفة وبثِقل أشعلت سيجارة ونفثت دخانها قائلًا: «ماسمعتش عن ورش الكتابة بتاعتي؟»

ـ بصراحة مابحسش ورش الكتابة مفيدة أوي.

هراء، هو يخجل أن يقول: «لن أدفع عشرة آلاف جنيه في ورشة كتابة ولو كانت لتوفيق الحكيم شخصيًّا بعد أن بُعث من الموت». أعطيته القلم والمفكرة ثم قلت والسيجارة في فمي كما أحب، ظنًّا مني أنها تجعلني أشبه ببطل هوليوودي: «أوصفني بالكتابة، شكلي يعني عامل إزاي».

وبعد خمس دقائق والقليل من الكشط والشطب كان قد انتهى من الكتابة، فأمسكت بالمفكرة وبدأت بالقراءة بصوت مسموع: «رجل في منتصف العقد الثالث من عمره، له بنية قوية ووجه مستطيل عريض الوجنتين، يرتدي منظارًا طبيًّا وله شعر أسود فاحم مصفف بعناية على الجانب الأيسر، فكه قوي وأنفه حاد متوسط الحجم وعيناه بلون الزيتون الأخضر ... إلى آخره».

أخطاء إملائية من نوعية «عمرو» بدلًا من «عمره»، لا علامة ترقيم واحدة، بالإضافة لبعض التراكيب البشعة التي اضطررت لعدم ذكرها: ممتاز يا حبيبي، أنت لم تجتز الإعدادية على أقصى تقدير. نظرت له وقلت متجاهلًا الكارثة المكتوبة:

«حاول وانت بتوصف تركز على الحاجات المميزة غير الشائعة أو اللي بتدي الشخصية أبعاد وجوانب، إنت ماتكلمتش مثلًا عن الجرح اللي في رقبتي اللي ممكن يرجح إني شخص

عنيف، ماركات القميص والبلوفر اللي لابسهم بيقولوا إن حالتي الاجتماعية ميسورة، الدقن غير المهندمة بتقول إن ده شخص غالبًا بيمر بمرحلة اكتئاب ... نسيت كمان تتكلم عن السيجارة».

ظلَّ صامتًا بابتسامة تميل للانبهار أو الإحراج بعد أن استنبط من كلامي أنه أحمق وجاهل كبائعات الكرنب على الأرصفة، ولكن كان عليَّ تصويبه والترويج لبضاعتي التي طعن في جودتها بالمرة، ثم تداركت الموقف قائلًا: «باين إن عندك الموهبة الخام ... بس فيه حاجات كتير لازم تتعلمها عشان تصقل موهبتك وماتبقاش مجرد كاتب عادي، نوعية الحاجات اللي هتلاقيها في الورشة عندي أو ورش الكتاب التانيين». فأومأ متفهمًا وقد أسعدته المجاملة البسيطة، ثم قال بحماس وهو يرتشف من زجاجة الصودا أمامه: «اِسمح لي أسألك بتعمل إيه عندنا في إسكندرية بقى؟ شغل ولا فسحة؟».

ـ تقدر تقول شغل.

ـ بتكتب الرواية الجديدة؟

ـ مظبوط.

ـ ياه أخيرًا ... مستنيينك بقالنا ياما.

بالطبع هي الرواية الجديدة، أو ما عساي أن أقول سوى هذا؟ رواية جديدة هي عرض جانبي لمجيئي إلى هنا، هي حجة مقنعة بدلًا من أن يقول كاتب محترم مثلي إنه هارب أملًا في التعافي من علاقة حب فاشلة ورغبة في إيجاد علاج لكل تلك الكوابيس الليلية. إيمي اللعينة، لماذا كان عليها أن تكون مثالية؟ إيمي عفيفة ونقية كقديسة إيطالية، جميلة وبراقة كألمع نجمة في السماء، زهرة نادرة نبتت في تربة هذا العالم القذر بالخطأ، قطفتها أنا بكل الحظ في الدنيا، ثم ألقيت بها على قارعة الطريق بعد أن اعتدت رائحتها... أرجوكي أغربي عن وجه أفكاري!

مال عليَّ وقال بخبث:

ـ أكيد جاي عشان عمارة ميرتل.

ـ عمارة ايه؟

ـ عمارة ميرتل ... ماسمعتش عنها؟

ـ الحقيقة لأ.

تهللت أساريره وتراجع في كرسيه للخلف، أشعل لفافة تبغ هو الآخر مُعلنًا زوال الحاجز بيننا بعد أن ساوى الفضول بيني وبينه، وقال بفخر تاجر سجاد على وشك أن يعرض أفضل بضاعته الإيرانية: «دي عمارة ظهرت هنا من حوالي شهر وقلبت الدنيا ... في يوم وليلة الناس ناموا وصحيوا لقوا عمارة كاملة موجودة من العدم كأن بقى لها 100 سنة». عمارة تظهر من العدم؟ اقشعر جسدي وتنبهت حاسة الـ«بيست سيلر» لديَّ، لو كان ما يقوله هذا الشاب صحيحًا فأنا على أعتاب رواية من الأكثر مبيعًا وسيناريو فيلم ناجح، ربما سأسميها (يوفوريا) وسأخلق البطل محقق شرطة مستقيل عن العمل. بحماس متسرع أخذ عقلي يرسم تفاصيل العمارة وخلفية البطل في أجزاء من الثانية، هي عمارة مسكونة، أو ربما هي خدعة متقنة قام بها أحد رجال الأعمال للاستيلاء على منطقة سكنية أثرية من أجل بناء كومباوند، بإمكاني حشر بعض الرمزيات عن الرأسمالية بين صفحات الرواية مما قد يرجح كفتي في سباق جائزة ما، فالرمزيات تدفع القارئ والنقاد ولجان التحكيم للجنون وتمدهم بنوع من النشوة، وحقًّا لا أعرف السبب.

سألت وأنا أحاول إخفاء الحماس الذي أخذ يعتريني: «يعني إيه صحيوا لقوها؟ لقوها إزاي؟»

ـ دي كانت حتة أرض فاضية في سيدي جابر بقى لها سنين ياما، ومرة واحدة سكان الشارع صحيوا من النوم لقوا العمارة دي مكان الأرض.

ـ وعملوا إيه؟

ـ ولا قبلين، الناس اتخضوا وكلموا الحي، افتكروها عمارة جن ومسكونة زي عمارة رشدي كده.

ـ وبعدين؟

ـ الحي دور وراها ولقوا ورق العمارة موجود في السجلات ومتسجل من حوالي ... ١٢٥ سنة ... مع إن ماحدش فاكرها خالص أو فاكر إنها موجودة.

ـ طب ما لو فيه عمارة مهجورة زي دي أبسط حاجة الحكومة تاخدها، أو لو فيها مشاكل تهدها وتبني مكانها مجمع كافيهات مثلًا.

ـ ماينفعش، العمارة ساكنة.

ـ ساكنة!

ـ بس ماحدش يعرف شكل سكانها. بيتشافوا ساعات الصبح في البلكونة أو بالليل في الشباك، مايعرفوش حد منهم غير البواب.

كانت كل كلمة تخرج من فمه بمثابة رُزم من الأموال، الرواية مطبوعة وجاهزة ولا تحتاج سوى من يقتنصها ويكتب اسمه عليها ثم يجلس ليحصد نجاحها، عمارة تبرز من العدم ولها أوراق مسجلة ولا يعرف أحد شكل سكانها، كما أنها رواية مستوحاة من أحداث حقيقية، بذرة مثالية للبداية ... تاه عقلي مجددًا في تفاصيل رواية جديدة وقفز لأكثر من فكرة في آنٍ واحدٍ، فقلت وأنا أحكُّ ذقني بعدما فشلت أخيرًا في إخفاء الاهتمام الذي تجلى في نبرتي وحركات يدي بجانب أسئلتي التي حولت المقابلة اللطيفة لتحقيق جاد: «ماحدش جرب يدخلها؟»

ـ فيه كذا حد حاول يتكلم مع البواب بس ماطلعوش منه بحاجة، وكام واحد قلبهم جامد شوية دخلوا وخرجوا وبيقولوا العمارة ... طبيعية جدًّا.

ـ وانت رأيك إيه؟

ـ الصراحة الموضوع مرعب.

ـ إنت شفتها؟

ـ عديت عليها مرة مع أصحابي بس حسيت إحساس غريب.

أخذت نفس عميق من دخان سيجارتي ملأ رئتي بالدخان ونشوة الاكتشافات الجديدة، ثم قلت وأنا أنفثه بعيدًا عن وجهه: «اوصفها لي كده طيب، اعتبره اختبار تاني».

أجاب الشاب الذي احمرَّ وجهه وهو يمرر أصابعه عبر غابات شعره الكثيف بيد وبالأخرى يشيح في عدة اتجاهات تتناسب مع حركة عينيه: «شبه العمارات القديمة بتاعت زمان،

تحسها طالعة من فيلم أبيض وأسود ... لها مدخل طويل وكبير وفيه أسانسير أنتيكة،على السطح والواجهة فيه تماثيل وحوش».

أعدَّ ذهني نموذجًا مبدئيًّا للعمارة وأخذ يرسمها أفضل من أي برنامج (أوتوكاد) بكل التفاصيل الممكنة: سلالمها رخامية بيضاء وعريضة، طوابقها عالية وحوائطها بلون الورق القديم الأصفر. كان كل شيء مثيرًا لهذا العقل المسكين الذي صدأ وعششت العناكب في جنباته، أدارت القصة محركاته بعد عام كامل من الخمول ومشاعر الانفصال التي أكلت ما أكلت من خلاياه حتى شبعت وتقيأت. أشعلت سيجارتي الثالثة وأنا أستمع له بكل حواسي، ثم قلت بعد رشفة من فنجان القهوة فانتعشت أكثر: «غريبة يعني إن حاجة زي دي مش معروفة ولا انتشرت على الفيسبوك مثلًا».

ـ زي ما قلت لك أي حد بيدخل جوة بيخرج يقول إن مافيش حاجة والعمارة موجودة من زمان كأن مخه اتغسل، والناس بتخاف من سيرتها.

سكتت قليلًا ليرتب رأسي كل ما سمعته على خلفية من أصوات المقهى المزدحم وأغنية (دارت الأيام) التي ما زالت تنبعث من التلفاز القديم في الركن. لم آبه للصمت المحرج الذي حل وأرسى قواعده بيني وبين مرافقي، وبعد بضع دقائق أومأت برأسي وشكرته على معلوماته القيمة، وجُن الفتى من فرط الحماس عندما علم أنني قد أبدأ في الكتابة عن هذه القصة من بين قصص عدة مطروحة أمامي، ثم قطعت صفحة من مفكرتي دونت عليها بريد إلكتروني وكلمة سر خاصين بكورس الكتابة الذي أقدمه على أحد مواقع التعليم وقلت له: «ده الكورس بتاعي على موقع Elite ، فور فري ... خلصه كله وشوف هايفرق معاك ولا لأ، ومستنى روايتك الأولى».

وعلى وجهه ظهرت أعرض ابتسامة رأيتها منذ فترة طويلة، ابتسامة شرحت لي مدى أهمية الكتابة لهذا الشاب، فذكرتني ببداياتي، تلك الرغبة الحارقة التي كانت تأكل قلبي وتلهب صدري طوال الوقت لكتابة روايات الجريمة، وأنا أعمل أو أستحم أو آكل، ذلك الإحساس المُلحُّ وكأن عقلك قنبلة موقوتة أو قربة ممتلئة عن آخرها ولا مفر من سكب بعض من الأفكار الموجودة بداخلها على الورق حتى لا تنفجر. بعد سنوات من الخبرة صرتُ متيقنًا أن الكتابة حاجة أساسية لكل إنسان مثلها مثل الجنس، لن يستطيع معظمنا كبتها حتى ولو في هيئة

خواطر في مفكرة الهاتف أو على موقع للتواصل، الرغبة في الكتابة والتعبير عن نفسك حِمل يزداد ويتكوَّم مع مرور وقتك وخبراتك، والعقل هو مثانة لكل تلك الأفكار لا تستطيع تحمل أكثر من استطاعتها، فإما أن تكتب أو تصاب بالجنون.

طلب مني صورة (سيلفي) خرجت مهزوزة كمعظم صور المعجبين الذين تباغتهم أعصابهم المرتبكة غير مصدقة للحظة ولكنه لم يطلب تكرار المحاولة، ثم صافحته بحرارة ودفعت له حساب ما شرب بإصرار مني. مضى وتركني مع مفكرتي وقلمي وحماسي، وابتسامة زارت وجهي أخيرًا بعد انقطاعٍ طال، تركني أشعر بالرؤية أوضح الآن وبأ جهزتي تعمل بالشكل اللائق. أمضيت الساعة التالية في تأمل المقهى والشارع والناس، وتدوين كل التفاصيل التي قد تساعدني في الكتابة لاحقًا: رائحة النعناع القوية، صوت أمواج البحر المتلاطمة على مسافة بعيدة، وملمس المعدن البارد لطاولة المشاريب.

جعلت أدوِّن ملحوظاتي في سلامٍ وأنا أحمد الله على لحظات اللاشهرة الهادئة التي حظيت بها في هذا المقهى الصغير، لبرهةٍ من الزمن كنت إنسانًا طبيعيًّا لا أختلف عن الرجل الأصلع بجواري، بل قد يظن جميع زبائن المقهى أنه أشهر مني لمجرد أنه طلب (زبادي خلاط)، ولا مانع لديَّ لبعض الوقت ألا أكون سوى الزبون الذي جلس لساعات ولم يطلب إلا شايًا بالنعناع وفنجان قهوة، ولست علاء مدبولي.

علاء مدبولي الاسم الأشهر في عالم الكتابة في السنوات السبع الأخيرة، نجم الbest seller وكاتب (الماكدونالدز) كما وصفني أحد صانعي المحتوى ـ في مقالة للذم ـ تتسابق دور النشر على روايتي التالية كما كان يتسابق منتجو الأفلام على عادل إمام، وتتحدَّد جودة معرض الكتاب بجودة روايتي الجديدة، والسبب؟ لا أعرف، حقًّا لا أعرف لماذا كل هذا الزخم؟ ولا تفهمني خطأً فأنا أحب كتاباتي، ولكني مؤمن أن هناك دومًا أفضل.

أما على المستوى الشخصي يمكنك اختزال علاء مدبولي في كلمة واحدة ـ وهذا سر بيننا ـ وهي: الروتين. علاء مدبولي، العبد لله، عدو للتجديد. أجد في العادات وتكرارها بيوتًا وملاذًا، آكل في نفس المطاعم وأستمع لنفس الأغاني، وأحافظ على جدول يومي شبه منتظم ومكرر، فيه أجد السلوى والراحة. السجائر والقهوة والكتابة، والأفلام والمقطوعات والعناية

بالنباتات، من الصعب جدًّا خروجي من مناطق راحتي، ولكني ها هنا، بلا وعي مني كسرت الباب وانطلقت خارجًا، وللمفاجأة أنا أكثر من سعيد.

أخيرًا غادرت المقهى وأنا أستنشق قدرَ ما استطعت من الهواء السكندري البارد الذي أزاح بنقاوته أطنان اليأس المكدسة في عروقي واستبدلها بانتعاش، راودتني رغبة في الاقتراب أكثر من البحر فانصعت لها، وفي تمشية على الكورنيش أخذَت أقدامي تنساب بخفة على لحنٍ خيالي من عزف الرياح، لماذا لم أفكر من قبل في العيش بجوار البحر؟ البحر يمنحك ذلك الإحساس الهائل بالحرية، أن لا حدود للعالم وأنك لست فأرًا في متاهة إسمنتية محاطًا بالسيارات،البحر يخبرك أن هناك دائمًا فرصة للهرب.

بعد تمشية صغيرة ربتت قطرات مطر خفيفة على كتفي في رفقٍ لتنبهني لسيل الأمطار الذي تبعها خلال دقائق فجريت عائدًا إلى السيارة، ينصح الجميع بعدم الذهاب للإسكندرية في هذا التوقيت لأن الخريف على وشك التحول لشتاء يحمل معه طقسًا غدارًا ملعونًا ولكني كنت مستمعًا حقًّا. على عكس كثيرين أنا أحب الشتاء وأجواءه المتقلبة، ولا مانع لديَّ من بعض السيول أو عاصفة رعدية تحبسني في غرفتي بالساعات، ففي مثل هكذا طقس تولد أفضل الأفكار وأكثرها تفردًا، حيث يهرب عقلك المذعور من الرعب الدائر بالخارج وينهمك في صنع فكرة جديدة تلهيه. انهالت عليَّ الأمطار بغزارة فابتسمت عندما ذكرتني ملابسي المبتلة بأبي رحمه الله وذعره الخاص منها، كان يكره المطر والبرد بكل أشكاله، بالأحرى كان يخافه ويخاف الحياة كلها تقريبًا بحكم سنه المتقدم.

فوالداي تبنياني من أحد الملاجئ وهما في الخمسينيات من عمرهما عندما أدركَا أن القبر على مسافة خطوات وأن كتابهما في فصوله الختامية، فكنت أنا فرصتهما الأخيرة للحفاظ على أسمائهما حية بضع سنوات بعد وفاتهما قبل أن تُدفن بين جدران شقة كئيبة بالمعادي، فالموت حقًّا بشع ولكن الأبشع منه ألا يحيا اسمك من بعدك، وأن ينساك العالم بهذه السرعة وكأنك لم تكن.

ركبت سيارتي وقدت إلى فندق (الفورسيزون) في سان ستيفانو وأنا أجاهد كي أرى عبر زخات المطر، أخرجت حقائبي سريعًا ودخلت إلى استقبال الفندق أحث الخطى وأقطر ماءً أنا والنزلاء العائدون من الخارج، واستلم الشيال حقائبي ثم حجزت غرفة زوجية من

الاستقبال التي أصرت موظفته على أخذ صورة معي بعد أن تعرفتني برغم مظهري الكارثي، ولكنني لم أستطع الرفض أمام ابتسامتها العذبة وشعرها البني وقميصها الضيق ـ جدًا ـ فامتثلت لها كسجينٍ أمام جلاده ثم ودعتها مرتبكًا وأنا ألمح بكلمات متلعثمة حمقاء لتفرغي التام في هذه الزيارة وأني بدون مرافق.

كانت الغرفة جناحًا واسعًا مرفَّهًا وتطل على البحر، في طابق مرتفع يكشف الإسكندرية كلها تقريبًا، وبداخل الجناح أفرغت حقيبتي على السرير متعجلًا كي أستطيع التخلص من ملابسي المبتلة وقايةً من الإصابة بنزلة شعبية. في مرآة الحمام تأملتني لبرهة، خلالها مرَّرت يدي على لحيتي الشعثاء أكثر من مرة، هذا اللبلاب الحزين الذي غزا وجهي، توحَّش ونمى فوق ملامح استوطنها الاكتئاب فطمس منها ما استطاع. بغض النظر، هي بداية جديدة والقاعدة تقول البدايات الجديدة دائمًا ما تكون بذقن حليقة، لا أعرف من وضع هذه القاعدة ولكني سأتبعها على كل حال.

***

- 3-

في صباح اليوم التالي استيقظت بذقن حليقة وعزيمة عالية، تشغل قصة العمارة إياها كل غرفة وركن في عقلي، ولمفاجأتي لم تطف صورة إيمي على وجه أفكاري عند الاستيقاظ، للمرة الأولى منذ ليال لا نهائية لم أمض أول ربع ساعة من يومي مشلولًا على الفراش أفكر في شعرها البرتقالي المجعد ومدى غبائي. كان هذا الصباح مختلفًا، حيث لم يشغل بالي سوى قصتي الجديدة: ماذا تخبئ تلك العمارة؟ وكيف سآخذ منها روايتي القادمة؟

وقفت في الشرفة أغتسل بأشعة الشمس الرقيقة التي مرحت في سماء ما بعد المطر الصافية، بضع نظرات إلى البحر الواسع كانت كفيلة لتنظيم أجهزتي الحيوية وإنعاش عقلي ليرتب جدول اليوم في ثوانٍ: أولًا إفطار، ثم زيارة سريعة للعمارة إياها، وبعدها إيجاد مكان مناسب للكتابة. ربما (كافية) على البحر وقت الغروب سيكون فاتح الشهية المثالي لبدء رواية جديدة، حسنًا، هذا برنامج لطيف، ارتديت قميصًا أحبه ومن فوقه سترتي الصوفية المفضلة، بخطى واثقة أخذت طريقي لمطعم الفندق في الطابق الأرضي وعلى وجهي ابتسامة بسيطة لكن ثابتة، ألقيت التحية على عامل نظافة الغرف وبعض النزلاء الأجانب في الطريق، وحتى على صورتي في مرآة المصعد.

يقولون: وجبة الإفطار هي أهم وجبة في اليوم، وعملًا بهذا المبدأ استغرقت حوالي نصف الساعة في إعداد طبق من البوفيه، ثم أعددت في النهاية طبقًا لم يحتوِ إلا على اللحوم، السجق والنقانق واللانشون، صدقًا كيف يستطيع النباتيون الحياة؟ لو كان الأمر بيدي لوضعتهم في قاع هرم المخلوقات الذكية بين الصراصير والقمل أو حتى تحتهما، فعذرك الوحيد كي لا تأكل اللحم وتستمتع به مستسلمًا بين أسنانك هو ألا تمتلك أسنانًا من أساسه، فقط. اختليت بطبقي البروتيني على طاولة وأخذت آكل بشراهة وليدة افتقدتها منذ سنوات، ضاربًا بكل قواعد الإيتيكيت عرض الحائط.

سيجارة وكوب شاي بعد إفطار كهذا كانا بمثابة فقرة ختامية لرواية ممتازة، و لم ينقصني حتى أستكمل برنامج اليوم سوى المرور على الاستقبال لتمديد حجزي، وهناك وجدت نفس موظفة أمس، التي حيتني بحرارة وضحكت على كل نكاتي، ومدفوعًا بتشجيعها أعدت

التلميح لتفرغي في المساء، وكانت ابتسامة منها كفيلة لإمضاء العقد الشفهي وإشعاري ببعض الخيلاء. (ميريت) كان الاسم المطبوع على شارتها، حسنًا يا ميريت استعدي لتدخلي التاريخ، الأنامل التي كتبت «أكيليس» هي ذات الأنامل التي ستكوني بينها الليلة.

غادرت شاعرًا أن العالم سيفتح لي كل باب أطرقه، قد أغزو روما الآن لو أردت، ولكني لست في مزاج للدماء.

من جراج الفندق أخذت سيارتي المغسولة بدموع سماء أمس ثم انطلقت صوب سيدي جابر حيث العنوان الذي وصفه الشاب، أشعلت سيجارة واستمعت إلى الراديو الذي لم تفلح موسيقاه في إثارة اهتمامي، فوضعت في المُسجل أسطوانة لموتسارت ما لبثت ألحانها أن دلكت معنوياتي. طبقًا للعنوان ووصفات المارة ركنت السيارة في أقرب شارع جانبي ونزلت أترجل، سألت أحد أصحاب الأكشاك عن عمارة مارلين فصحح لي الاسم دون حتى أن أنتهي من جملتي ثم أشار بلا مبالاة إلى الشارع على يمينه، بالتأكيد أصبح المكان مزارًا سياحيًّا وسؤالًا متكررًا على مسامع سكان الحي الذين ملُّوا السؤال، ولكني شعرت بالحماس يأكلني أكلًا.

بعد منعطفين وبضعة أمتار من المشي لمحت مبنى قائم من بعيد، بالتدريج بدأت أجزاؤه تتضح بين العمائر والشرفات البارزة، ومع اقترابي من العمارة القديمة صارت خطواتي أبطأ وأهدأ بل أقرب للتبجيل! فبعثت الرؤية الأولى لأطرافها الراسخة في السماء قشعريرة بجسدي، أنا رأيت هذا المبنى من قبل فيما يشبه الحلم! داهمني شعور جديد على أعصابي لم أستطع الإمساك بوصف محدد له، لكنه كان شعورًا ثقيلًا ومذبذبًا ككهرباء تسري في داخلي، ربما كان توترًا أو شوقًا أو إلهامًا، لا أعرف.

واقفة كانت تحت السماء الرمادية، بشموخٍ لم أعهده في مبني من قبل، محاطة بسور حجري متوسط الطول حجب مدخلها عن مجال رؤيتي لكني استطعت بوضوح رؤية شرفاتها العالية الفيكتورية ونوافذها الكلاسيكية المزخرفة التي تشعرك وكأن كل نافذة هي لوحة فنية في حد ذاتها، وعلى السطح كما أخبرني الشاب وجدت تماثيل الغرغولات الشبيهة بشياطين صغيرة قابعة على كل ركن من أركانها، أكثر فأكثر اقتربت من بوابة السور فانكشف لي بينه وبين مدخل العمارة فناء حجري صغير مزروع بأشجار ونباتات عطرة، أما على جانبي بابها العالي

عُلِّق مصباحان حديديان بطراز عتيق لكنه ساحر! لقد رأيت العديد من المباني القديمة من قبل لكني لم أرَ مثل هذه العمارة.

عبرت بوابة السور التي حملت لافتة رخامية تقول (عمارة ميرتل) بالعربية والفرنسية والإنجليزية، باحترام صعدت سلالم المدخل البيضاء واحدة تلو الأخرى حتى دخلت من الباب الحديدي المزخرف. باستثناء رائحة ثومٍ نفاذة هاجمتني ـ بدرجة تشي وكأن هناك من يطبخ الملوخية من السكان ـ شعرت وكأنني في متحف صغير، فكان المدخل مُضَاءً بضوءٍ ذهبيٍّ هادئٍ يصدُر عن مصابيحَ قديمة، وعلى الجدران عُلِّقت لوحات مرسومة جميلة لا تقل جودة عن تلك الموجودة باللوفر: فتاة صغيرة تمسح على رأس ظبية في غابة، تجار قدامى في ميناء واسع يقايضون بضاعتهم مع بحارة سفينة عائدة لتوها، رجل وقور يرتدي طربوشًا ويقف أمام ساعة خشبية ببندول.

أخذت أتابع الرسومات وأتأملها، ألمس قماشها الخشن فيقابل أناملي بوقار، مما دفع في عروقي المزيد من ذلك الإحساس المقبض: لقد كنت هنا من قبل، لقد رأيت هذا المشهد بحذافيره! سريعًا ما استسلمت لنشوة الإلهام التي أصابتني في تلك الأجواء العتيقة، فتسابقت أفكار الكتابة لرأسي كومضات تشبه السحر: رأيت سكينًا، دمًا، رواية تدور في نهايات القرن الثامن عشر، رسامًا مصابًا بانفصام الشخصية، ليلة باردة.

شتت انتباهي عن اللوحة قطة ناصعة البياض تتقافز في المدخل وتموء منزعجة، فتتبعها بصري الفضولي حتى سمعت أحدهم يقول:

«بتعمل إيه عندك؟»

فاجأني الصوت الغريب القادم من خلفي فالتفتت لمصدره، الذي كان رجلًا أسودَ البشرة قاتمها كثمرة باذنجان، يرتدي جلبابًا أبيضَ ناعمًا وعِمَّةَ رأس حمراء وحول وسطه اشتد مئزر بنفس اللون، وكأنه خرج لتوّهِ من فيلم ليوسف وهبي. وقف على عتبة المدخل يرمقني بنظرة من عينين صفراوين محدقتين جعلتاني أجفل، ثم تقدَّم ناحيتي وكرَّر سؤاله فقلت وأنا أبتلع ريقي: «عايز أقابل حد من سكان العمارة». بآلية أجابني وهو ما زال يتقدَّم حتى صار ملاصقًا لي: « مابيجابلوش حد». وهو الرد المتوقع من أي بواب عمومًا، فأخرجت من محفظتي الورقة السحرية ذات الرقم مائة ودسستها في يده بابتسامة الرشوة السمجة، لكنه نظر لها وكأني

أقرضه حفنة من الحشرات ثم قال بتعالي قنصل وهو يرميها: «اتفضل امشي يا أفندي، مافيش هد هنا».

إذا لم يستجب بوابٌ للأموال فلتلجأ للحل رقم ٢: المزاج. من علبة سجائري أخرجت سيجارة مستوردة لن يحلم بشرب مثلها في حياته وحياة أهله، وقلت وأنا أمد بها يدي أمامه: «يا بلدينا هم كام سؤال بس».

ـ ولا بسأل ولا بتسئل، بالسلامة يا هضرت.

ـ صلِّ عالنبي بس، اسمك إيه الأول؟

صمت.

كزرت على أسناني في ضيقٍ، فكرت في عرض مبلغ أكبر ولكنه هو من تحدَّث أولًا بعد أن فحصني بعينيه فحصًا سريعًا ـ لكن دقيقًا ـ امتد من قمة رأسي حتى أخمص قدمي، ثم قال مسرعًا: «بس فيه شُجة فاضية في التالت، تهب تستأجرها؟».

شقة هنا؟! نظرت له مشدوهًا باستغراب، فلسبب ما انقلب الموقف وصار هو من يعرض عليَّ السكن بعدما كنت أستجديه معلومة أو اثنتين، وكان عرضه مباغتًا وغير مفهوم لدرجة أثقلت لساني قبل أن أسأل زاويًا بين حاجباي: «شقة فاضية في العمارة هنا؟».

أومأ برأسه قائلًا وهو يلتقط السيجارة من أصابعي: «إيه جولك؟». قالها بلهجته الجنوبية القائمة على مط الحروف وتدليل بعضها وكما يسميها العامة «سودانية» فلم ينقصه سوى أن يقول: (أنا عثمان سفرجي الهانم). أما أنا فلم أستطع الرد، وقفت محتارًا في قرار سريع بينما خواطر عدة تزور عقلي؛ ربما تكون هذه عمارة أشباح فعلًا وأنا قربانهم القادم، ربما هو مجرد نصَّاب يريد مالي، مئات الـ(ربما) التي تحول بيني وبين الظفر بقرار، ثم زاد الموقف إرباكًا عندما قال: «نص الليل تديني خبر وتيجي تسكن، لو اتأخرت اعتبر الشُّجة فينيتو».

ورغم الذعر ضربني حماس لم أعرف مصدره، زلزل أعصابي وهزني كما شجرة في عاصفة فسقطت كل مخاوفي المنطقية من على أفرعها، اليوم هو يوم حظي بكل تأكيد، تنحنحت وارتديت قناع المشتري غير المقتنع ثم قلت: «حشوف كده، أنا لسه م ...». إلا أنه قاطعني

بإشارة من كفه الضخمة، ثم ربت بها بقوة على كتفي فتنفست الصعداء عندما شعرت بلحمه وعظمه وتأكدت من إنه ليس مخلوقًا سفليًّا ما، ثم تمتم: «اتفضل من هنا يا هضرت».

قالها ومضى باتجاه مصعد العمارة العتيق، فسألته عن اسمه وهو يضغط زر الطلب:

«ماتعرفناش». وبدون أن يلتفت لي قال: «عثمان» يا لها من صدفة! كل شيء هنا يشي أن الأمر برمته برنامج مقالب أو خدعة متقنة. ومن مدخل العمارة الأنيق خرجت كالناجي من الغرق؛ مختلط المشاعر متخبط الأفكار، في غضون ساعات كان عليَّ اتخاذ قرار محفوف بالمخاطر مجهول العواقب! هل أقبل فعلًا بسكن هذا المكان الغامض بعد مقابلة مع بواب استمرت لدقائق؟ كل ما أعرفه أني أحتاج لهذا، أحتاج لهذه الشقة التي ستدفنني تحت أعماق من الإلهام وستجرف الذكريات بعيدًا، ذكريات إيمي.

إيمان هو اسمها، تكرهه وأحبه، تطالب الجميع بمناداتها إيمي فأناديها بإيمان لأثير غيظها، حتى تتسنى لي رؤية غضبها الفاتن، إيمي ملاك ضلَّ طريقه للفردوس فسقط في غابة مدينة نصر الخرسانية، قطة بشرية وقطرات مطر ناعمة، أبوها الفن وأمها الرقة، بالتأكيد لها قصة خلفية كالأساطير اليونانية؛ كان الفن سكيرًا في إحدى حانات أثينا بعدما أدى وصلته الغنائية، وهناك على أحد الموائد لمح الرقة تجلس وحدها بشعرها الناعم المعقوص ذي الخصلات العشوائية السائبة فوقع في حبها وطار أثر الخمر من عقله، تزوجَا وأنجبَا إيمي، بالتأكيد لها قصة مشابهة.

هززت رأسي ونفضتها بعنف حتى أبعثر أفكاري عنها، أمسكت بمقود السيارة وأغمضت عينيَّ في يأس في محاولة للهرب منها إلى أن أنقذني رنين الهاتف فأخرجته من جيبي شاكرًا منقذي السمج صاحب الظل الأثقل في العالم، عزت ابن خالتي. اسم عزت على شاشة التليفون لا يعني سوى مطالبة بالأموال، فما أن أضغط على زر الاستقبال يتحول لمرابي يهودي يحسب كل مليم، ولكن حسنًا، أي شيء سيطرد شعر خطيبتي السابقة المجعد من أفكاري هو أكثر من مرحب به، حتى ولو كان عزت السمج الذي لا يعرف في حياته غير الأموال وحب السيارات الطفولي، أجبت المكالمة فظهر على الشاشة وجه عزت المستفز بشحمه ـ وما أكثر شحمه ـ يحتل لغدُه ما لا يقل عن ربع الشاشة، أطل عليَّ بابتسامة سخيفة وهو يلوك ما طالته يده من طعام أو جماد في هذه الساعة، ثم قال: «إيه يا لولو عامل إيه؟».

تصنعت الابتسام وأنا أقول: «كويس الحمد لله إنت عامل إيه؟ أنا في إسكندرية يا عزت لما ارجع هجيب لك فلوس المرتبات واد...». فقاطعني وهو يقضم خيارة بحجم طوربيد تقريبًا: «لا لا أنا مكلمك عشان حاجة تانية، خد خالتك معاك أهيه». ثم ترك الهاتف ليظهر على الشاشة وجه خالتي (سناء) بطريقتها الخرقاء التي تعكس علاقتها بالتكنولوجيا. جميلة كانت برغم سنها، تزيدها التجاعيد حلاوة وتحكي قصصًا غير منطوقة عن حكمتها الواسعة، شعرها الأبيض القطني تاجٌ استحقته بعد سنوات عِدة من الخبرة والتجارة، وبرغم كونها الأخت التوأم لأمي لكنهما لم يتفقان سوى في الشكل.

فكانت أمي (نادية) تقدس الإتيكيت واللغة الفرنسية وكل ما يؤكد انتماءها لمدارس الراهبات، كان هوسًا انتقل لي أنا حتى، فكما كانت تخبرني دائمًا (فيه بنات وفيه بنات فرانكوفون) وبالنوع الأول بالتأكيد تقصد حثالة البشر الذين لا يستحقون الأكل في طبق واحد مع النوع الثاني. كانت أرستقراطية إلى حدٍّ مزعجٍ فتخال أنها كانت الصفة الوحيدة في شخصيتها، بلا ذكاء أو غباء أو خبث أو قيادية، فقط أرستقراطية خالصة تعجن كل شيء، وكأن خلايا جسدها كانت تتواصل وتسجل معلوماتها بالفرنسية.

وبينما كانت نادية أرستقراطية معتزة بطبقتها وترى الجميع من نافذة التعالي، نزلت سناء من على عرش الفرانكوفون واختارت أن تتعامل مع الوضيع قبل الشريف، كانت (بِنت سوق) كما تفتخر دائمًا وتتغنى بطين الخبرات الذي لطَّخ ملابسها وعلِق بروحها، ففي نفس اليوم كنت أراها في نادي هليوبيلس بعد زيارة لإحدى جمعياتها الخيرية في عزبة النخل، نسخة أكثر تعقلًا ومرونة من أمي والأهم أنها صورة منها ما زالت على قيد الحياة.

ابتسمَتْ ولوَّحْتُ لها من خلف الشاشة فبادلتني الابتسام وهي تعدِّل من منظارها الطبي قائلة: «إزيك يا مضروب». وبعد محادثة دافئة قصيرة عن أحوالي و(وشي اللي نور) عندما حلقت لحية المجاذيب الخاصة بي تغيرت نبرة صوتها واختفت الابتسامة وهي تقول بجدية وبدون لف ودوران كعادتها:

ـ علاء، أنا شكلي هقفل الملجأ.

ـ إيه! ليه يا خالتو بس حصل إيه؟

ـ الدنيا معكوكة خالص يا حبيبي والحكومة مش سايباني في حالي، الملجأ بيشفط فلوس كتير قوي وأمام الله أنا اليومين دول مش هعرف أصرف أكتر من كده.

وكأنني في حاجة للمزيد من الاختيارات! عقدت حاجباي ولم أرد، حدقت فيها لكن عقلي سافر هناك وسط هؤلاء الأطفال، بيتي الأول والأخير، أنا لست قديسًا ولم أكرِّس مثلها حياتي للأعمال الخيرية، لكن لي مع هذا المكان علاقة شاعرية خالصة تقوم على الامتنان، فهو نفس الملجأ الذي آواني وأنا رضيع ابن أيام، وعلى قدر ما يبدو القول مبتذلًا كان أبسط جزء من ردِّ الدين هو إنقاذ الملجأ الموشك على الإفلاس والحفاظ عليه بعدما كبرت وجنيت ثروة، فشاركت فيه سناء منضمًا لأسطول أعمالها الخيرية وتقاسمنا النِّسب والفواتير، فأنا أعتبر كل أيتامه أطفالي، بل أعتبرهم أنا، نُسخ تعيسة الحظ مني لم ينتقيهم مدبولي ونادية في ليلة كئيبة بعثت فيهما الشجن وغذت مشاعر الحرمان من الأبوة.

تنهدت وقلت: «استني بس، مافيش حاجة هتتقفل، أنا هحاول اتصرف في الفلوس لحد ما ترجعي معايا». وأجابتني هي بابتسامة حانية ونظرة أعرفها جيدًا، نظرة تقول (كنت أعرف) ما لبثت أن أنارت صدري المظلم الكئيب وكنست من داخله أي غضب أو إحباط، بعد مكالمة سناء أنا دائمًا أفضل.

بعدما انطفأ الحماس وهدأت عاصفة الإلهام بداخلي بدت فكرة الشقة بين مرعبة وساذجة، ناهيك عن توتر الساعة الرملية التي تتسرب حباتها في جنون، ساعات معدودات وينتهي هذا العرض الغريب، أو أنتهي أنا نفسي! ولكني، مدفوعًا بإحساس أن اليوم هو يوم حظي، اخترت النظر للجوانب المشرقة، فعلى الأقل لم يكن البواب شبحًا وهذه نقطة بداية جيدة في مفاوضاتي مع المنطق من أجل قبول الشقة المشبوهة.

مستنزف الطاقة عدت للفندق عند حلول الظهر، وفي زوبعة أفكاري المحمومة مارست ألف نشاط لعلمني أسترخي: استحممت وتعطرت وتناولت عشاءً باهظًا من السمك والجمبري، أجهزت على علبة سجائر كاملة وتوسَّلَتْ رئتاي بالسعال طلبًا للرحمة لكنى لم أصغ، استمعت إلى بعض من موسيقى الچاز ولعبت مباراة شطرنج مع نفسي تخيلتني فيها بطل عالم روسي وفزت بها، ولم أصل لقرار بعد، ليس من عاداتي التصرف بشكل مفاجئ ومع ذلك هأنذا ألقي بكل عاداتي البحر وأفكر وفقًا لحماس ملعون يتغلغلني. نظرت في ساعة يدي فوجدت

عقرب الثواني يجري وعقرب الدقائق يجاريه في نشاطه، متجهين بثبات صوب منتصف الليل، يا لك من وغد أيها الوقت.

بداخل عقلي تبارت الأفكار المتضادة في مباراة حامية تصارع فيها قلبي مع المنطق:

أحرز فريق العقل هدفًا عندما ذكر الحقائق المريبة عن العمارة، أحرز هدفًا آخر عندما قال إن احتمالية دخولي بدون خروج عالية، صارت النتيجة 0 ـ 2 والمباراة تنتهي، لكن هاجم الفريق الأحمر بصورة إيمي ورفع صوته قائلًا: إن قبولي الشقة هناك سيساعد على التوصل لحبكة رواية قد يعيد نجاحها خطيبتي السابقة، هذا هدف بثلاث نقاط، تبًّا كنت أظنها مباراة كرة قدم وليست كرة سلة، لا بل هي مباراة ملاكمة كوَّم فيها الفريق الأحمر خصمه المنطقي على الأرض وانهال عليه بضربات تحت الحزام في منطقته الحساسة، فرفعت يد اللاعب القذر عاليًا معلنًا فوزه، وفي دقائق كنت أحزم حقائبي عازمًا على قبول العرض.

في استقبال الفندق قابلت ميريت ذات الابتسامة البلاستيكية والتعبير الواحد الذي لا يتغير، لكنه تغير عندما طلبت سحب إقامتي من الفندق متعللًا بظروف طارئة لكن مع وعد بالعودة مجددًا، فاعترض قميصها الضيق على قراري بشدة وحاول إقناعي بالتراجع بارزًا المزيد من مفاتنها، ولكني اعتذرت له بأدب وقلت سامحني أيها القميص المحترم فلديَّ رواية لأكتبها وعرض لأقبله.

***

-4-

قبل الذهاب للعمارة سحبت مبلغًا محترمًا من ماكينة الصراف الآلي من أجل الإيجار، ثم جلست في مقهى شعبي بمحطة الرمل أدخّن وأراجع قراري مرة أخيرة. أحضر لي الشاي قهوجي انتحرت خالته ويحلم بأن يكون مطربًا أوبراليًّا ـ بحسب القصة التي وضعها له عقلي ـ ولعبت الطاولة مع عجوز يعمل في تجارة الأنتيكات المقلدة ويخون زوجته مع جارتهم أم رانيا منذ ٣٠ عامًا وإلى يومنا هذا، دائمًا ما يختار عقلي اسم أم رانيا لأي عشيقة، وجلس بجواري مسجل خطر اسمه عجوة قتل ثلاثة من أصدقائه من أجل حزمة جرجير، للأسف لم تكن هذه القصة من خيالي.

الساعة الحادية عشر، لا يوجد المزيد من الوقت. توجهت أخيرًا للعمارة بقدم يؤخرها القلق وأخرى يشلها الخوف، ولكن هيهات، وهناك ركنت سيارتي في نفس البقعة ومشيت على نفس المسار حتى وصلت للعمارة المهيبة، تأملتها في مسحة الظلام الليلي فما كانت إلا أجمل وأرقى من المرة الأولى لتؤكّد القرار المعتوه بداخلي.

أخذت نفسًا عميقًا ودخلت من بوابة السور، مددت عنقي للأمام قليلًا كزراف يبحث عن طعام فوجدت عثمان نائمًا على دكة خشبية في الفناء، وعلى حد علمي لا تنام العفاريت، كما أن مصاصي الدماء ينامون في توابيت ... حسنًا، إشارة أخرى جيدة، حاولت التقاط بعض تفاصيل العمارة عن قرب ولكن العفريت النائم كان قد استيقظ، تثاءب وفتح فمه ذا الأسنان ناصعة البياض فصار كما ثقب أسود على وشك ابتلاع الموجودات، ثم أشار إليَّ برأسه مرحبًا وقال: «يا مرهب».

«مرحب بيك ياخويا» تمتمت بها في سري وقد بدأت مخاوفي تجاهه تتقلص أكثر فأكثر، انحنى لي في أدب ثم وقف بنشاط لا أعلم من أين استمده، وسألني وهو ينظف أذنه بإصبع الخنصر كأي إنسان محترم: «نويت تعمل إيه في الشُّجة يا أفندي؟».

أجبته وأنا أرفع كفًّا مشترطة: «هاخدها بس بشرط ... عايز اعرف حكاية العمارة». فتجعَّد خداه السوداوان لأعلى وتقوست شفتاه الورديتان فيما يعرف لدينا نحن البشر باسم الابتسام،

على ما يضحك هذا الأبله؟

ـ هتعرف كل شيء في وجته، الخواجة صاهب العُمارة عازمك على العشا بكرة.

ـ طب نتفق الأول، كام الإيجار؟

ـ بالمجان.

ـ مجان؟!

ـ إيوة يا أفندي، صاهب العُمارة مديهالك بالمجان.

على النقيض لم تفلح مفاجأته هذه في إغرائي بل زادت من قلقي، بالتأكيد هذا فخ، أنا كاتب روايات جريمة ولست مؤلف كتب للطبيخ وأستطيع أن أقول بثقة إن هذا فخ رديء الصنع؛ الميعاد النهائي قبل منتصف الليل والشقة المجانية والبواب الذي يلبس كسفرجي قديم، هذه مصيدة. وفيما يبدو شمَّ عثمان التردد يفوح من تحت جلدي، فضم كتفيه للأعلى في لامبالاة وقال: «لو مش عاوزها زبونها منتظر، فيه أفندي تاني متكلم على الشُجة».

لا تتراجع، قلت لنفسي وأنا أفكر لمرة أخيرة، هذه فرصة قد لا تتكرر مجددًا كما أنك سحبت إقامتك في الفندق ولملمت أغراضك فلا تتردد كالفتاة الصغيرة. لكَمَني الفضول لكمة قوية على صدري ثم أشار برأسه أن اتبع البواب، فأطعته وأحضرت حقائبي من السيارة وتبعت عثمان وسط النظرات المستغربة من بعض الصبية الذين كانوا يلعبون الكرة في الشارع لكنهم تركوها تسرح بعيدًا وحلت استراحة بين شوطين إجبارية لمباراتهم الصغيرة.

برغم كل تساؤلٍ مقلقٍ واعتراضٍ منطقيٍّ بداخلي تقدَّمتُ شاعرًا أنني بطل قصة تبدأ، مستكشف يصعد سطح سفينة مُوشِكة على الإقلاع أو على أعتاب غابة محرَّمة، ينبئني حدسي بأن هذه مغامرة حقيقية، بغريزة الكاتب كنت متيقنًا أن خطوتي الأولى هنا هي مجرد خطٍّ في عدة فصول سُتكتب. أخذني عثمان أنا والحقيبة عبر المدخل الأنيق الذي لعبتْ فيه ثلاث قطط بيضاء لعبة ما، وحيث كانت رائحة الثوم ما زالت معلقة في المكان.

انسابت قدماي بسلاسة على الرخام الأبيض الناعم ودارت رأسي لتتشبع بكل تفصيلة فنية في المكان، ثم سألت عثمان عندما دخلنا المصعد القديم: «مين بقى صاحب العمارة دي؟».

ـ لما تجابل الباشا هتعرف.

ـ طب فيه حد غيره ساكن هنا؟

ـ العمارة كلها ساكنة.

ـ وماحدش من السكان بيخرج؟

ـ ويخرجوا ليه وهم عندهم كل حاجة يا سعادة البيه.

وقبل أن آتي بسؤالٍ آخر توقَّف المصعد الخشبي في الطابق الثالث وفتح البواب الباب باسطًا ذراعه بما معناه (تفضل) فتفضلت مرتابًا، وأمام باب شقة خشبي طويل وقفنا. على ضوء المصباح الذي يغمر الطرقة بخيوط ذهبية أخرج عثمان من حول رقبة متينة كجذع شجرة خيطًا يصلصل بعدة مفاتيح، انتقى منه مفتاحًا أسودَ طويلًا ودسه في القفل فانفتح.

جمال فائق استقبلني؛ شقة فخمة لا تقل عن جناح في قصر ملكي تتناثر بها لمسات كلاسيكية من تماثيل برونزية وملائكة رخامية ولوحات تكاد ألوانها تنطق، ستائر مخملية وسجاد فخم ومدفأة أضاءت المكان بلهبها البرتقالي الفاتن الذي ألقى بظلاله وصنع من الأثاث ظلالًا أخرى غمرت الأرجاء، تجمدت في مكاني لبرهة كأي عاشق كلاسيكيات محترم عكس عثمان الذي دخل بلامبالاة وربما كاد يرفس أو ينهق وهو يضع حقائبي على الأرض، طلبت منه عقد الإيجار فقال ببساطة إنه لا يوجد عقد، وأن الشقة الآن أصبحت ملكي بصورة نهائية.

إما أن صاحب العمارة هذا مجنون أو أنه فعلًا ينوي إعداد فتة كوارع من جثتي، هكذا فكرت وقد اطفأت التفصيلة النهائية من العرض كل شعلة حماس في صدري، لا أحد يعطي كأس ماء بارد بلا مقابل في هذا الزمن، فما بالك بشقة تحوي ما يكفي من الأنتيكات لما يسدد ديون حي؟

ثم اكتملت الريبة بنظرة متسعة من عيني عثمان الصفراوين، ما هذا الرعب؟! ربما هذا هو الجزء الذي ستظلم فيه الدنيا وستدق الطبول وتخرج الخفافيش من مخابئها، فتسمرت مكاني بغباء منتظرًا صرخة تصم الآذان، ثم تفسيرًا سينمائيًّا لهذا الفخ حيث سينظر عثمان للكاميرا قائلًا: (لا توجد شقة يا غبي، أنت مجرد ساذج آخر سننتزع أمعاءه ونشويها لنأكلها مع بعض المخلل). فكرت في الجري هربًا صارخًا كالفتيات، أو الانسحاب بهدوء متعللًا

بجلب حقيبة أخرى من السيارة ثم الفرار، ما دمت لم أؤكل حتى الآن فما تزال أمامي فرصة، ولكن على عكس مخاوفي أغلق البواب الباب خلفه بهدوء قائلًا: «فوتك بعافية يا أفندي».

تركني للظلال ولخيالاتي، فتوقفت في منتصف غرفة المعيشة أصارع قرار الفرار لعل قبضته تشتد وتسحبني معها من هنا، لكن ثبتت قدماي هنا ورسختا، هذا ثقل السحر الذي تسرب لروحي كلما نظرت للشقة، سحر السمكة التي تعود للبحر. نادتني الجدران المنقوشة ونظرت الملائكة البرونزية في عيني فهدأ جسدي المتوتر وبلا تفسير لانت عضلاتي المتحفزة، كتهويدة تُلقى على مسامع طفلٍ باكٍ سلبني المنظر أي شك، ولاحت على وجهي ابتسامة لم أفهم سببها.

كالمنوم مغناطيسيًّا سرت أتفقد بيتي الجديد، أمسك بخشب أثاثه وأمرر أصابعي على مخمله الناعم، ويجذب بصري سقفه العالي ذو النقوش الفنية التي تحيط برسمة كبيرة لشابات متسربلات بثياب بيض يقفون في وسط أشجار باسقة يعزفن قيثارة ضخمة. في فضول طفلٍ أخذتُ أتفقد كل ركن مبهورًا، فحتى مقابض الخزانات كانت أعمالًا فنية، حتى المصابيح كانت قديمة ومنها التي كانت تعمل بالزيت.

لم أقوَ على إفراغ حقائبي، قبل أي شيء قررت النوم انصياعًا لأوامر جسد أنهكه يوم طويل وعقل أعياه التردد، ولكن لم تتركني خيالاتي وحدي فصاحبتني للسرير النحاسي ذي القوائم الطويلة والناموسية، لعبت بي وبرأسي ولحوالي ساعتين تحوَّل عقلي لمسرح كامل العدد يعرض أسوأ الاحتمالات وأكثرها تشاؤمًا حول نومي في تلك الشقة... لن أستطيع النوم هنا.

خرجت وألقيت بجسدي على أريكة زرقاء بلون البحر فاندهشت أنها لم تنثر ماءً، وفي حالة أقرب للنشوة تمددت في مكاني ... لسبب لا يعلمه إلاالله استرخيت أخيرًا وضربني النعاس، دخنت سيجارة تصاعد دخانها إلى السقف وهبط رمادها على صدري فنمت مكانه أشجار توت تساقط ثمرها في فمي بدون أن أهزها، ثم بدأت فراشات في الطيران من على الشجرة الوهمية، مرت إيمي أمامي بلباسها الأبيض كالشابات على السقف، في يدٍ كانت تحمل إكليلًا من الزهور وفي الأخرى كوبَ نسكافيه ـ بالكراميل كما تحبه ـ أخذت منه رشفة ثم أفرغت المشروب الساخن على وجهي، أخذت تعبث بشعري فلم أَشْكُ ... أعلم أنها هلاوس وأن

وعيي يتداعى، ولكني تشبثت بها ولم أُرد تفويت هذا العرض، كالأبله ابتسمت لهلاوسي، أنا هنا يا إيمي، اعبثي بشعري، دلليني وأخبريني أنني لم أخسرك، وأنك ما زلتي تحبينني.

***

عودة لسنة 1898

(السنة المفقودة من التاريخ)

أمام جسد عديلة المحتضرة تذكَّرت الأيام الماضية، واستحضَرَت رأسي إجباريًّا تتابعًا سريعًا من الذكريات رغم ذعر الليل والكونستابلات المحيطين بي، فكانت ومضات مستقطعة ومغمسة في الخوف من مصيري، حلَّت كلها في رأسي بدافع الندم الذي أعلم جيدًا أنه لن يفيد بشيء، ندم على قبولي الشقة والمغامرة، ولكني لا أملك سوى الندم هنا، في محبسي الجديد بالزمن القديم.

هنا حيثما أرقد، حيث يفترش جسدي أرض التخشيبة القذرة وتتحرَّش رائحة البول العطِنة بأنفي، محتجز في قراقول محرَّم بك الذي نُقلت إليه بعدما ضربني الكونستابلات على رأسي، بأعين متسعة وأيادٍ مرتجفة كبلوني وهم يبسملون ويحوقلون وكأنني إبليس بنفسه، بالطبع لم أستطع إقناعهم بأنني مجرد شاهد بريء، فدماء عديلة تلوث يديَّ وأكمام بدلتي وتضع الأصفاد الحديدية في يدي. في البداية قاومت بهدوء رافعًا يديَّ لأعلى، مبادرًا بسلمية أن: هذا سوء تفاهم، أنتم لا تفهمون مَن أنا، في الواقع أنا هنا من المستقبل لكي أنقذ هذه الشابة بعدما قبِلت شقة في عمارة ميرتل.

بالطبع لم أتفوه بالجملة الأخيرة، حقنتني باليأس حقيقة أن موقفي كان هشًّا وأن قولي لأي كلمة سيزيد منه سوءًا، بل وربما سيتم إلقائي في مستشفى للمجاذيب لو تحدثت، فخرج انفعالي في شكل ثورة من التشنجات عندما انقضوا عليَّ وكبلوني، ثورة سرعان ما خمدت فور أن تلقيت الضربة من العصا الغليظة على رأسي، فسكن جسدي الذي أودعوه في عربة حديدية مغلقة تجرها الخيول بطول الطريق إلى القراقول.

غاطسًا في البركة الثلجية الواقعة بين الوعي واللاوعي شعرت بجسدي المسجى على الأرضية الباردة للعربة يهتز مع هزاتها الفزعة على حجر الطريق، وتسمع أُذناي أصواتًا لا أرى

مصدرها: حوافر خيول تدق في جزع ولسعات سوط غاضب بين الحين والآخر وصياح الشاويشية متبادل، حتى بلغنا قراقول محرم بك.

في التخشيبة أصابتني نوبة هلع معتبرة وأنا أستفيق، رويدًا رويدًا حاوطني ظلام الزنزانة بدلًا من ظلام الإغماء، ثم زحفت عليَّ الحقيقة الثقيلة ونكزني الواقع في فزع؛ لقد أخرجوا زبانية قطاع الطرق واللصوص المحبوسين بالداخل ونقلوهم زنزانة أخرى، وتركوني هنا وحدي كمصابي الجزام وحاملي العدوى لأنني طبعًا أخطر منهم وألعن!

عبر الفتحة في باب التخشيبة الحديدي رأيتهم يحدقون فيَّ من بعيد، يتهامسون ويغزلون الأساطير المعاصرة فيما بينهم حول سفاح النساء الجديد: يقسم أحدهم أنه رأى عينيَّ تلمعان بالملون الأحمر الشيطاني ويحلف آخر أنه سمع أصوات الجان تخرج من عندي، هكذا أمضيت ليلتي الأولى، أجوب التخشيبة المظلمة في مسارات لا تنتهي، لا أرى من المكان سوى ما سمح لي به نور القمر الآتي من النافذة المربعة، ولكني بعد بضع دورات وخبطات في جوانبه استطعت استيعاب حدوده.

على الأرض القذرة نمت، تقلبت مرات عديدة وتحسست السلسلة حول عنقي، قمت وصرخت بأني بريء كما يفعل المساجين في الأفلام، واستوعبت جيدًا لماذا يقومون بتلك الفعلة عديمة الجدوى، ازداد صراخي حدَّ الجنون وضربت الحائط بقبضتي ثم تكوَّمت في جانب الزنزانة حين تمكن مني التعب كملاكم مخضرم، فاستسلمت للذكريات من جديد، يوبخني الندم صارخًا في وجهي: لماذا أنت هنا؟ لماذا وافقت على كل ذلك يا غبي؟

***

-5-

سنة 2023

(التاريخ كما نعرفه)

لم تقتلني الشقة!

استيقظت فزعًا على الأريكة البحرية في بادئ الأمر، ثم أخبرني خيط اللعاب على طرف فمي بنوع النوم الذي حظيت به، نومٌ مرهقٌ متعبٌ ولكني سليم! متحسسًا جسدي في بلاهة احتفلت خلاياي بأني لم أزل حيًّا وعانَقَتْ كرات دمي الحمراء زميلاتها البيضاء وبكت البلازما، بطريقة ما نجوت في ليلتي الأولى بهذا المكان الغامض. في شيء من الارتياح طقطقت رقبتي وبصعوبة أنزلت قدميَّ على الأرض، إيمي كانت هنا، زارت أحلامي المخلوطة بالواقع وربتت على رأسي المسكين، أكاد أقسم أنني لمست جسدها الأبيض الثلجي ونظرت في عينيها الخضراوين فحلَّ الربيع في غرفة المعيشة ... ابتسمت مجددًا.

حملتني قدماي للحمام، فركت عينيَّ وتثاءبت في صرخة مكتومة قام بها جسدي طلبًا للقهوة، حسنًا أيها الجسد العزيز لا مانع من بعض القهوة للاحتفال، ولكن أين الموقد؟ كانت تلك الـ(أين) هي الأولى في سلسلة من علامات الاستفهام التي تتبعتها، لا موقد ولا غلاية كهربائية ولا حتى خلاط، المطبخ كله قطعة أثرية تصلح للمعرض في متحف، والوابور الموضوع على طاولته الخشبية كان أكثر أجهزته تطورًا. من بين عينيَّ الثقيلتين وقفت أرمق أرجاءه في ضيق، لعنته ثم تفقدت هاتفي الباكي طلبًا لبعض الكهرباء، ولكن لا شبكة تغطية، ولا يوجد مقابس كهرباء للشاحن أيضًا!

زفرت في ضيق وأنا أحكُّ رأسي ثم أخذت غاضبًا دورتين فوق السجاد الإيراني ذي نقوش النباتات الواقعية بحثًا عن مقبس، هذه الشقة مجرد كهف مفروش جيدًا ولهذا السبب أراد أن يعطيها لأول مغفل! الآن بدأت العيوب تتضح في العرض السخي. حسنًا، ستنشب بيني وبين البواب مشاجرة حول هذه الخدعة، ولكن قبل أي شجار أو قرار يجب أن آكل أولًا.

التبضع حل مؤقت رائع يساعد على تنقية الرأس من شوائب الغضب ويزيل الاحتقان من صدرك، لطالما كنت مؤمنًا بأنه علاج حريمي حتى جربته بنفسي فآمنت بقدراته وصرت من مريديه، وتبضع الـ(هايبر ماركت) حيث أخذت سيارتي وذهبت هو نوعي المفضل.

أرفف لانهائية من كل وأي صنف في الحياة يجلسون في انتظارك في أدب العاهرات ببيوت البغاء، ملونة ومعلبة ومغلفة بعناية، مصممة حتى تسلبك إرادتك وتدفعك إلى تفريغ جيوبك من كل مليم مقابل بضائع لا تحتاج إلى نصفها. حتى يهدأ، لجأ غضبي إلى قائمة طويلة من الطعام غير الصحي: مخبوزات طازجة ودجاج للتحمير وكعك متخم بالسكر وبرطمانات الشوكولاته الذائبة وأجبان باهظة مستوردة، والمزيد من اللحم ومشتقاته.

ساعدتني الأرفف المكتظة بالبضائع على النسيان، فتبدلت أفكاري الغاضبة عن الشقة غير الصالحة للمعيشة بأخرى حول الحلويات والنوع الأفضل للقهوة المثلجة، ثم عدت للعمارة مُحمَّلًا بعدة أكياس بلاستيكية بيضاء تحوي ما لذَّ وطاب من أطنان الدهون المهدرجة القابعة في حضن المواد الحافظة، حتى داهمني خاطر مستفز وساذج استجابت له معدتي على الفور بتقلص حانق: كيف سأطبخ بلا مطبخ؟

دفعتني الفكرة الغاضبة لاقتحام مدخل العمارة بحثًا عن عثمان الذي كان جالسًا على كرسي خشبي في الشمس باحثًا عن بعض الدفء، فبدا مثل شجرة كاكاو راكعة تطلب من السماء مزيدًا من النمو والوفرة وتبعد الذباب بناموسية برتقالية، أو ربما تطرد بها رائحة الثوم العالقة بالمكان. ما أن رآني ذكر شجرة الكاكاو وعلى وجهي ما يكفي من أمارات الغضب التي تشي بأني سأقتلع رأسه من مكانها وأضعها على رفِّ مدفأتي، أشار لي بالناموسية وقال قبل أن تتطاير كلماتي في وجهه: «البيه الكبير عازمك على العشا الساعة تمانية بالليل عشان يشره لك كل اللي تهبهُ».

ابتلعت موشح الإهانات الذي كنت على وشك سرده، وهضمته بصعوبة بالغة، ثم وقفت أرمق عثمان في ضيق وقد منعني كلامه مؤقتًا من الانفجار، فقط قلت وأنا أناوله الأكياس: «أنا هطبخ إزاي؟» فقال بعفوية وهو يتقدمني للمصعد: «على البابور». يا لك من لطخ بارد!

في الشقة جلست بلا كهرباء أمارس الحد الأدنى من الحياة، بالتأكيد كان هذا شعور (هاري هوديني) عندما كانوا يدفنوه حيًّا في أحد التوابيت. «كُفَّ عن التذمر» أخبرت نفسي ولكنني

لم أستطع، أخذت أفرغ حنقي في الطعام الذي ابتعته، أنفثه مع دخان السجائر وأدفنه تحت قطع الكعك وأخنقه بلقيمات الجبن، ولكن حتى الطعام لم يفلح في إخماد غضبي ولا قلقي حول العشاء المقترب، للمرة الثانية تنبهت حاسة الكاتب بداخلي، أنا أشعر، بل أعرف، أن هذا العشاء يحمل في جعبته أكثر من بعض الطعام وأحاديث سطحية فارغة.

وبناء على حاستي أمضيت الساعات السابقة للعشاء أتوتر، قبل الموعد بساعتين تأنقت في أفضل ملابسي: قميص أبيض أعلى منه سترتي الصوفية المفضلة باللون الأخضر مع سروالي الجينز، وصففت شعري على جانبه الأيسر كما أحبه، ثم حلَّت الساعة الثامنة تتلكأ ببطء ومعها سمعت الدق على الباب، أخيرًا أتى عثمان. تقدمني صاعدًا السلالم دون أن ينبس ببنت شَفة كتمثال من الرخام حتى بلغنا شقةً مثل شقتي في الدور الرابع، طرق بابها ثم تنحَّى جانبًا ففعلت مثله، وانفتح الباب ليكشف عن لمحة من صالون يسبح في أضواء الشموع وأشباح من الظلال. دخلت على إثر إشارة مؤدبة من ذراع عثمان بمعنى ادخل، ثم دبدب قلبي بقوة عندما وقعت عيناي على المشهد السينمائي.

سفرة كبيرة عامرة بصنوف الطعام وحول منها يجلس حوالي سبعة أشخاص غريبو الهيئة، لكن ما شد انتباهي بحق كان العجوز ضئيل الحجم الجالس على رأس المأدبة مرتديًا طربوشًا ومنظارًا ذهبيًّا وبدلة (سموكين)، وله شارب أبيض مبروم أفضل من ضفيرة محرك ألماني. كان يمضغ لقمة ما توقَّف عن بلعها عندما رآني، وطبقًا لقواعد الإتيكيت وضع السكين والشوكة بجانب طبقه، وحذا جميع الجالسين حذوه.

خطوت خطوات تائهة ثم اصطدمت بحائط من الارتباك أوقفني في مكاني، لم أعرف ما الذي يجب عليَّ فعله، فوقفت أرمقهم ببلاهة حتى أشار العجوز بكفه إلى الكرسي المقابل له على الناحية الأخرى وقال: «اتفضل» ثم فرقع إصبعين ناظرًا لعثمان الذي تحرَّك على الفور باتجاه جهاز جرامافون قديم واضعًا إبرته على أسطوانة سوداء دارت وانساب منها لحن موسيقي شهير عرفته على الفور: مقدمة سيمفونية بيتهوفين الخامسة (ضربات القدر)، الأصوات الشهيرة لآلات كمان غاضبة تحارب الهواء وتصارعه. تقدمت مسلوب الإرادة إلى حيث أشار العجوز وبين جدران حلقي لعاب محبوس، سحبت الكرسي الخشبي تحت

أنظارهم المثبتة عليَّ، ثم جلست عندما قال العجوز بابتسامة طيبة خففت من حدة الموقف: «اقعد يا علاء».

لم يبدد ثقل الصمت سوى نوتات الكمان اللطيفة الصادرة عن الجرامافون وأصوات ضرب السكاكين في الأطباق الخزفية الموضوعة أمام الحضور، كانوا يأكلون برتابة وينظرون إليَّ بالتناوب بين الحين والآخر وكأنهم يتبادلون الأدوار، حتى قال العجوز وهو يقطع من قطعة اللحم الموضوعة أمامه بدون النظر إلي:

ـ إيه رأيك في الشقة؟

ـ غريبة ...

ـ لكن بديعة، زي كل شقة في العمارة هنا.

ـ أعمل إيه بجمالها؟ دي مافيهاش كهربا.

ـ لعلمك، أنا اللي صممت العمارة دي، كلها بنفسي ...

كررت آلات الكمان ضرباتها المقبضة وقرعت باب الصمت في المكان مرة أخرى، ونظر إليَّ العجوز وأكمل متجاهلًا كلامي:

«وأنا عمري تلاتين سنة، جيت من فرنسا على المحروسة مع زوجتي، معماري ومستثمر، وعالِم صاحب ثروة ضخمة وحب كبير للابتكار، وجدت في مصر المحروسة مساحة لكل شيء، بدأت فيها مشاريع كتير وكسبت أضعاف اللي صرفته، الشغل كان بريمو والبلد عجبتني، في الأول كنت بسافر لها مرتين في السنة، أتابع أعمالي واستجم شوية، حياتي كانت جميلة ومنسجمة باستثناء مشكلة واحدة، زوجتي العزيزة كلودين، ماكنتش بتخلف».

لم أرغب في الأكل، تابعت العجوز باهتمام بينما واصل القصة بطريقته المميزة والمزعجة في تقطيع الجُمل لأجزاء صغيرة وسكتات كثيرة مع إضفاء نغمة خاصة على كلامه.

«لأجل الحبل، جربنا كل حل ممكن، وخبطنا على كل باب لكن من غير نتيجة، لحد ما في يوم مش هنساه، رجعت البيت، وجدت كلودين مع خدامة مصرية، بتشربها خلطة غريبة من قربة مياه، زعفران على عسل على أعشاب مجهولة، اتعصبت وثُرت، وطردت الخدامة برا

البيت وسط بكاء شديد من كلودين اللي أصرت إنها ست مبروكة، وبعد أربع أيام، فوجئت أن زوجتي حامل».

صارت الموسيقى أنعم وألطف، وهكذا تحول صوته وهو يشير لحائط عُلِّق عليه بورتريه لشابة رقيقة كجدول ماء بارد أعلى بندقية صيد، وقال:

«ربنا رزقنا ميرتل، بنتنا الوحيدة بعد عقر سنين. ميرتل خلتني أحب المحروسة وأعشقها، تراب مبروك، وطينة من دهب، بعد ما لفينا على كل الحُكما في أوروبا مصر كانت الطبيب الشافي، ومن بعدها قررنا نستقر هنا، وهبت حياتي للبلد، اتعلمت لغة أهله، وبقيت برطن زيهم، نقلت كل أشغالي ودراساتي للمحروسة، لحد عيد ميلاد ميرتل، الخمسة وعشرين».

وكأن الموسيقى تسمعه وتتعاطف معه، صار اللحن أكثر كآبة مع صوته المرتعش، الذي ضعف في آخر كلماته وهو يسأل: «بتؤمن بالسفر في الزمن؟».

يا لي من غبي! أضاء سؤاله الأزقة المظلمة في عقلي، كل شيء قد اتضح الآن، الشقة الأثرية والعمارة القديمة والبواب الغريب، كلها كانت أمامي ككف اليد ولكني اخترت النظر إلى قدمي! بحماس متوتر اعتدلت في جلستي وأنا أشعر بحرارة الفهم تتسرب لجسدي، بيد أن الأمر كان برمته مفاجأً وغمر رأسي بوقعه الثلجي الصادم، نظرت للعجوز الذي كان يبادلني النظر الآن وفي فمه الطعام، ثم استطرد عندما لم يجد مني ما هو أكثر من النظرات:

«الوقت مفهوم غريب، بديع لكن غريب، ناس كتير حاولت تفهمه بوضوح، لكنها اتبرجلت أكتر، واللي حاول يقرب منه أكتر من اللازم، اتجنن وعقله شت. الزمن نهر جاري عنيف قادر ياخد في طريقه أي سفينة مهما كان قبطانها مين، يطوح مركبته يمين وشمال ويقلبها، يكسرها حتت، وصدقني أي حد يدعي إنه فهم الوقت، أو حتى قرب منه، يبقى نصاب وحلنجي، ما عدا أنا».

تسارعت ضربات الكمان في هستيريا معربدة شهيرة مع كلماته صاعدة سلمًا دائريًّا حلزونيًّا من النغمات، ومعها تحلَّى وجه العجوز بابتسامه رزينة لا تتفق مع كلامه المجنون، ثم قلت أنا بـ(حمورية) صادقة: «أنا مش فاهم حاجة».

أخذ اللحن ينزل في تعب السلم الذي صعده لتوه:

ـ الخواجة بنيامين، صاحب العمارة.

ـ أهلًا بحضرتك.

أشار بالسكين في حركة دائرية نحو الحاضرين المتشحين بالسواد ثم قال: «ودول جيرانك، سكان العمارة». فأومأت برأسي في تحية مرتبكة، بينما أكمل بنيامين بلكنته المصرية السليمة رغم آثار طفيفة للغة أجنبية تشوبها لتدعم لقب الخواجة: «ميرتل بنتي كانت آخر ضحية، في سلسلة جرايم شنيعة، نفذها سفاح ظهر سنة 1898».

كرَّر السؤال مرة أخرى على خلفية السيمفونية التي صارت هادئة الآن: «بتؤمن بالسفر في الزمن؟» فهززت رأسي بالنفي عندما تبخرت الكلمات من على لساني، وذابت أمام القصة والموسيقى والمنظر، فاستطرد قائلًا: «بعد ولادة ميرتل اهتميت بكل العلوم، كيميا وفيزيا، ونباتات وحشرات، ركزت على الأماكن المهملة منها وخصوصًا الوقت، أسرني وطيَّر برج من نافوخي، صرفت كتير وسهرت لأجل ما أصاحب الوقت وافهمه، وأشرَّحه تشريح، زي ضفادع التجارب».

ثم رفع كأس النبيذ المرتاح بين بنصره ووسطته: «اللي قدامك ده، هو أول وآخر من قدر يروض الوقت، نبشت في الماضي ورأيت اللي ماتتخيلهوش، بعنيا شُفت ولادة المسيح في مزود البقر، وشفت الإسكندر الأكبر على فراش الموت، سمعت نابوليون وهو بيبكي في سانت هيلانة، ورأيت التلاميذ في مدارس اليونان القديمة».

حتى تلك اللحظة لم أستطع أن آخذ كلامه على محمل الجد، على الرغم من الأجواء المثالية لحكايته المغلفة بالظلال وأنوار الشموع والموسيقى الكلاسيكية، والعجائز المتشحين بالسواد. كل ما قاله كان غير منطقيٍّ، لكني أخذت أسمعه مأسورًا مسحورًا، ربما بسبب نظرته الواثقة التي تتحدث من تلقاء نفسها وتحكي تاريخًا لم يحلم أحد برؤيته، عيناه زرقاء سماوية بلون جلباب العذراء مريم وبحر سانت هيلانة وفسيفساء على حائط مدرسة يونانية، كانت نظرة ثاقبة لم يمنعها المنظار الذهبي من سبر أغواري. قلت أخيرًا وقد عادت أحبالي الصوتية للعمل: «وانت جيت من الماضي؟» أومأ برأسه مبتسمًا، وأشار بسكينه للحاضرين قائلًا: «كلنا جينا من ماضيكم، اللي هو حاضرنا، حتى العمارة كمان من الماضي».

قالها طارقًا السفرة بكعب سكينه، ثم أكمل بجدية: «اتفضل، الأكل برد». فأمسكت بالسكين والشوكة الموضوعين أمامي بلا مقاومة تذكر، وبأوتوماتيكية بدأت بتقطيع اللحم المشوي. هدأت السيمفونية الخامسة وصارت ضربات القدر خبطات لطيفة على الكمان، وذابت قضمات اللحم في فمي مثلما الزبد على النار، بالكاد مشوي كما أحبه، ومع طعم الريحان ولمسات الفحم على اللحم الطري تخلصت جزئيًّا من التوتر الذي عشَّش في أعصابي، خلعته وارتديت جلبابًا فضفاضًا مصنوعًا من الفضول بينما قال بنيامين بلكنته المصرية الشبه مثالية: «طبعًا انت بتسأل روحك ألف سؤال دلوقتي، وأنا مستعد أجاوبك عليهم».

ـ بكل صراحة أنا مش مؤمن بحاجة زي السفر في الزمن، علماء زي أينشتاين بيقولوا إن الزمن د ....

قاطعني: «ده الجدع أبو شعر كنيش؟». أومأت بالإيجاب فقال بنوع من الحِدَّة وهو يرشف من كأس النبيذ: «ماحدش فهم الوقت قدي، وماحدش عرف الوقت غيري، كل دول اجتهدوا، اجتهادات بسيطة منها الساذج ومنها اللي مش بطال، لكن وانت بتتكلم معايا تنسى أمرهم!».

تنحنحت واعتذرت له وللكبرياء البادي على وجهه، ثم سألت في محاولة لتلطيف الأجواء:

«إيه اللي جابكم هنا؟ قصدي يعني إشمعنى جيتوا الزمن ده؟».

ـ جايين ناخد حقنا.

ـ من مين؟

ـ ده بالتحديد اللي أنا كنت عايزك فيه، اللي كلنا عايزينك فيه.

تنبهت حواسي مجددًا ونظرت في وجوه الحاضرين الصامتة، تفاعلوا أخيرًا بعد أن كانت مهمتهم مقصورة على المضغ البطيء والاستماع، نظر كل منهم إليَّ نظرات مختلفة تحمل أكثر من معنى، منهم من كان متحفزًا ومنهم من كان حائرًا، ومنهم حتى من كان غاضبًا، كانوا كلهم فوق الخمسين وأصغرهم قد تخطى الأربعين، يتشاركون جميعًا ثلاث تفاصيلات:

الشعر الأبيض والملابس السوداء والصمت التام، الرجال ببدلات رسمية والنساء بفساتين سوداء تكاثر عليها الدانتيل. بحيرة خالصة نظرت لبنيامين، فقال: «تعرف إيه عن أثر اليعسوب؟».

كان للكلمة وقعٌ مألوف لكني لم أنجح في استحضار معناها، عبثت بين ثنايا عقلي قليلًا بلا نتيجة فهززت رأسي بالنفي، فقال بنيامين وقد استند بمرفقيه إلى السفرة: «باختصار، أي تغيير بسيط في الماضي ممكن يؤدي لتغييرات ضخمة في المستقبل، يعني لو انت على سبيل المثال، رجعت للعصر الحجري وحركت طوبة صغيرة من مكانها، ممكن ترجع لزمنك تلاقي كل شيء متغير ... ممكن تلاقي الديناصورات لسه مانقرضتش، ممكن تلاقي النبي موسى حرر شعب بني إسرائيل من أهل الصين، ممكن تلاقي التطور خلق جنس تالت غير الرجالة والستات».

ـ قصدك تأثير الفراشة؟

ـ اسمه أثر اليعسوب. أنا اللي اكتشفته وأنا اللي سميته من زمان قبل الاسم الخايب بتاع إدوارد لورينتز.

ـ بس هي نفس الفكرة.

ـ لا طبعًا!، اليعسوب dragonfly أسرع وأخف من الفراشة، وأثر أجنحته أقوى.

لو سمعتك بتقول الفراشة تاني مش هيحصل كويس.

ـ آسف، اتفضل كمِّل.

سعل مرتين ثم أكمل: «أثر اليعسوب شيء خطير جدًّا، ومن العبث تغيير أي مكون من مكونات الماضي، وأنا أؤكد لك إنه ماحصلش غير مرة واحدة، على إيدي. العجوز اللي قدامك أعاد كتابة التاريخ». وسكت قليلًا ليضفي التأثير الدراماتيكي المناسب لكلامه.

لديَّ خبرة واسعة مع العجائز وأستطيع بسهولة تمييز العاقل منهم والمصاب بالخرف ـ بل وحتى الشعور بمريض البروستاتا عن بعد ـ فكل أصدقاء أبي كانوا كلهم من ذوي الجلود المجعدة؛ لهذا كنت متأكدًا أن هذا العجوز لم يكن يكذب أو يخرِّف، هو يفهم ويعي لكل حرف مِمَّا قاله وذهنه حاد ومشحوذ يكاد يقطع أفكاره. بلا أدنى فكرة عمَّا يجب قوله تابعته

وهو يفرد الخيط ويقول: «الزمن خط مستقيم، يشبه نهرًا جميلًا بيصب طوالي، أو طريق ماشي بيك من غير ما ينحرف يمين أو شمال، إنما لو حصل وقدرت ترجع في الزمن وتغير فيه شيء، الطريق ده بيتغير من عند النقطة اللي رجعت وغيرت فيها، النهر الطويل بيخلق تفريعة جديدة يمشي ويصب فيها بدل الطريق الأصلي اللي اتحول لحيطة سد من مطرح ما انت سا فرت، ال نهر بي غير مس اره، وا لمسار الأولاني الأصلي بي تحول لف رع صغ ير مي ت مابيصبش في أي مكان».

«سنة 1898 دخل المحروسة راجل إنجليزي بدون هوية ولا أوراق، هربان على سفينة جاية من المملكة المتحدة، بعديها بكام شهر بدأت هوجة، انتشرت وقتها في الجرايد باسم شوطة سفاح العذارى، ابن الأبالسة كان كل فترة بيظهر يقتل أربع شابات في ليلة واحدة ويختفي، لحد ما جه الدور على ميرتل ... بنتي».

توقف بغتة ينظم أنفاسه المضطربة، تهدَّج صوته لكن عالج إياه بنحنحة قوية ثم أكمل: «ومن بعدها حياتي انهارت، قاطعت الأكل والشرب، والويسكي بقى دوايا الوحيد، حتى كلودين مراتي اللي اتبقت لي صابها الخبل وراحت الماريستان، كرست كل وقتي ومالي عشان نقبض على السَّفَّاح؛ لأن البوليص كان عاجز، ومع الوقت قدرنا نوصل لبعض آثاره، لكنه كان هرب مننا تمامًا، ماكنش قدامي غير حل واحد أجلته كتير، حل خطير ممكن يغير وجه العالم كله، بس يداوي جرحي ويرجع بنتي».

«بقى يا علاء أفندي البوليص بعد التحقيقات ماعرفش عن ابن الزواني ده كتير، ولا حتى اسمه، لكنه عرف معلومة بسيطة: ميعاد دخوله مصر على السفينة الإنجليزية إياها، هنا قررت استغل الخيط الوحيد اللي باقي وأرجع بالزمن، وبعد رجوعي استخدمت نفوذي ومالي عشان أمنع السفينة دي من إنها تدخل البلد، منعت كل ده من إنه يحصل».

ـ وطبعًا عدم دخول السفينة غيَّر حاجات كتير في اللي كان المفروض يحصل.

ـ فوق مما تتصور يا ابني ... كل التاريخ اللي العالم عاشه من بعد 1898 أنا السبب فيه، أنا اللي كتبته بغبائي.

صمت قليلًا يتجرع نبيذًا ممزوجًا بالحسرة، ثم قال محدثًا نفسه لا العبد لله: «أنا فاكر يوميها مظبوط، رجعت بالزمن من يوم 16 مارس 1899، كنت محبط وغضبان، وسكران. مجروح

جرح مافيش طبيب يقدر يشخصه ولا يداويه، رجعت حوالي سنة فاتت، 16 يناير 1898 ليلة دخول السفينة الملعونة إيا ها، وهناك كلمت حكمدار إسكندرية هاريسون باشا صديقي المقرب، ألحيت عليه يمنع دخول السفينة بدون استفسار، وتحت ضغط وافق. سفينة ضخمة شايلة مئات الركاب والتجار منعت دخولها بحجة مؤامرة، ورسيت السفينة في أطاليا بدل مصر».

ـ يعني كل حاجة كانت المفروض تحصل في التاريخ من بعد دخول السفينة ماحصلتش، والتاريخ الجديد كله بطريقة ما اتغير من بعد اللي عملته، صح؟

هز رأسه في أسى، نظر لطبقه للحظات ثم قال: «كنت غبي، ميرتل ماتت تاني، النوبة دي صابتها حمى شديدة، ولسخرية القدر اكتشفت إن الحكيم بتاعها المفروض كان يدخل على نفس السفينة مع السَّفَّاح، ومادخلش المحروسة، ما تت ميرتل حتى قبل ميعادها القديم، وكنت أنا السبب».

ساد صمت مؤلم، ينزف من جروح بعمر الزمن لم تفارق روح هذا العجوز، ارتعشت الكأس في يده بوضوح وكاد النبيذ يقفز من داخلها هربًا، فقلت أنا مشتتًا تركيزه: «طب ما كنت ترجع مرة كمان وتغير اللي عملته؟»

ـ للأسف كان صعب جدًّا ....العبث بأثر اليعسوب أكتر من خطير، والسفر في الزمن تجربة مرهقة للجسد البشري ومدمرة، أسفاري الكتيرة هلكت جسمي ونحلته، أصبح على بعُد خطوة وقفزة تانية من التحلل والدمار، ماقدرتش أخاطر.

ـ أنا متعاطف مع حضرتك جدًّا. بس لسه مافهمتش برضه إنتو عايزين إيه من هنا؟

ـ بعد تفكير مضنٍ ومباحثات كتيرة مع روحي مالقتش المعونة غير في حِنة، الخدامة المصرية اللي فتحت رحم كلودين ببركتها، حِنة قالت لي إن الخلاص هنا، في الزمن ده، على إيدك.

التفتت كل الرؤوس ناحيتي، التصقت كل العيون بجسدي وتصاعدت أصوات الكمان والطبول من ضربات القدر مرة أخرى، لم أفهم حرفًا من جملته الأخيرة فطلبت العون بنظرة مرتبكة من عيني، فوقف هو بحركة سينمائية، ترك كرسيه وتمشى حول السفرة ببطء وهو

يقول: «سنة 2023 شاب يتيم بيشتغل في التأليف، في رقبته جرح وعينه بلون زيت الزيتون، الخلاص على إيده، وهو اللي هيعرف يجمعك ببنتك من تاني ... ده كان كلام حنة». أنهى كلامه واضعًا يده على كتفي، ومعهما حطت غربان مزعجة تغرِّد بنغمات القلق وعدم الفهم.

ـ أنا هرجَّع بنتك؟ إزاي؟!

ـ زي ما وضحت لك، سنة 1898 ـالأصليةـ كانت وصلت لنهايتها، ثم رجعت أنا في الزمن لأول شهر منها وغيرت حدث دخول السفينة، منعته، فا كل اللي كان حصل ده بقى كأنه لم يكن، والتاريخ أخد مسار جديد ... لكن السنة القديمة ماتمسحتشي، زي ما تكتب على ورقة بقلم جرافيت وبعدها تشطب على اللي كتبته بالحبر، إنت صحيح مش شايف الكتابة الأولانية لكنها ما زالت موجودة.

ـ بمعنى؟

ـ بمعنى يا أفندي، إن السنة دي اتكررت مرتين في التاريخ، سنة أصلية كانت حصلت بالفعل لكن أنا رجعت لبدايتها وغيرت مسارها، والتغيير اللي سببته صنع السنة الجديدة، اللي بقت جزء من التاريخ الحالي وصانعة ليه ... لكن حقيقة الأمر إن الاتنين موجودين.

زي تفريعة صغيرة من النهر، زي حارة صغيرة خارجة من الطريق الرئيسي.

ثم رفع الإبرة عن الجرامافون فانحسر فيضان الموسيقى، والتفت إليَّ وهو يكمل بلهجة قوية حاسمة: «الزمن في حالة حدوث مستمر، واحنا بنتكلم حاليًا الماضي ما زال بيحصل، وهكذا المستقبل، وبالتبعية الحاضر.

ـ وأنا مطلوب مني إيه؟

ـ طلبي منك إنك ترجع السنة المفقودة دي، سنة الجرافيت اللي تحت الحبر، اللي فيها دخل السَّفَّاح مصر فعلًا وا رتكب جرايمه، تحاول تمنعه قبل ما يقتل بنتي ويحول حياتي لرماد ....وقتها أنا هقدر أعيش هناك، مع ميرتل وأمها، حتى وأنا عارف إنه عالم قصير المدى، لكنه عالم ميرتل مش هتندبح فيه وتموت مقتولة. ثانية واحدة مع بنتي تسوى كل أزمنة الدنيا، تسوى عمري وثروتي، تسوى كل شيء.

لم أرد على الفور من باب احترامي لحزنه العميق، وبحثًا عن أفضل طريقة لطرح سؤالي الآتي: (لماذا عليَّ أن ألبي طلب عجوز غريب قفز من الماضي بصحبة عمارة كاملة ويريدني أن أطارد سفاح في خط زمني موازي؟). ثم قلت:

ـ آسف لكن بصراحة مافيش أي حاجة تخليني أقبل بمهمة خطيرة زي دي، نبوءة الخدامة بتاعتك دي مش دافع خالص.

ـ شوف يا ابني، أنا صحيح راجل عالِم، لكني برضه تاجر، وبفهم في التجارة تمام، واللي يمشي على التجارة يمشي على البشر. انت هاتعمل عمل إنساني كله رحمة، وفي المقابل لو نجحت، أنا بعرض عليك فرصة بخبرتي في الزمن ترجع لأي وقت تحبه، تصلح الغلط اللي ندمان عليه وبينهش في مخك ... واللي بالمناسبة باين عليك، متفشي في جتتك زي الوبا.

هي إيمي، خطيئتي الكبرى، صخرة ضخمة من ذنبٍ أسير حاملًا إياه على كتفي أينما ذهبت فيعلم الجميع أنني مذنب معذب دون أن أنطق، هل تجاوزتها بالفعل أم ما زلتُ أنتظر غفرانها؟ يقولون إن الحب يغفر كل شيء، ويقول آخرون إن الحياة لا تتوقف على إنسان أيًّا كان، ولكن من الواضح أن أصحاب المقولة الأولى كانوا سُذَّجًا وأصحاب الثانية لم يعرفوا إيمي.

ألهب ما قاله صدري وكالنار في الهشيم انتشر، إيمي على بعد كلمتين، إيمي تنتظرني بفستانها الأصفر، في واقع آخر ما زالت جالسة لتنتظرني في مطعمنا المفضل بالمعادي صباح الأربعاء، واقع مرتب ونظيف بلا أخطاء ولا بقع، شمسه شعرها الأحمر ونسيمه ابتسامتها الواسعة، لطالما قلت لنفسي إنه لو عاد بي الزمن ألف مرة كنت لأدفع أي شيء لأمنع نفسي من القيام بذلك الذنب الأسود، وها هو الزمن قد أتى ليعقد معي صفقة، ليرى كم كنت أعنيها حين قلتها، ربما تعاطف مع صلواتي ودموعي أخيرًا.

كان الجميع يرمقني بفضول الآن، ركز بعضهم على صدري الذي يعلوا ويهبط ببطء، وتأمل آخرون يدي التي ترتعش ممسكة بالسكين الفضي، أما بنيامين فصوب بصره على وجهي الساكن معقود الحاجبين. ابتلعت ريقًا حادًّا كالأشواك وسألته:

ـ اِسمح لي في السؤال، مين دول؟ جايين معاك ليه؟

ـ دول عيلتي ... أصروا يخوضوا معايا المغامرة المجنونة دي. أغلبهم ماعندهوش أولاد، واللي خلف منهم أولاده عايشين في باريس والنمسا، بيعتبروا ميرتل زي بنتهم تمام وعايزين ياخدوا حقها من الملعون ده، إيه قولك؟

قولي؟ يا سيدي المحترم في رأسي بندول مجنون يتأرجح بعنف بين العاطفة والمنطق، وبين إيمي والخطر. مترددًا أخبرته أنني أحتاج مهلة للتفكير أمهلني هو إياها متفهمًا برحابة صدر، وقبل أن ينتهي العشاء سكت الكل مراقبًا بنيامين الذي وضع عدسة مونوكل على عينه اليمنى، ومن جيب سترته الداخلي أخرج قلادة ذهبية فتحها وتأمل صورة تسكن داخل مدلاة القلادة، ثم قبلها مبتسمًا، وبرغم المسافة والإضاءة الضعيفة لمحت دمعة تنساب من خده لتسقط داخل المدلاة التي احتوتها.

***

-6-

أمضيت اليوم الذي تلى العشاء بشقتي الجديدة، يبد أنني لم أكن وحيدًا كما كنت لكن صحبني تردد مزعج يلاحقني كابن من صلبي، على كتفي يجلس ولا يكف عن الثرثرة، في أذني اليمنى يرسم مستقبلًا بلون أصفر حالم مع فتاتي، وفي أذني اليسرى يمصمص شفتاه ويتمتم بأن كل مجاذيب الحب دائمًا ما يلقون نهايات مأساوية، وأنني مجرد عاشق آخر سيتحول جسده إلى شاورمة زمنية في نهر الفيزياء؛ لذا انهمكت في التفكير بعنف.

سجائر وقهوة، جولات من تفكير عميق ثم فواصل من تفكير متعب، ثم نوم مضطرب، ثم المزيد من السجائر والقهوة، اللعنة على هكذا صفقة، فإما الموت أو حياة سعيدة مع إيمي. في النهاية لم أتوصل لحل، فاهتديت إلى تناول علاجي الأول والأخير لعله يصفي عقلي، وقررت بدأ الرواية الجديدة. على خلفية الغروب الناعم أخذت أكتب، جلست في كافيه شهير بمحاذاة البحر يحجب المنظر الساحر عن عامة الشعب ويقدمه للأغنياء على صينية مع (مينيمام تشارج). بالتأكيد لم يعجبني الوضع الاستغلالي ولكني لست نيلسون مانديلا؛ لذا سأتذمر في صمت وأنا أشرب اللاتيه الساخن وأذرف دموع التعاطف الوهمية مع الكعك المُحلى، الحق أقول لكم أن أحزان الأغنياء أسهل وألذ من العامة، فهي أحزان لها رائحة الكاكاو وملمس الحرير.

شرعت أرتب روايتي الجديدة في حماسة افتقدتها، على صفحات المفكرة تناثرت الكلمات والخطوط بعشوائية مشابهة لطريقة تفاعل الأفكار في عقلي، فكتبت في الصفحة اليمنى مواصفات العمارة وملحوظات حولها، وفي الصفحة المقابلة كتبت بعض الأفكار للحبكة وشخصية البطل وخلفيته: تدور الرواية في النصف الأول من القرن العشرين، البطل رسام تابع للشرطة، عبقري يكره كل الناس، وبرغم أنه غير متعلم لكن ذكاءه فطري وحاد، وأخيرًا، هو بخيل ويفعل كل شيء من أجل المال، وغد تام طبعًا، ولكن يحب قراء الروايات الأوغاد.

ماذا عن القاتل؟ هل سيتبع نمطًا معينًا؟ هل هو مريض نفسي أم عبقري عاقل صاحب رؤية خاصة؟ في سيل الأفكار راودتني فكرة جذابة تتلوَّى بداخل عقلي كدودة سمينة، ماذا لو استخدمت السَّفَّاح الموجود في قصة بنيامين؟ ماذا لو عدت للماضي فعلًا، واجهته وطاردته

وكتبت قصتي؟ استُثرت قليلًا للفكرة ولكني سرعان ما عدت لرشدي، لا أريد أن أكون مثل المخبولين في الأمثال والحِكم لأطارد قصة قد تودي بحياتي فلا يتسنى لي كتابتها، لا أود أن أكون مثل إيكاروس الذي طار محلقًا للشمس فأذابت أجنحته الشمعية وهوى ليلقى حتفه، ولكن ألا يستحق الإلهام التعب؟ ألا تستحق الفكرة الجيدة بذل كل نفيس للظفر بها؟!

بعد رجوعي للشقة فوجئت بزيارة من (زكريا) و(أليس)، وهما زوجان من جيراني العجائز في العمارة، طرقوا بابي حاملين فطيرة تفاح شهية ونقاشًا ساخنًا. (أليس) امرأة فرنسية نحيلة ورقيقة الطباع بشعر فضي معقوص على شكل كعكة، ملامحها دقيقة بصورة كارتونية تغلب عليها البراءة، وتعطس بصوت رقيق منخفض يشبه صرير الفئران، جاءت لمصر تحلم بافتتاح أكبر سلسلة مخابز إفرنجية بها هاربة من أهلها ووالدها البرلماني. أما زكريا رجلها فكان على النقيض تمامًا، مصري إسكندراني تزوجَتْه بعد قصة حب باركها عشق الطعام والمخبوزات عندما تعاون معها لتشغيل المخبز، فطلق زوجته بعد أن هام عشقًا بأليس. تميزه بدانة مفرطة وكرش متدلي يكاد يتساقط من فوق سرواله ويذوب كالمثلجات في الحرارة المرتفعة، أصلع ذو وجه مستدير وملامح مرحة تصلح لإعلان من الثلاثينيات، ويقهقه ضاحكًا بعد وقبل كل جملة.

كانت زيارة مربكة في الصالون الذي تناثرت فيه حاجياتي كالزريبة، في بدايتها ساد الحرج ونشر صمته المزعج حتى تنحنح الزوج وأخذ يحكي لي عن ميرتل؛ كم كانت رقيقة وجميلة ومحبة للجميع، حكت لي مدام (أليس) بلطف بالغ بصوتها الرقيق عن حب الفتاة للحياكة والرسم، وقال لي زكريا مستعطفًا وهو يخلع قبعته: «كانت شابة جميلة ومهذبة ولا البرلنتي، هي اللي عملت لي البرنيطة دي».

وهو كلام جميل أثار تعاطفي بشدة تجاه الشابة ولكن ليس للدرجة التي قد تدفعني من على حافة المنطق للمسقوط في قلب مهمتهم، بيد أن كل شيء تغير عندما انتزع زكريا صورة فوتوغرافية عتيقة بالأبيض والأسود من جيبه كانت كافية لإخلال توازن مشاعري فأصابني المنظر المفرود عليها بالغثيان: شابة مستلقية على الأرض في وضع أقرب للموت منه إلى النوم، تم سلخ وجهها فظهرت عضلاته تنبض بألم حي من خلف الصورة الصماء، وعلى

بطنها حُفر جرح كبير له شكل الرقم سبعة باللغة العربية «٧»، ذو أطراف منحنية نحو أجنابها وقاعدته هي مهبل الشابة. كان منظرًا قاسيًا، هوى كحجر ثقيل في معدتي.

أنا كاتب روايات جريمة، أكل عيشي هو الإتيان بالأفكار المريضة وكتابة أحدث طرق القتل الملتوية في السوق، ولكن أمام صورة كهذه أتجرد من هيكل الكاتب العملاق وأعود لكوني إنسانًا عاديًّا ضئيلًا، يصفعني الواقع بمدى هشاشتي ويفيقني. عند رؤية الجثة الحقيقية يخاف كاتب الجريمة حقًّا، يدرك أن الجرائم التي يتفنن في خلقها قد تكون واقعًا من لحم حقيقي ودم يسيل وليست مجرد خيوط رسمها عقله وقطفها من على أشجار خيال وهمية ... هناك ألم وصراخ حقيقيان لفتاة رقيقة ربما كانت تشم زهرة أو تفكر في فكرة بريئة قبل موتها بثوانٍ.

تهُت وتردد عقلي بين الشعور بالخوف أو الغضب، فرَّ مني القرار حتى قالت السيدة (أليس) بلهجة مصرية ركيكة وبصرامة مفاجئة لا تتماشى مع رقة صوتها ونعومة تعبيراتها الحركية التي تشعرك أنها مايسترو يتحكم في أوركسترا وهمية: «خوف ده مش بتاع رجالة أبدًا ... أنا واحدة ست قدامك وجيت معاهم زمن مش أعرف عنه حاجة عشان بنت بريئة مش ليه ذنب يموت».

واستطرد زكريا بمصريته الأصلية: «أنا عارف إنك خايف، وده حقك ... لكن صدقني القضية تستحق. انت شاب شهم وأكيد أخلاقك نبيلة ولا يرضيكش ميرتل الزهرة الدليكات اللي مالهاش ذنب دي تموت أبشع موتة، بنيامين اللي انت شايفه قدامك ده يا ابني ماكنش يقرب السبرتو من بقه، لكن من بعد موتها انكسر، صبح خمورجي وبتاع كاس».

وتحت تأثير الصورة وإلحاحهما، المتواصل، ورائحة فطيرة التفاح المخبوزة بيد السيدة أليس، وعدتهما أنني سأفكر جديًّا في قبول المهمة، فقهقه زكريا وصفقت (أليس) جزلًا، برغم كل الاعتراضات التي عددتها لهما بكوني مجرد كاتب روايات لا أملك سوى خيال خصب وقلم سلس، لست قويًّا أو شجاعًا، ولا مهارة جسدية لي.

في اليوم الثالث من بعد العشاء جاءني عثمان ـبأمر من بنيامينـ يدعوني لزيارة معمل الخواجة في الدور الأخير، حيث كان يعلم أنني ما زلت أحارب أفكار وقناعات عدة تعرقل

موافقتي على مهمته؛ لذلك انضم لي حليفًا ليهزم أي احتمال بالرفض، بالنظر لأسبابي التي كانت عديدة في الواقع.

فعلى سبيل المثال، لطالما احتقرت فكرة السفر في الزمن ووجدتها سخيفة، بل خيالية بدرجة مقززة، فهي لا ترتقي لمستوى النظريات العلمية المحترمة ولا هي في بساطة قصص الأطفال، دعك من أن الكتابة عنها صداع مزمن لا يخلو من الفجوات والمشاكل؛ كيف تمكن بطل الرواية من قتل جده في الماضي لكنه ما زال على قيد الحياة؟ هل ما سيقدم عليه حدث بالفعل أم سيحدث؟ وما إلى ذلك من جدل فارغ ومعضلات بلا حل مقنع، ولكن عندما عُرضت عليَّ فرصة لإنقاذ علاقتي بإيمي تخلصت من كل وجهات نظري في أقرب صفيحة قمامة وشرعت أفاوض عقلي وقلبي، وبلا مقاومة استجبت لدعوة بنيامين بزيارة معمله الواقع في الطابق الأخير.

أدخلني عثمان للمعمل الذي احتل شقة كاملة، وعندما طلبت منه فنجان من القهوة وافق على مضض وتركني وحيدًا بين عشرات الآلات والأجهزة في انتظار صاحب المعمل، فمضيت أتأملها وأتعجب من كل ما قفز من هوة الماضي إلى هنا: تليسكوبات صغيرة وكبيرة، آلات نحاسية دقيقة متناثرة على المكاتب وأخرى في الأركان حديدية ضخمة كالأفيال تتخللها خراطيم أو مؤشرات قديمة مثل أفلام فرانكنشتاين. أثارتني رؤية كل تلك الأجهزة، وأثارني أكثر تفاصيل المعمل المبهرة من الجلد والحبر والذهب، كما أنه كانت له أرضية وحوائط من خشب البلوط اللامع، لم يتركا أثرًا في نفسي سوى بالمزيد من الانبهار.

كان معملًا عتيقًا في المجمل ولكن كانت كل تفصيلة فيه جديدة على عينيَّ، وكطفلٍ في متجر للألعاب رُحت أفحص الآلات الصغيرة بين يدي وأتحسَّس الأنابيب الضخمة، وعقلي يسجل كل ذلك بعينين مدققتين من أجل تخزينه على أرفف الكتابة، ثم لفت نظري صندوق زجاجي موضوع على قاعدة خشبية في الركن ويصدر أزيزًا خافتًا كل بضع ثوان، لكني لم أستطع تبيُّن محتوياته، فاقتربت بحرص وأخذت أتفحصه في اهتمام لأجد بداخله «يعسوبًا» صغير الحجم يتخبط بين جدران الزجاج كل فترة محدثًا أزيزًا وشرارًا، وكأنه يُصعق.

نحنحة لطيفة خلفي دفعتني للالتفات، كان هذا هو بنيامين برداءِ نوم من المخمل ياقوتي اللون، مستندًا على عكازٍ قصيرٍ من العاج، على عينيه منظاره الذهبي، وفي فمه غليون خشبي

يدخنه في هـ دوء . ارتبـ كت مترا جعًا فقال بابتـ سامة لطيفـ ة: «صندـ وق الأبـ دية، اختر اع ماكتملش».

ـ مافهمتش فكرته.

ـ ده سر الخلود. اليعسوب ده بيتعرض كل يوم لألوان من القتل، صاعقة كهربائية أو نار أو غاز سام، لكنه مش بيموت ... بحاول استخلص منه سر الأبدية واهديه للبشر.

ـ بس ده عذاب أبدي!

ـ العذاب دايمًا أول خطوة للعلاج، لازم حد يتعذب عشان الباقي ينجوا، عذاب حشرة عشان خلود البشر شيء لا يذكر ...

فاجئتني نظريته السيكوباتية قليلًا وخاصةً أنها لم تتناسب مع مظهره الوديع، وقبل أن أناقشه استطرد بسرعة مشيرًا لأسطوانة موضوعة على المكتب: «لكنه اكتشاف ناقص زي كل اللي هنا، عندك مثلًا الساعة دي، بتسجل الوقت وحالة القمر في بلاد مختلفة. الجهاز اللي هناك ده، ممكن يحبس روح المتوفي على الأرض للأبد وتتواصل معاها، بس لو مات جواه. معظم الأجهزة اللي هنا نماذج أولية وتجارب فاشلة كنت بلهي فيها نفسي بدل الحزن ... على ميرتل». قالها ونفث دخان الغليون في سماء المعمل ثم جلس خلف مكتبه ساكتًا، فقلت موجهًا ضربة للحاجز بيني وبينه لعله يتشقق: ـ بس انت بتتكلم عربي كويس جدًّا ، لو ماكنتش اعرفك كنت هقول عليك مصري.

ـ عربي وفرنساوي وطلياني وانجليزي وفارسي، ولغات ماتسمعش عنها ... الزمن في صالحي، صاحبي، كنت بقدر اطوعه عشان يساعدني أتقن لغات وعلوم كاملة في وقت لا يذكر ...

ـ مبهر ...

ـ إيه اللي ماسكه في إيدك ده؟

ـ ده ... آآ، تليفون، بس محمول. مش محتاج أسلاك عشان الكلام...

ـ لسه اللمامة في المستقبل بيسرقم أفكاري! عندي في الخزنة اختراع شبهه. استنى أوريهولك.

ـ مصدقك والله ماتتعبش نفسك.

حسنًا يا محترم، آمنت بك وصدقت إنك أعظم من أينشتاين ونيوتن ودافنشي مضروبين في الخلا ط فكُفَّ عن عن محـاولات إ ثبا ت نـفسك! وبد ون النـظر إليَّ قال فجأة مغيرًا دفة الحديث: «أفهم من مجيتك هنا إنك وافقت على عرضي يا علاء أفندي؟».

ـ بشكل مبدئي ...

ـ ناقصك إيه عشان توافق بصورة تامة؟

ـ أفهم من حضرتك أكتر ...

ـ وأنا في خدمتك، حابب تعرف إيه؟

سكتُّ قليلًا لأصطاد السؤال المناسب والأشمل من فيض أسئلتي، ثم التقطَتْ سنارتي سؤالًا عشوائيًّا: «هتعمل إيه مثلًا لو أنا موافقتش؟ إيه خطتك البديلة».

ـ مافيش خطة بديلة، أنا متأكد إنك هتوافق ...

ـ إيه اللي أكد لك؟

ـ العرض اللي قدمته لك أكد لي ...

ـ مش شرط.

ـ إنت إنسان يابني، والندم جزء أصيل من الإنسان زيه زي عينيه تمام، عمره ما يفارقه غير وهو في التابوت. أكيد ندمان على شيء ما، غلط ارتكبته أو حبيبة فارقتها، مؤكد فيه لحظة في حياتك بتفتكرها قبل ما تحط راسك على المخدة وتقول يا ريتني.

الوغد يضرب على وتر إيمي بدون أن يدري ...

ـ يا ابني الندم ده نار ... اسألني أنا، ده صوت عالي بيصرخ في بالك، لا هتعرف تسكته ولا تقدر تسد ودانك.

سكَت ليعطي كل كلمة من كلماته حقها في التأثير ثم أكمل: «وأنا بديك فرصة تسكِّت الصوت في راسك قبل ما يفقدك لذة الحياة». وفي البداية لم أجبه، فقط بادلته نظرة مشبعة بالكلمات، يصارعني خلالها انكساره وبريق عينيه المنطفئ، يجبرني صمته على القبول أكثر

فأكثر ويهزمني شبح ابتسامته المريرة. وأخيرًا هززت رأسي في موافقة دون كلام، فقال وغليونه في فمه: «حابب تعرف إيه تاني؟».

ـ ليه السَّفَّاح ده كان بيقتلهم؟ وبيختارهم على أي أساس؟ كمان موضوع السنة المفقودة ده، مش مستوعبه أوي.

ـ مفهوم مفهوم، أولًا قبل ما اجاوبك هفرجك على شيء مهم.

تمتم بها ثم قام من خلف المكتب مُسقطًا عنه جلد الكآبة فظهر من تحته نشاطٌ جليٌّ. راقبته يتحرك بخفة بين الأرفف بقامته القصيرة ومن على رفٍّ عالٍ يلتقط حقيبة جلدية بنية اللون مكتظة عن آخرها حتى كادت تتقيأ أوراقًا، برز بعض منها خارج إطار الحقيبة. ببطء وضعها على المكتب ساحبًا من غليونه نفس طويل ومعه راقبني لبرهة من الزمن قبل أن يستبدل المنظار الذهبي بمونوكل على عينه. ظلت عيني مثبتة على الحقيبة في ترقُّب حتى طال الصمت أكثر من اللازم، هل يتعمد تركها أمامي؟ ربما، ليرى مدى فضولي، لتفضحني عيناي وأناملي المتحفزة وتخبره كم متشوق أنا للمعرفة.

« كل حاجة في الشنطة دي من برا الزمن»

قال وهو يفتحها بهدوء، فتدافع من داخلها فيضان صغير من أوراق وأدوات غطت سطح المكتب؛ تقارير ورقية وصحف قديمة وصور بالأبيض والأسود، أدوات متفرقة من قلائد وأمشاط وقطع ملابس وحتى خُصلات شعر، خرائط وأقلام وسكين بمقبض من العاج.

لدقائق تاهت عيناي بين كل ما احتوته الحقيبة، وفي محاولات فاشلة حاولت حصر محتوياتها لكني لم أنجح، ففي كل مرة أدقق كنت ألمح أداة جديدة أو صورة تلفت نظري، ثم سألته: «من برا الزمن إزاي؟».

ـ يعني ببساطة المفروض مايكونش لها وجود هنا، في الزمن الجديد، الزمن بتاعكم.

كل دي أدلة وجرانين من سنة 1898 ... 1898 الأصلية، اللي تعتبر ماحصلتش بالنسبة لكم. قدامك حاجات من برا الزمن.

ـ دي حاجة صعبة شوية على مخي ...

ـ هتفهم مع الوقت. لكن شايف كتير إزاي؟ برغم كل الأدلة دي، ماقدرناش نفهم كان بيختار ضحاياه إزاي، وليه بيقتلهم.

التقطت صفحة من جريدة صفراء اللون كُتب عليها (جريدة المؤيد) وبخط كبير احتل ا لصفحة العنو ان التالـ ي: (سفاح الشاب ات يثير الذعر مرة أ خرى) وفي ا لأسف ل رسمة كاريكاتورية ر ديئة لـ رجل م لثم يـ حمل سـ كينًا د اميًا فـ ي شـ ارع ضـ يق، ذ كرتني بـ رسومات الصحف الإنكليزية عن جاك السَّفَّاح في نفس الحقبة. لاحظ بنيامين تعلق بصري بالجريدة فقال وهو يشير للمزيد من الصحف بالحقيبة: «الموضوع كان قالب الدنيا أياميها، ماحدش كان له سيرة إلا السَّفَّاح وعمايله، ومين الشابة اللي هتموت تاني».

ـ واضح إنه كان نشيط جدًّا ...

ـ ظهر أربع ليالي، كل ليلة كان بيقتل تلات شابات.

ـ اتناشر واحدة!

ـ شيطان ابن أبالسة، إحنا كنا عايشين في رعب بيِّن ...

ـ إحكي لي أكتر، عرفتوا عنه إيه بالظبط ...

التقط من بين الأوراق على المكتب ورقة يعرفها جيدًا وبدأ يقرأ بنبرته الأرستقراطية وبعربية فصحى سليمة، مقربًا الورقة من المونوكل: «الاسم: مجهول ـ السن: مجهول ـ الجنسية: إنكليزي بحسب أقوال الشهود ـ التهمة: اثنتي عشرة جريمة قتل واغتصاب وتمثيل بالجثث ـ شوهد الجاني مرتديًا ملابس أفرنجية ويبيع مصوغات ذهبية مسروقة بدكانة الجواهرجي فرانسيس، وبعد المراقبة اتضح أنه يقيم بسطح أحد البيوت بميدان القناصل».

ثبَّت بنيامين أنظاره عليَّ قليلًا قبل أن يستطرد: «زي ما انت شايف، شبح مالهوش هوية، واللي نعرفه عنه شحيح جدًّا؛ لأن ماكنش له لا معارف ولا سكن ثابت ولا وظيفة دايمة. فيه ناس بتقول إنه كان طبيب وناس بتقول إنه كان بيشتغل في الجزارة، وأحيانًا شغل للحكومة».

ـ بس دي معلومات ضعيفة جدًّا مايتبنيش عليها مهمة زي اللي انت طالبها مني.

ـ مظبوط ... ماتقدرشي تجزم بصحة أي شيء في ظروف زي دي، لكن على الأقل فيه حاجات أكيدة.

ـ زي إيه؟

ـ زي ما التقرير قال كدا، بعد الإعلان عن مكافأة ضخمة للي يدلنا عليه جالنا جدع جريجي شغال في دكانة جواهرجي، كان راكب معاه على سفينة سيسيلي والاتنين دخلوا المحروسة على متنها.

ـ وبعدين؟

ـ قال لنا إنه افتكره لما شافه في الدكان، كان جاي يبيع لهم شكمجية دهب بأي سعر متاح، منهم كولييه بمواصفات مميزة كانت لابساه واحدة من الشابات اللي اتقتلوا. شك فيه وراقبه من بعيد لحد ما عرف بيته.

ـ ومسكتوه؟

ـ هرب ... اختفى بعد مطاردة معايا أنا والبوليص.

ـ طب ما ممكن مايكونش هو القاتل، واللي بلغ عنه مجرد نصاب طمعان في المكافأة.

«اتأكدت لما واجهته، لما بصيت في عينه، ولما فتشنا بيته من بعدها».

تشنجت شفته السفلى وهو يقولها، ابتلع ريقًا مُشبعًا بالمرارة وبقوة اعتصرت يسراه الغليون حتى كاد ينسحق بينها، في لحظات كتلك أحمد الله على نعمة اللاـإنجاب والتخلص من عبء الأبوة، ذلك العبء الأثقل من كل أوزان العالم، فما أضنى أن تكون عكازًا وبيتًا وبنكًا مجانيًّا، أن تبذل أكثر مما في وسعك ولا تنال سوى الفتات بطيب خاطر، الأبوة استثمار فاشل ومعادلة خاسرة، وأنا لا أريد سوى حياة طبيعية أحيا فيها لنفسي وأتألم لآلامي، فحتى امتلاكي لدار أيتام كامل وتكفلي بمصاريف واحتياجات أطفاله كان أهون عليَّ من إنجاب طفل وإحضاره إلى هذا العالم.

أما بنيامين فكان يعاني بشدة من داء الأبوة العضال، تتجلى أعراض مرضه ذلك بوضوح في الحقيبة الضخمة أمامه، في حمى لهفته على جمع كل قصاصة أيًّا كان حجمها أو حالتها، وتبرز لوعته في رحلة زمنية غريبة ضد قواعد المنطق كتب بها تاريخًا بديلًا وغيَّر مسار العالم، على أمل بضع ساعات أخرى معها. قلت: ـ أحب اعرف خطتك ...

ـ انت هترجع لأول ليلة، وتحاول توقف فيها السَّفَّاح، من أنه يرتكب أي جرايم ...

ـ افترض إني ماعرفتش أوقفه ...

ـ هترجع لتاني ليلة.

ـ وهو بنت حضرتك، ميرتل ... ماتت في أنهي ليلة؟

ـ الرابعة.

ـ طب لو أنا قدرت أنقذها، ده مش هيأثر على الحاضر؟

ابتسم ابتسامة بسيطة وقال: «زي ما قلت لك قبل كده، ده خط زمني تاني، تفريعة خارجة من نهر الزمن الحالي مالهاش علاقة بيه، حاضركم مشي في سكة بسبب عدم دخول سفينة سيسيلي المحروسة، والسنة اللي سيسيلي دخلت فيها مشيت في سكة تانية، وانتهت برجوعي بالزمن».

وبرغم من عدم فهمي ما قال بالكامل لكنني هززت رأسي في فهم مصطنع، فكرة السفر عبر الزمن هذه صعبة ومعقدة وتحتاج بكل تأكيد لورقة وقلم وفنجان قهوة في الكهف الذي أقطنه، سألني العجوز بارمًا شاربه الأبيض الغليظ: «أي أسئلة تاني؟».

فقلت ماطًّا شفتاي في حيرة حقيقية: «هو مش سؤال لكن بكل صراحة أنا مش مقتنع إنى هعرف أعمل كده، وحضرتك واثق من إني هنجح في المهمة دي، إيه اللي خلاك متأكد كدة؟».

ـ حنة.

ـ الخدامة؟

ـ المبروكة ...

ـ حنة دي مش نبية.

ـ على الأقل شفت لها معجزات.

ـ يمكن تكون صدفة، إنت راجل عِلم.

ـ العلم ماقدرش يخلي كلودين تحبل، حنة اللي قدرت.

كانت ردوده سريعة بدرجة تمنعني من مقارعته، فقال عندما لم يجد ردًّا مني: «كل اللي طالبه منك تتعاون معايا، وماتتصرفشي من راسك قبل ما ترجع لي، عندك أي طلبات قبل ما

نبدأ؟».

ـ خدت بالي إن فيه بدروم للعمارة، ينفع انقل مكتبي هناك عشان اكتب فيه؟

ـ عندك شقتك مافيش منها، إنما بدروم العمارة ماتقربش منه نهائي...

ـ ليه يعني؟

ـ ده مكاني الخصوصي أنا بس، للتفكير والتأمل. ماحدش بيدخله غيري، ولا حتى عثمان.

أومأت برأسي على مضض، ثم واصل:

ـ مسكت سلاح قبل كدة؟

ـ لا، بختار الحل السلمي غالبًا ...

ـ أومال الجرح اللي في رقبتك ده مصدره إيه؟

ـ أمي قالت لي إنها حادثة وأنا طفل.

ـ خواف؟

ـ لو ماكنتش بخاف ماكنتش هبقى كاتب ...

ـ إيه العلاقة؟

ـ الشجعان خيالهم فقير، إنما الخوف دايمًا منبعه خيال واسع وتفكير في ألف احتمال.

ـ أول مرة أفكر فيها بالشكل ده ...

ـ الشجاع لما بيركب الأسانسير مابيجيش في باله غير أنه أسانسير بيوصل للدور الرابع، إنما الجبان بيفكر في أسلاك الأسانسير، شكلها عامل إزاي، التروس لو عطلت ... الزيت لو خلص ...

عندها جاء عثمان حاملًا صينية نحاسية استوى فوقها فنجانان من القهوة، ووضع لكلٍّ مِنَّا فنجانه أمامه ثم وقف بجوار المكتب في لزوجة ذباب أغسطس عاقدًا كفَّيه أمام خصره، فبادلته نظرات باردة وأنا أرتشف قهوتي بصوتٍ مزعجٍ علَّه يرحل حتى أمره بنيامين بالانصراف، وانصرف التَّعِس وأنا متيقن من أنه مُحبط جدًّا لعدم قدرته على التنصت على

بقية الحوار، فالبوابون لا يعيشون إلا بهدف معرفة الأسرار، وهم أكثر فضولًا من مستكشفي القارات كما كان يقول والدي، بل ربما كان كريستوفر كولومبس بوابًا.

بطريقة عجيبة ارتشف بنيامين من قهوته وهو يسحب سحبة من الغليون ثم قال: «إنت قلت لي إنك بتكتب روايات بوليصية، صحيح؟».

ـ يعني، اه. أشهر كاتب روايات بوليسية آخر عشر سنين ...

ـ يمكن ملكة المُحقق اللي عندك دي هي اللي تساعدنا، أنا واثق في كلام حنة.

مططتُ شفتيَّ وهززت رأسي بلا تعليق، فالرجل يراني المسيا المنتظر وثور ابن أودن الذي سيهبط من المستقبل ليخلصه هو وأهل بيته، فليكن إذن، لأكون المسيا أو جنكيز خان أو هتلر، لأكون أي شخص أو شيء في طريقي لاسترجاع إيمي وكتابة رواية جديدة بالمرة. وفي نهاية اللقاء تصافح كلٌّ مِنَّا مصافحة قوية، موقعين على عقد شفهي ببدء مهمة إنقاذ ميرتل والسفر خارج الزمن.

***

-7-

لم يعكر صفو إقامتي في عمارة ميرتل سوى حادث غريب تضمَّن محاولة ذبحي بسكين يحمل آثار بط بالبرتقال، أثناء تلبيتي لدعوة غداء في شقة السيدة أليس.

فيما عدا ذلك الحادث كانت أيامي مملة رتيبة، مثلي، فأنا لست شخصًا مثيرًا للاهتمام في العموم، بعيدًا عن إطار الكتابة يراني الناس مملًّا، خارج أسوار كتبي أنا لست علاء مدبولي، أنا مجرد رجل ثلاثيني هادئ يهتم بالكلاسيكيات وبعض الأيتام، إيمي فقط كانت الوحيدة التي تراني بصورة مغايرة رغم كل اختلافاتنا. شمس وقمر كنا، ليل ونهار يجمع بينهما شفق جميل في سلاسة، فخلف أضواء الشهرة أنا شخص وحيد يأكل طعامه بمفرده، أرتادُ نفس المطاعم وأزورُ الأماكن ذاتها ، أسافرُ بصحبة قلم ومفكرة فقط وأقطع في السينما تذكرة واحدة. أما إيمي، تتحرك فتتحرك الحياة وترقص فترقص الطبيعة، كأميرات القصص الخيالية، تدخل إيمي إلى المشهد وتلوّنه، صديقة الكل وشفيعة المنبوذين، صاحبة قدرة خارقة على التواصل مع الكبار والأطفال وكلبها وقط الجيران، بل تستطيع التواصل مع قارورة مياهها ولوحات فان جوخ والسحاب، وكل الموجودات باختصار.

كعادتها اقتحمت ذكرياتي في غمر الملل الذي ابتلعني في الشقة حيث أنشطتي المحدودة جدًّا: أسقي الأزهار وأطعم حيوانات الشارع وأتابع أخبار الملجأ، وأهتم بمولِّد كهربائي صغير اشتريته ليبث بعض المدنية في الكهف الذي بدأت أُؤلِّفُه وأعتاده، فحفظت أماكن الأطباق وعددها، ألوان كل ستار بالشقة، أماكن اللوحات ونقوش الصالون المُدهب، بل حتى اعتادت أنفي على رائحة الثوم الملتصقة بالمداخل. هل تعلم: أن السجادة في غرفة المعيشة تحتوي على 32 وردة قرمزية صغيرة و21 وردة خضراء كبيرة؟

الجانب الإيجابي من كل هذا الملل الكثيف أنني انغمست أخيرًا في عالم مهمتي الجديدة كطفل في رحم أمه، وغرقت حتى أذنيَّ في تفاصيله لدرجة كنت أنسى معها حياتي الأصلية فلا أتذكرها سوى بمكالمة هاتفية من خالتي أو بزيارة لأحد متاجر البقالة، فمنحتني العزلة كل الوقت المطلوب لدراسة مهمتي مع فنجان قهوة وسيجارة، ولا أحتاج لأكثر من هذا.

لأيام تقمصت دور المحقق الخاص وارتديت عباءته، فصرت أدوِّن كل التفاصيل المهمة في خربشات عشوائية بمفكرتي بعدما فحصت محتويات الحقيبة الضخمة من قصاصات جرائد وتقارير الضبطية وصور مرسومة، وبمساعدة من شطائر الجبن الأبيض والكثير من الخيار ـ وجبة العشاء المثالية ـ ومن خلال قراءة سريعة استنبطت بعض الحقائق المهمة، دونتها في مفكرتي كالآتي:

1ـ التوصل لنمط القاتل صعب ومعقد (لا يجمع القتلى أي معرفة سابقة) لكن هناك نمط سائد.

2ـ النمط السائد: معظم الضحايا شابات أجنبيات من طبقات أرستقراطية كميرتل (قد يكون السَّفَّاح المجهول من دوائر أرستقراطية هو الآخر؟) كما أن ٧٠٪ من القتلى من ذوات الشعر الأحمر (مقصودة؟)

3ـ لكن يختل النمط عند معرفة أن هناك شابتين مصريتين من ضمن الضحايا من طبقات فقيرة، وأن ميرتل نفسها بالإضافة للشابات المصريات لهن شعر أسود، ناهيك عن وجود قتيلة لها أخت توأم.

4ـ علامة الاستفهام الكبرى في النمط هي وجود قتيل ذكر! رجل مصري من طبقة متوسطة يُدعى (شحتة الجدر) يعمل موظفًا بشركة للنقل البحري، وكان أمهق، أو كما أطلقت عليه التقارير «عدو للشمس». (النمط العام إذن: نساء ـ أجنبيات ـ شعر أحمر ـ طبقة أرستقراطية).

5ـ يتم القتل بواسطة أداة مجهولة حادة جدًّا على الأرجح تستخدم لذبح المواشي (جزار؟) استخدمها القاتل لسلخ وجوه الضحايا ثم بَقْر بطونهن في شكل رمز يبدأ من أعضائهن التناسلية في فرعين مُشكِّلًا ما يشبه الرقم سبعة بالعربية.

(الرمز «V» محير حقًّا: فهو قد يكون الرقم سبعة بالعربية «٧»، أو حرف الفاء بالإنجليزية «V»، أو الرقم خمسة باللاتينية).

6ـ ذكرت تقارير المشرحة نفس التفاصيل لجميع الضحايا؛ كسور في الحوض، اغتصاب وتشويه في الأعضاء التناسلية، حتى لشحتة الجدر! (القاتل مزدوج التوجه الجنسي؟).

دوَّنتُ ملحوظاتي مع رشفات الشاي بالنعناع التي انسابت لعقلي لا لبطني ودلَّكت خلاياه في نعومة مع قبلة تشجيعية على المجهود، ولليلتين متواصلتين أجبرني تلُّ الأوراق الصغير على السهر، ليلتين لم أبرح فيهما ذلك الثقب الزمني، فقضيتهما كالخفافيش في الكهوف أتغذى على الجرائد والأدلة الصغيرة بنَهم، والحق أني سأكون كاذبًا لو قلت إنني لم أستمتع بهذا الواجب الثقيل، فمركز الكتابة في مخي كان يتوهَّج وينتشي انتشاء الجِماع، كل تلك التفاصيل والأدلة كانت تغذّيه وتملأ مخزونه الاستراتيجي من الأفكار والتفاصيل للكتابة.

ثم تمكَّن مِني ملل التحقيق أخيرًا بعد ليال مرهقة، فارتديت سروالًا وقميصًا فوق لباسٍ داخليٍّ لم أرتدي سواه منذ انكببت على الأدلة، وخرجت للتنزه أملًا في بعض الطاقة الجديدة بعد أيام كاملة من الانعزال عن العالم شعرت فيها ببركة أفكاري قد بدأت في الركود وطحالب التعب تلتف حولها. تمشية هادئة على الكورنيش هي ما لجأت إليه بصحبة أغاني الچاز المثالية لطقس شهر أكتوبر الغائم التي تشعرك وكأن العالم كله مقهى كبير تفوح منه رائحة القهوة.

المثير للاهتمام أن رؤيتي كانت مصبوغة بكل ما نقعتُ عقلي فيه الأيام الماضية، فكل ما رأيته في الشارع كان ملونًا بألوان القرن التاسع عشر: تلتقط عيني البيوت القديمة وتبجلها، تضيف مسحة قديمة متحمسة على الشوارع، ترسم للمارة طرابيش وقبعات وبدلات رسمية، وللنساء فساتين طويلة و«ملاءات لف». شعور عارم بالحماس كان يعتريني، أنا أنتمي إلى هذا العالم الكلاسيكي حيث لكل شيء مذاق وشخصية، وها هو يناديني ويلوّح لي بهذه المهمة الغريبة، وكأنني أخيرًا قد تواصلت مع صديق مراسلة لم أره من قبل، لقاء تم تأجيله آلاف المرات حتى زارني في نهاية المطاف.

الأمر الوحيد غير المريح في إقامتي بعمارة ميرتل كان سكانها الذين التفوا بثوب الغموض، فلم أكن أراهم أبدًا ولو حتى عن طريق الصدفة، وحتى في المرات المعدودات التي طرقتُ فيها أبوابهم لم يفتح لي أحد، مما بعث على ارتياب في نفسي أيدته حقيقة اختفاء بنيامين ليومين كاملين، لكن قبل أن يدق القلق أبوابي دعاني زكريا إلى غداء مع باقي الجيران فوافقت مدفوعًا بالفضول لمعرفتهم بالإضافة إلى رغبتي في وجبة جديدة من يد السيدة

(أليس)؛ لذا ففي الموعد المحدد كنت حاضرًا أمام شقة زكريا ببلوفر محترم من الصوف البني.

كانت شقة شبيهة بشقتي، إضاءتها شمعدانات ذهبية وغلب على أثاثها الكلاسيكي اللون الأزرق مع النحاسي، وفاحت فيها روائح بط شهي، وريحان، وأرز مكرمل. حول السفرة وجدت نفس الوجوه التي دُعيت لعشاء بنيامين باستثناء بنيامين نفسه، فبجانب زكريا وأليس رأيت رجلًا حادَّ النظرات متغضن الوجه حتى تخال أن أحدهم قد ضغطه، كان نحيلًا كخلة الأسنان وله شارب الصراصير الرفيع الذي اشتهر به (سلفادور دالي)، اسمه (جوستاف)، وهو خال ميرتل.

بجواره جلس رجل وردي الوجه له تلك السوالف الطويلة التي تصل حتى ذقنه، كان يُدعى (هنري) وهو زوج خالتها (ماري) التي جلست بجواري. امرأة على قدر من الجمال بإمكانك بسهولة ملاحظة رواسبه المتبقية في عينيها الرماديتين وبقايا الشعر الأحمر المخلوط بشعرها الفضي، جمالها ملحوظ رغم سنها المتقدم الذي ظهر بوضوح على يد مرتعشة داعبت قطة بيضاء قابعة في حضنها. أما أمامي فجلس رجل شاذ المنظر يختلف عن المجموعة في كل شيء، فملابسه أبسط ورأسه يحمل طربوشًا أحمر، وملامحه تشي بجنسية مصرية واضحة وتحمل طابع «فثراني» جعلته أشبه بحيوان قارض قصير يرتدي نظارة مستديرة، وكان اسمه إسحاق.

قدمني زكريا لهم على سفرته، ثم قدمهم لي فردًا فردًا بالاسم بعد أن تشاجر هو وأليس ألف شجار خفيف الظل حول ترتيب الأطباق فوق السفرة وأطقم الشاي، قبل أن يتوقفا أخيرًا عندما تدخَّل أحد الحاضرين ليفُضَّ بينهما بدبلوماسية متململة. جلسنا نأكل جميعًا في صمت، غطانا غطاء الإحراج الذي لا يحتوي سوى على أصوات المضغ الهادئة، فقلت ممزقًا هذا الغطاء: «الأكل جميل». وأجابني زكريا على الفور مقهقهًا بعد أن مضغ ما في فمه: «هتاكل بقى يا علاء أفندي بط نمرة واحد، الست أليس أحسن واحدة تطبخ بط بالبرتقان في المحروسة كلها، يوم ما كنا نعملوا بطاية كان الشارع كله والشوارع اللي في ريحنا يتلموا على بلكونتنا من طعامة الريحة».

ـ تسلم إيديك يا مدام، مع أني مبحبش البط بس ده طعمه مختلف.

صفقت (أليس) في سعادة على مجاملتي ثم حلَّت وصلة سكوت أخرى محرجة حتى تحدث جوستاف ذو شارب الصراصير بلكنته الأوروبية الواضحة، وهو يقطّع البط في طبقه متأملًا إياه: «مرتاح؟». فأجبته بإيماءة من رأسي قائلًا: «الحمد لله، بدأت اتعود على الشقة» لكنه قاطعني ضاربًا الطعام الراقد في طبقه بالسكين المزخرف، وبعنف نسبي: «غريبة إن حد زيك يعرف طعم راحة».

ـ ليه يعني؟

ـ إنت رايح يقابل سفاح، سفاح ابن هرمة يقتل من غير ميرسي.

ـ كلام أستاذ بنيامين طمني شوية.

لم يرد، فقط ضحك ضحكة بسيطة ظهرت فيها آثار السخرية بينما يمضغ طعامه، وعلى الفور عرفت أنني وجوستاف هذا لن نكون أصدقاء. ودون داعٍ أثار كلامه توترًا ما زاد من ضوضاء الصمت الضاربة بيننا أكثر، ثم تذكرت أمر اختفاء بنيامين المفاجئ فسألت: «هو أستاذ بنيامين فين صحيح؟».

ـ زكريا: في البدروم، هي عوايده كدة يسك على نفسه يومين كل شهر يتأمل ويبحث.

ـ طب أنا كنت عايز أقابله عشان اعرف هسافر إمتى.

ـ في القريب العاجل بإذن الله.

ثم سألني الفأر البشري المصري سليل مملكة القوارض متأتئًا: «إن... إنت بتشتغل إيه بقى يا أف ... أفندي؟»

ـ مؤلف ...

ـ عال عال، أول مرة أش ... أشوف كاتب قصص على الطبيعة ... محسوبك إسحاق أفندي، ب ... ب ... بش ... كاتب.

ـ أهلًا بيك.

ـ يكون في علمك أنا معايا توجيهية وبقرا زي البر ... بر ... بربنط.

ـ فعلًا؟

ـ أومال، وفي مرة ك ... كتبت قصيدة شع ... شعر لأهل الحجا ...

قطع كلامه عندما ضربت يده المتحمسة الطبق أمامه ليسقط الطعام على ملابسه ...

ويلطخها، فقام في ارتباك محاولًا تدارك الموقف لكنه أسقط طبقه أرضًا وسقط معه، فانكسر إلى فتات مزعج تصرخ على الأرض في منظر مثير للضحك، لكن أحدًا لم يضحك، فشعرت بالحرج للمسكين الذي مسح يده الغارقة في الصلصة في ملابسه، بينما قال زكريا: «حصل خير» وهو يهرول لإحضار منشفة صغيرة.

ثم قالت ماري التي لم تلمس طعامها ولا تتوقف عن مداعبة قطتها الناعسة، وأنا أشرب من كأس الماء الموضوع أمامي: «انتي بجد يقدر يلحق ميرتل والبنات؟». ورغم بساطة السؤال أجفلت، أصابني صوتها بقشعريرة غريبة، فكان خافت ومنكسر، كمركب ضعيفة تتلقفها أمواج من اليأس، وعلى كل ضعفه هذا لا يقارن بنظرتها الخاوية المصوبة تجاهي، نظرة خفت بريقها تمامًا كمنزل انطفأت أنواره وهاجر أهله لأرض بعيدة. أمام نظراتها التائهة ارتبكت، سال الكلام من على لساني متحولًا لِلَعْثَمة، فازدردتُ لعابي في صعوبة نسبية ثم انطلق الكلام من فمي: «أوعدك، اللي عملكده في البنات هيتحاسب».

وكأنني ألقيت بقنبلة، انقلب كل شيء في لحظات. فوجئت بجوستاف ينقض عليَّ حاملًا سكين الطعام ليثبتني للحائط ثم يضعها على عنقي، بينما صَرَخَت ماري التي قفزت قطتها فزعة بمواء عالٍ، وحاول زكريا وهنري منع هذا المجنون من ذبحي، أنا الذي لم أتمكن من القيام بشيءٍ سوى الرفس والتحديق برعب في عينيه المتسعتين الثائرتين، اللذين كانتا مخيفتين أكثر من النصل الموضوع على رقبتي. وفي ثوانٍ مرَّت بالتصوير البطيء شعرت بيده تعتصر عنقي، وبأنفاسه الساخنة تزحف على وجهي وتلفحني وكأني بين يدي فُرن متقد بالنيران، وقبل أن تنفجر أوردة عنقي بالدماء وتتطاير في كل مكان تمكَّن زكريا من دفع المعتوه بعيدًا ثم استطاع هنري الإمساك به ودفعه إلى الحائط. أما أنا فسقطت ككومة من القش، سابت أعصابي وكالقلاع الرملية تهاويت في عدم فَهمٍ، تكوَّمت أرضًا وسعلتُ بعنفٍ في حين حاول عقلي أن يدرك ما حدث في الثواني المنصرمة. انحنى زكريا ليقيمني، وجهه أحمر وعيناه زائغتان حاله حال كل الأعين التي كانت تحدِّق فيَّ، ثم سألني: «إنت بخير؟».

أَسعَل مجددًا، أهزُّ رأسي بالرفض في سؤال واضح لم أنطقه يقول (ما الذي حدث بحق الجحيم؟) وأتتني الإجابة منه في الحال وهو يشير بسبابته لصدغه في حركة دائرية متمتمًا بصوت خافت: «جوستاف بعيد عنك دماغه سكر سنترفيش ... خفيفة حبتين، هو طيب إنما مناخوليا وبيشك في خياله، مقتنع من ساعة ما جينا إنك نصاب وبتاع تلات ورقات».

كان المناخوليا مدفوعًا للحائط من قِبل زوج ماري لكن عينيه مثبتتان على عيني في غلٍّ، يعلو صدره ويهبط بقوة حتى أخذ يهدأ تدريجيًّا، لكن تلك الشرارة المجنونة في عينيه لم تنطفئ إلا بعدما صفعه زوج ماري صفعة أفاقته وأخرجته من حفرة جنونه. تحسست عنقي وأنا أقوم وأسحب كرسي السفرة، وددتُ لو صفعته أنا أيضًا صفعة تقتلع ضروسه لكن منعتني الكياسة وأمسكَتْ تربيتي المحترمة بيدي، فجلست إلى السفرة العامرة بأطباق الارتباك وصواني الحرج، والجميع يحدِّق في الحَمَل الذي نجا من الذبح.

تحدَّث جوستاف وهو يمضغ قطعة بط بمنتهى البرود، الوغد كان على وشك ذبحي منذ لحظات ويتصرف الآن وكأنه قد عرض عليَّ لتوه بوكية ورد بلدي: «آسف مستر علاء، أنا فهمت غلط». ومجددًا مال زكريا على أذني هامسًا: «معلشي هو غريب شوية، حتى شوف بنفسك» ثم رفع صوته موجهًا كلامه لجوستاف: «إلا قول لي يا جوستاف، مين اللي قتل لينكولن؟». فرد الأخير بمنتهى الصرامة رافعًا إبهام غاضب: «لينكولن مش اتقتل، ده مسرحية عمله الأمريكان عشان لينكولن يسافر المريخ يحكم عالم من هناك».

مناخوليا بالفعل كما قال زكريا، يبدو أنني أمام واحد من مؤسسي موضة نظريات المؤامرة في العصر الحديث، الذين لا هواية ولا عمل لهم سوى رفض مسلَّمَات العالم ثم غزل الأساطير لتفسيره. ثم أكمل قائلًا بعد دقيقة من الصمت حدَّق أثناءها فينا جميعًا: «أمريكان عايزين يعيشوا على مريخ، روزفلت عنده في تكساس مزرعة جراد هيجوع عالم عشان يتحكموا في فلوس، في اقتصاد عالم». قلبت في وجوه الحاضرين لأرى ردة فعلهم، اِلْتَوى فم زكريا في ابتسامة بينما قلبت (أليس) عينيها في ضجر، وظلَّت ماري محتضنة قطتها، شاخص بصرها إلى مساحة خالية من الهواء أو شخص خفي لا يراه سواها. ثم قال إسحاق ماسحًا المزيد من العرق بمنديله القماشي الأصفر، وقد مال بجسده للأمام: «صحيح يا خواجة؟».

ـ صحيح إسحاق، freemasons عايزين يقضوا على بشرية كلها ويسيبوا ألف واحد بس، هم يدهنوا نفسهم بعصير طماطم عشان جراد مش يقرب منهم.

مزرعة جراد ولينكولن على المريخ وأشجار تطرح سمك بلطي بالمرة، حسنًا هو مجنون رسمي، ولكن بالرغم من أنه نطق بما يثبت جنونه فلم يشفِ هذا غليلي ناحيته، فقلت ضاغطًا على كلماتي ونازلًا بمستوى الحوار إلى ملعبه: «لا مش صحيح ولا حاجة، إحنا سنة 2023 ومافيش حد حكم الأرض لا من المريخ ولا القمر، بيزرعوا بطاطس هناك بس». فنظر إليَّ بأسى الرهبان على حال أهل العالم وهز رأسه يقول: «مسكين ... الخطط مش ليها إكسبايري ديت (تاريخ صلاحية). كوماندر في حرب بيختار أكتر لحظة مناسب عشان يضرب أقوى ضربة».

ـ أكتر لحظة مناسبة عشان يحدفوا العالم بالطماطم؟

هنا تدخلت ماري التي قالت بصوتها الخافت لكن بحسم: «كفاية جوستاف». ثم التفتت إليَّ مستطردة بنبرة أكثر هدوء: «إنتي مفروض تكوني جاهزة جدًّا جدًّا. سفاح دي شيطان، إنتي جاهز يقابل شيطان؟».

طاف بمخي سؤال مُلحٌّ وأخذ يروح ويجيء بين ثناياه (ما سبب كل هذا الاهتمام؟) هل من الممكن أن تكون ماري هي أم الشابة ميرتل الحقيقية بدون علم الجميع؟ ولكني سرعان ما نفضت عني غبار نظريات المؤامرة الذي نثره جوستاف وقطعت خيوط القصص التي بدأ عقلي بغزلها، عندما أكملت هي قائلة: «لو محتاجة أي حاجة قولي، كلنا هنساعدك».

فسكتُّ ولم أرد من باب الشفقة، لا يا عزيزتي، كل ما أحتاجه فقط هو أن تتوقفي عن مخاطبتي بالضمير المؤنث كالأجانب في مسلسلات اتحاد الإذاعة والتليفزيون. جاء الرد من جوستاف بالفرنسية من خلف كأس الماء التي رفعها: (كفاكي عاطفة يا امرأة) فأجبته بالفرنسية أنا الآخر، وبأسمج ابتسامة استطاعت عضلات وجهي الإتيان بها: «أنا أتحدث الفرنسية بطلاقة بالمناسبة».

ومن هنا حتى نهاية الغداء صارت الوجبة أكثر ارتباكًا بعدما حاول السيد جوستاف اللطيف جز عنقي اعتقادًا منه بأنني جاسوس أمريكاني، فأخذت أرمقه أنا بقنوط واضح حتى صعدت لشقتي وأنا أحمل في صدري قلبًا ما يزال يدق غضبًا، وعنقًا يحمل أثرًا طفيفًا لسكين تلوَّث

ببقايا البط والبرتقال، خلعت ملابسي وتنهدت، سحبت كل التوتر من جسدي ونفثته في سيجارة كانت أحلى من المعتاد، وعلى الأريكة تمددت، في رأسي ضجيج، الجرائم والتحقيقات وهذا الغداء المريب، آلاف الكلمات تختلط وتمتزج، جذورها تمتد وتتلوى على بعضها مكونة غابات معقدة، كل ما نجحت في الخروج به من ذلك الغداء هو الحيرة وجرح على رقبتي، ومعدة ممتلئة نسبيًّا. هل ما حدث طبيعي تمامًا؟ لا، ولكن لا داعي لتضخيم الأمور، على كل حال هذا ليس وقته ... أريد أن أنام.

***

-8-

«المعضلة الحقيقية في مهمتك هي معرفة ترتيب الجرايم» ...

نطقها بنيامين وهو يمسح يده بفوطة من القماش ليتخلص من بقايا مادة شحمية، كان مشمرًا ساعديه، يحمل مفتاحًا حديديًّا ومفكًّا، عاملًا على إعداد خزانة خشبية طويلة أشبه بالساعات ذات البندول، وهي الآلة التي ستساعدني على العودة بالزمن ما أن ينتهي إعدادي للمهمة.

خلال الأيام الماضية كنا قد جلسنا معًا في عدة اجتماعات بعد أن ظهر بنيامين فجأة كما اختفى فجأة، ليخبرني أن رحلتي ستنطلق خلال أيام معدودات. بصورة مكثفة أخذنا نعقد تلك الاجتماعات المصغرة، أنا وبنيامين وهنري زوج ماري، والذي عرفت أنه كان مسئولًا في الحكومة المصرية حينئذ، فكان مُطَّلِعًا على كل التفاصيل، واسع المعرفة قليل الكلام، يتحدث فقط حين يطلب منه بنيامين أن يشرح لنا أو يقص بعض التفاصيل بهدف تحضيري لرحلتي الزمنية، ويسرد لي تفاصيل الجرائم والضحايا وطبيعة الإسكندرية وقتها. كنا نجلس في معمل الخواجة حول المكتب المكتظ سطحه بأوراق وصور يفسرها لي هنري بالتفصيل، فقال لي في اجتماعنا الأول وهو يفرش ثلاث صور بالأبيض والأسود أمامي، بمصرية ذات لكنة أوروبية عديمة ال(ح) وال(ع):

ـ أول ليلة مات 3 شابات: ماجي إلياس نمساوية 22 سنة. بريدجت سكوت إنجليزية 20 سنة، عديلة محمود مصرية 22 سنة ... تلاتة ماتوا في المنشية، طب شرعي بيقول إن بنات دول ماتت في حدود الساعة 3 فجر.

ـ أنا: حاولت ألاقي رابط بين ال3 لكن مافيش ... ماجي كانت بنت مهندس نمساوي كبير، وبريدچت مومس إنجليزية معروفة وليها شعبية عشان شغالة مع أختها التوأم، وعديلة شابة مصرية بسيطة، إيه اللي ممكن يربط بينهم؟

ـ بنيامين: مش محتاج رابط ولا دياولو. مهمتك باختصار، تروح للتاريخ ده، يوم ١٥ أكتوبر، الساعة 3 الفجر في المنشية، وتحاول تمنعه يقتل البنات دول.

ـ طب وليه مارجعش أبلغ البوليس بالجرايم قبل وقوعها ونمسكه؟

ـ بنيامين: لعدة أسباب، أهمها أن إحنا ببساطة مانعرفش عنوانه وقتها، كل اللي نعرفه، هو وجوده في أماكن الجرايم أثناء وقوعها، ده غير إنك رايح تقول للبوليص إنك بتتنبأ بوقوع جرايم. إما مش هياخدوا كلامك بجدية، أو إما يعتبروك متواطئ معاه.

ـ يعني أنا هعمل كل ده لوحدي؟

نطقتها بهدوء مفتعل لا يعكس قطرة من بحر ما أشعر به، بحر ثائر بداخلي بدأت بضربه عاصفة الإدراك ـ أن كل هذا حقيقي ويقترب ـ، بحر عاصف ظلَّلَت عليه سحب الأسئلة الرمادية: هل تود الذهاب حقًّا؟ هل ستثق في حفنة من العجائز قفزوا من الماضي؟ هل تستحق إيمي كل هذا؟ لا أعرف سوى إجابة السؤال الأخير، تستحق إيمي كل نقطة عرق ودم في جسدي وكل ثانية متبقية من عمري. أجابني بنيامين بابتسامة مدركة لكل ما عنيته دون أن أنطقه: «لأ طبعًا. هتقابل نسختي التانية في الماضي، وهي هتساعدك».

ـ إزاي؟

ـ ماتعولش هم دلوقتي، ركز في الكلام عن مهمتك.

وفي الاجتماع الرابع كنت أجلس مع بنيامين وحدنا، أدخن سيجارتي السابعة بينما هو يعرض عليَّ البوابة الزمنية الخاصة به، خزانة خشبية لن تستطيع تمييزها عن ساعة ببندول سوى بدرجة سلم وقرص معدني دوار أسفلها، وصندوق خشبي أعلاها. أخذ بنيامين يفكك بعض أجزائها أمامي ويشرح كلام لم أفهم منه حرفًا، لكني تجاوبت معه بإيماءات رأس متحمسة، حتى قطع كلامه والتفت إليَّ قائلًا: «المعضلة الحقيقية في مهمتك هي معرفة ترتيب الجرايم».

ـ يعني إيه؟

ـ إحنا عارفين، إن الجرايم وقعت حوالي الساعة 3 الفجر، لكن مانعرفش الترتيب، بدأ ببريدجت ولا عديلة ولا ماجي؟ إنت هتواجه 3 جرايم قتل يا علاء، يعني محتاج إما تكون موجود في تلات أماكن في نفس الوقت، أو إما تعرف التسلسل المظبوط للجرايم. محتاج تعرف بيفكر إزاي.

صمتُّ قليلًا، ألقيت برفات سيجارتي في المنفضة النحاسية الصغيرة وقلت وأنا أنفخ دخانًا متوترًا: «وأنا هعرف إزاي؟». فأجابني من تحت منظاره بثقة مشيرًا بأصبعيه الوسطى والسبابة لقلبي: «امشي ورا ده، حنة قالت لي إن قلبك هو بوصلتنا، هو اللي هينجد ميرتل». ولم يخفف هذا الكلام الشاعري من توتري بل زاده، فمططت شفتيَّ صامتًا ثم سألته لما استفزتني ثقته وهدوؤه: «وهي فين حنة دي؟ ماجتش معاك ليه ما دام بتثق فيها أوي؟».

فأجابني باقتضاب موليًا ظهره لي: «سيبتها تمشي بعد ما سِتها كلودين صابها الجنان والخبل من الحزن على ميرتل». ومحرجًا ابتلعت كلامي وهضمته، ولم أقدر على التفوه بالمزيد.

ثم في إحدى الليالي دقَّ بابي، دقات متواصلة هادرة من النوع الذي يتحدث عن نفسه ولا يحتاج إلى مترجم في لغة الأبواب لتفهم أنه يحمل مصيبة، فقمت من على أريكتي فزعًا وفركتُ عينيَّ في غضبٍ، بأعين منتفخة فتحت الباب لأجد بنيامين القصير بمنامة زرقاء وغليونه العاجي وعكازه على العتبة، يسحب نفسًا من بين أسنانه وهو يقول: «تغيير بسيط في الخطة، هتسافر دلوقتي».

مَن الذي سيسافر متى؟! فركت عيني الكارهة للضوء كنوع من إرسال استغاثة لعقلي حتى يستيقظ، وبدون أن ينتظر بنيامين مني رد سحبني من يدي لأصعد السلم، فقلت مستنكرًا: «مش المفروض لسه أسبوع على أول سفرية !!».

ـ عيدت حساباتي. إنت هترجع دلوقتي تعمل شيء مهم، مش السفرية الرئيسية، لكنه مهم.

ـ بس أنا مش جاهز ...

ـ انت مش هتخترع العجلة، اعتبر نفسك بوسطجي. مجرد هتوصل جواب للماضي، شيء يساعدك بعدين.

ـ أنا مش جاهز يا أستاذ بنيامين!

لكن لم يرد بنيامين ولم أتوقف أنا عن تتبعه، بفعل نومي وتوتري تبعته صامتًا حتى دخلت المعمل وعلى كرسي خشبي جلست أهز قدمي وأنقر عليها، بينما أخرج هو من درج المكتب ورقة صفراء اللون فخمة، أخذ يدون فوقها بالحبر كلامًا بخط منمق، وبعد أن انتهى أودعها ظرفًا بنيَّ اللون ثم أذاب شمعة باللون الأحمر وختم بها الجواب بختم خاص نقش عليه الحرفان (ب.هـ) مع بعض رمز لساعة جيب يتوسطها يعسوب، وأخيرًا قال لي وهو يضع الجواب جانبًا بحرص:

ـ إنت هترجع (س.م.ت) دلوقتي، لبنيامين اللي هناك.

ـ س.م.ت؟!

ـ السنة المفقودة من التاريخ، 1898 الأصلية. ده اسمها الحركي ...

ـ وارجع دلوقتي أعمل إيه؟

ـ هتديه الجواب ده. هو لما يستلمه منك ويشوف الختم اللي عليه، هيفهم إنك مسافر تبعه؛ لأن الختم ده سري وخصوصي لسفرياتي الزمنية، بستخدمه عشان أتواصل مع نفسي من زمن لزمن لو حصل ظرف. وعشان كدة إوعى نهائي تفتح الجواب؛ لأن لو الختم فسد مش هيصدقك ومالكشي عنده غير رصاصة في الراس.

ـ والسفرية دي مهمة عشان تصحيني دلوقتي كده؟

ـ طبعًا يا ابني! أنا بشرح له في الجواب ده كل شيء عنك وعن المهمة عشان يساعدك.

وفي أثناء الحديث دخل عثمان حاملًا كومة من الملابس القديمة، وعلى وجهه ابتسامة لم أرها منذ مجيئي هنا، الوغد يبتسم وكأنه يزفني لعريسي بعد عنوسة دامت لسنوات.

استفزتني ابتسامته الغامضة وسعادته المبالغ فيها، فنظرت لبنيامين في انزعاج رافضًا حضور الجاموس لكنه لم يبالي، فقط قام من خلف مكتبه وقال: «ده مش وقت لعب عيال، إنت لازم تلتزم بالخطة». ثم ربت على كتفي في لطف وقال: «أوعدك، مش هتاخد وقت. مجرد توصيلة».

وتحت إلحاحه فركت عيني وخضعت، ثم ساعدني هو وعثمان على ارتداء الملابس التي غلب عليها اللون البُني ورائحة قوية لم أستطع تحديدها. ارتديت الملابس بقليل من المجهود وكثير من الـ(عبط) ومع كل قطعة أضعها كنت أشعر ببعض الحماس يتولاني، بماء الذعر الذي يغلي بداخلي يفتر، وبالكماشة التي تعتصر أعصابي ترتخي، ثم ألقيت نظرة في المرآة الطويلة ورغم أنفي ابتسمت، كنت أبدو كأفندي حقيقي ولا ينقصني سوى الطربوش وشارب صغير.

وفيما وقفت أهندم ملابسي أمام المرآة كان بنيامين يفعل شيئًا لا أفهمه بالقرص الحديدي أسفل الكابينة، ولكني كنت أراقبه حين دخل هنري ناعس الأعين أشعس الشعر وكأنه مضروب بصاعقة، وقف على عتبة الباب يتأملنا للحظات ثم خطا صوب بنيامين وانحنى عليه يهمس في أذنه بحديث أجنبي سريع لم أفهم منه حرفًا، لكني استطعت أن أقرأ بعضًا منه في ملامحهما، في حواجب هنري المعقودة وعينا بنيامين المتجهمة: هنري غير موافق على شيء ما؟ بنيامين يضغط على يده في إقناع، أو ربما في طلب لتأجيل النقاش، لكن هنري فجأة أمسك بتلابيب بنيامين وتحول همسه إلى صيحة غاضبة في وجه الأخير قائلًا: «قلت لك توقف!». وهنا ضرب سهم التوتر نخاعي الشوكي وفتته، اقتربت منهما ببطءٍ لعلي أستقي من همسهما ما يبرد السخونة التي بدأت تزحف إلى صدري، لكنهما توقفَا على الفور، فسألت: «هو في إيه؟». وأجابني بنيامين ببساطة بعد أن سوى من ملابسه وعاد للعمل في القرص المعدني: «ماتاخدشي في بالك. هنري كان بيفكرني بحاجة».

هممت بالاعتراض لكن أخرسني الضوء الخافت الذي بزغ من الكابينة، نور أصفر متمرد خرج من حواف الصندوق الخشبي المثبت بأعلاها، شعرت بجنونه من على تلك المسافة، بتهوره وتوقه للسفر من محبسه إلى أبعد نقطة في العالم والعودة مجددًا، في أصغر جزء من أجزاء الثانية. هذا هو الوقت؟ الزمن؟ تود لو تمسكه، تمرره بين أصابعك، أقوى ما في الكون على بعد خطوتين مني، يا لها من فكرة مهيبة وقف لها الشعر على جسدي احترامًا، ثم التفت إليَّ بنيامين ليقول ـ مقسّمًا الجملة لمقاطع صغيرة كعادته ـ: «هترجع في العمارة ... تنزل شقتي ... وتخبط على الباب ... هيفتح لك أنا التاني ... وتوريه الجواب قبل أي شيء ...

وتخليني أبعت لك جواب بكل الأسئلة وأختمه ... وترجع بعدها تاني». قالها ودسَّ الجواب في يدي، ثم عانقت يداه كتفاي مشجعًا مع عبارة (ماتخافشي).

وعلى عتبة الزمن نسيت شكوكي ومخاوفي، قرعت الطبول في صدري وتسارعت الدماء في شراييني، فالضوء كان نداءً لم أستطع صده ولا مقاومته، ازدردتُ لعابي ثم أخذتُ خطوات حالمة غير واعية نحو الخزانة متناسيًا كل ما عداها، وبعد أن خطوت على درجة السلم الصغيرة دخلت للكابينة التي كانت فارغة إلا من مقعد جلدي صغير، عليه جلست كما أملى عليَّ المنطق، ثم من الفرجة بين الخزانة وبابها الذي واربته خلفي رأيت الوجوه الثلاثة تحدِّق بي، بنيامين وهنري وعثمان، وقبل أن يغلق عثمان الباب تمامًا رأيت ... رأيت هنري يهوي على وجه بنيامين بلكمة! وكان هذا آخر ما رأيت من الفرجة الصغيرة قبل إغلاقها.

من خلف الباب سمعت أصوات شجار تتعالى، كدت أقوم من على الكرسي لأخرج لكن أوقفني صوت تكة، تكة صغيرة، ثم هدوء أخفى معه جملة الأصوات الخارجية، سكون مستفز، يخرج لي لسانه ويعلن أن هذه تجربة فاشلة، أو أن مصيبة ما حدثت بالفعل، كان هذا قبل أن يحدث كل شيء دفعة واحدة؛ أضواء ذهبية تغشى كل ركن من أركان بصري، لم أعرف من أين أتت ولكن فاضت بها الخزانة وركلت أبواب عيني، ثم تبعها هزة عنيفة، دوار وغثيان، وفي معدتي شعرت بسفينة تايتانيك وهي تغرق في المحيط الهادي، لكن كما بدأ كل شيء فجأة انتهى فجأة، وسرعان ما خفتت الأضواء.

ركلت الباب الخشبي بحذائي الإنجليزي العتيق ـ ماركة جون لوب ـ رغبة في بعض الهواء، أردت أن أتقيأ في مكان مفتوح، رأسي تنبض بألمٍ حادٍّ، على ما يبدو اصطدمت بها طائرة بوين مسببة كل هذا الصداع، لكن لحسن الحظ نجح الهواء خارج الخزانة في فتح رئتيَّ وتلطيف زلزال القيء في معدتي، ثم عندما رأيت المعمل من حولي، اختفى أي أثر للدوار. لم يختلف كثيرًا عمَّا في زمني، فقط انطفأت غالبية الأضواء وتغيرت بضع قطع الأثاث، كما نقل عدد من الأدوات من مكانه، إلا أنه كان لكل شيء إحساس مختلف، تنبعث منه طاقة شبابية ما، في ضوء الشموع الخافت سرت وظلي أمامي يرتعش، بهدوء تخطو أقدامي فوق خشب الأرضية فلا أسمع في المكان سوى أنفاسي الثقيلة المتحمسة، وفي صدري مهرجان

برازيلي صاخب، فتحت الباب ببطء مستعدًّا للسيناريو الأسوأ، كأي كاتب روايات، لكن لا شيء حدث.

هي نفس الممرات الرخامية ونفس الأبواب والمصعد نفسه، كل شيء كما هو، وللحظة اختلط عليَّ الأمر، أوهمني الصداع في رأسي أنني لم أبرح القرن الواحد والعشرين وأن كل هذا ليس سوى خيالات ما بعد فطيرة فاسدة من فطائر مدام أليس، لكن على كل حال بث المنظر المألوف بعض الأمان في عروقي فقررت قدماي مواصلة النزول حتى شقة بنيامين، ومن سلمة لأخرى أخذت أشق غلاف السكون الذي غلَّف الوجود، بكعب حذائي، حتى بلغت باب الشقة، فسحبت شهيقًا بعمق البحر الأحمر ثم طرقت الباب طرقتين، فانفتح كاشفًا عن رجل قصير القامة أعرفه جيدًا يصوِّب إلى صدري سلاحًا.

كما أخبرني من قبل (مالكشي عنده غير رصاصة في الراس) كان هذا البنيامين يصوِّب ناحيتي مسدسًا أنيقًا يليق بموتة أنيقة، بالتأكيد يحتوي على رصاصة مزخرفة بالورود ستزين جمجمتي التي سيعرضونها في متحف بأمستردام كأول عمل فني بالرصاص الحي، وحقيقةً لم أجرب شعور تصويب مسدس إلى صدري من قبل، ولكنه شعور غير رائع، وبكل تأكيد تصويب شطيرة فلافل بدون سلطة إلى صدري سيكون شعورًا أفضل. كرد فعل طبيعي رفعت يديَّ لأعلى، وسقط الخطاب من بين أصابعي على الأرض مما كان له تأثير السحر، فبعد نظرة من بنيامين للختم الأحمر انخفضت فوهة المسدس ليتسلح بدلًا منها بنظرة ترقب وحاجبين معقودين، ثم قال وهو لم يزل صلبًا متخشبًا: «انت مين؟».

ـ أنا من المستقبل ...

وعلى الرغم من سخافة الجملة، تنحى الخواجة جانبًا في ارتياح. بدا مستعجلًا مستعدًّا للنزول فكان يرتدي بدلة سموكن أنيقة وعلى رأسه قبعة خواجات بارلر الشهيرة، ومن جيبه تدلت ساعة ذات كاتينة أمسك بها وألقى عليها نظرة مغمغمًا: «تعالى ورايا» مما أكد ظنوني. قبل أن أتبعه نزولًا لمحت من فرجة الباب شابة ناعسة وقفت أمام غرفتها في الضوء الخافت تحاول إلقاء نظرة إلى الزائر المفاجئ، ممسكة برداء نومها ضمت ثناياه في حركة تستر بها جسدها الأبيض المرمري، ملامحها رقيقة كالماء، شعرها الأسود القصير ينساب على كتفيها فلا يزيدها إلا رقة، ولها نظرة نائمة متسائلة تجعلك تقع في غرامها، هي ميرتل كما رأيتها في

البورتريه. قال بنيامين المرتبك ونحن ننزل السلالم: «اعذرني على الطريقة اللي قابلتك بها، أما بصيت من العين السحرية ما عرفتكشي، والوقت متأخر على أي زيارات، كان بودي استضيفك في الشقة، لكن عندي حفلة مهمة، ومايصحش أتأخر أكتر من كده». فأجبته أنني متفهم لردة فعله.

وفي عتمة الليل خرجنا من العمارة، فكان لقائي الأول بالقرن التاسع عشر، غمرني الماضي من كل اتجاه كما يغُمر الطفل في ماء المعمودية، عانقني نسيمه البارد، فاقشعر جسدي عندما تكشَّف المشهد أمامي في مهابة؛ اختلف الشارع المقابل للعمارة تمامًا عن الموجود في زمني، حيث استبدلت العمائر القديمة كل المباني الحديثة المشوهة، وحلَّت الحجارة المرصوصة محل الأسفلت عديم الشخصية، وأفسحت أعمدة النور الحديثة الطريق لكلوبات الغاز التي أنارت المشهد بأنوار مهيبة بيضاء.

عربات ذات خيول تروح وتجيء، مارة يقطعون الشارع بملابسهم القديمة بين البدلات الإفرنجية ذات القطع الثلاث أو الجلاليب المصرية، باعة متجولون، حواة، شحاذون، وكلهم ينادون بلغات مختلفة، هذا أجمل من أن يكون حلمًا.

بيدٍ متعرقة من فرط الحماس ركبت مع بنيامين عربته ذات الخيول، حيث انتظرنا الحوذي الخاص به أمامها، وطوال الطريق ـ الذي لم يطُل ـ أخذ الخواجة يتفحصني بعينيه الزرقاوين الأعمق من المحيطات، بدون كلمة واحدة ولا نَفَس إلا أنفاس الغليون، فكان الوضع محرجًا مربكًا، ولكني أعذره، حتى توقفنا أمام قصر فخم بالحي اليوناني، حي الأثرياء، حيث اصطحبني للداخل عبر بوابة معدنية مزخرفة بالأسود والخيول، وقف عليها حارس شركسي ببدلة قرمزية، ولها حديقة غناء توسطتها نافورة.

مع دخولنا القصر هبَّت علينا موسيقى ناعمة، يترأسها الكمان وتخالطها أصوات ثرثرة ضخمة وضحكات عالية دلَّت على الزحام الواضح رغم كبر حجم القصر الذي امتلأ بعشرات الدوائر من الزوار، الراقصون منهم أو المنهمكون في حوارات جانبية، بدلات إفرنكية وفساتين منفوشة تلمع أسفل النجف الضخم المتلألئ، وهنا وهناك تناثر الباشوات بشواربهم المبرومة والبكوات بطرابيشهم، والرتب العسكرية المهمة بالسيوف المغرورة المتدلية من أحزمتهم، واكتمل المشهد ببعض الرسامين المنهمكين في رسم مشاهد من الحفل. أخذني المشهد

بمفاجأة سعيدة، وعلى وجهي ارتسمت ابتسامة تتسم بالبلاهة وأنا أتلفت حولي فاحصًا كل ركن في القصر، حتى لفت انتباهي وانتباه الجميع ضحكة عالية مجلجلة.

كانت صادرة عن رجلٍ سمينٍ وقف على سلم القصر، يرتدي بدلة خضراء برَّاقة وعلى وجهه وضع قناعًا نصف وجه أبيض شبيهًا بأقنعة مهرجانات فينيسيا التنكرية، وعمومًا غلب عليه مظهر أنثوي مائع، كللته ضفيرة شعر قصيرة ناعمة. رفع يدًا شحمية اكتظت بخواتم عديدة ثم قال بصوتٍ قوي لا يتناسب مع مظهره الناعم، وبلغة فرنسية سليمة: «أصدقائي، الليلة هي ليلة مميزة باعتراف الكواكب والنجوم وقراء الطالع، في عيد ميلاد مضيفنا الكريم وصديقي العزيز ألفونسو باشا، دعونا نحظى بليلة من ليالي العمر وننغمس حتى الثمالة في اللذة والشهوة والمجون، وفي الصباح الباكر ليرمي الكل ذنوبه عند أقدام أقرب شيخ أو أبونا أو حاخام، أو عند أقدامي لو أحب ... رجاء تقبلوا تلك الهدايا البسيطة المتواضعة من صديقكم، بكل حب، وفجر».

ومع آخر كلماته انفتح باب القصر على مصراعيه ليدخل عبره جيش صغير مبهرج من البشر، عبيد سود ونسوة عرايا الصدور وأقزام، اقتحموا القصر بعشوائية سلسة وارتمى كل منهم على هدف عشوائي، فداعبت النسوة رجالًا وراح العبيد يتعرون أمام سيدات ورجال بأعينهم وأدى الأقزام فقرات استعراضية، كان سيركًا كاملًا من المجون والخلاعة اقتحم الحفل، وسط ردود أفعال متباينة بين مشمئز ومتحمس ومتفاجئ.

هنا أمسك بنيامين بيدي عندما جذب قزم أحمر الشعر واللحية سروالي غامزًا في فحش، فقال الخواجة وهو يسحبني: «خلي بالك... ماتتعاملشي مع أي حد غيري ولا تلمس أي شيء» ثم اصطحبني لداخل أحد المكاتب مواصلًا في تقزز: «يا ربي! سدوم وعمورة ماكانوش كده».

ـ مين الراجل ده؟

ـ منتصر زفت عناية ...الله يدعقه ...

ـ ماسمعتش عنه قبل كده ...

ـ ولا هاتسمع عنه، ده حاكم إسكندرية السري، إمبراطور كل شيء نجس ممكن تتصوره، الدعارة والأفيون والسلاح ...

ـ وده إيه اللي جابه حفلة زي دي!

ـ قول إيه مايجيبهوش، العِلق ده علاقاته واصلة من أقل أومباشي بشرطتين للسلطان عبد الحميد شخصيًّا، لازم تلاقيه دايمًا وسط الأكابر والأعيان.

شدني ما قال وجذب انتباهي قبل أن يعتذر مني ليتم مقابلة اجتماعية سريعة وواجب اجتماعي مفروض، وتركني في المكتب الزاخر بتماثيل من البورسلين، ولوحات زيتية، وقصائد مُعلقة على الحائط بجوار صورة فوتوغرافية رديئة الجودة لرجل أجنبي مع سلامة حجازي حاملًا عود، وكما وعد، سرعان ما عاد الخواجة وعلى وجهه ابتسامة اجتماعية معهودة، اختفت فور أن أغلق الباب، ثم قال وهو يجلس خلف المكتب المُطعم بالمخمل:

«ناولني الجواب» فناولته الظرف البني بحرص، ويبدو أنه قد قرأ على ملامحي التساؤل فقال وهو يفتح الظرف بفتاحة خطابات عاجية اليد: «القصر ده يخص ألفونسو باشا، صاحب الحفلة، ماتقلقش. ألفونسو صديقي، والقصر زي بيتي تمام».

ولا أدري كم من الزمن مرَّ وهو يقرأ، لكن مرَّ وجهه بكمٍّ غير هيِّن من الانفعالات، أكثر مما يمكن أن تبعثها مجرد كلمات في خطاب؛ تقلَّص وجهه، اتَّسعَت عيناه، انفتح فمه وانغلق عشرات المرات كالسمكة، وقف ثم تهاوَى جالسًا من جديد، وأخيرًا نظر في عيني، وكدت أقسم أن الدماء لثوانٍ هربت من وجهه تمامًا بغير رجعة، وفي النهاية قال بصوتٍ مبحوح، خرج بصعوبة من بين شفاهه المرتعشة: «انت ... انت». وحلَّ صمت لم يبدده سوى أصوات الكمان والضحكات الخليعة ورنين الكؤوس بالخارج، حتى قال أخيرًا: «أنا هبعت معاك جواب تاني».

هذا رجل لا تستطيع سوى أن تتعاطف معه، رجل عرف لتوه أن ابنته الوحيدة، التي ولدت بمعجزة، هي على بعُد أشهر قليلة من الذبح، وأنه يعيش خطًّا زمنيًّا موازيًا وغير حقيقي، وأنه نسخة أخرى من نفسه، تنتهي حياتها إلى طريق مسدود، وهذا أكثر مما يحتمل بشر. لم أمتلك ردًّا سوى إيماءة مرتبكة، تابعته وقد التقط من على المكتب ريشة ودواة حبر، لكنها سقطت على المكتب فلطخت سطحه، أسقطها بيده التائهة بحثًا عن كلمات مناسبة لتكتبها، وأخيرًا على ضوء شمعة على وشك الاحتضار بدأ في كتابة غيث من كلمات بخط رديء حرص على ألا أقرأها، ثم طواها في ظرف بني مشابه للسابق وختمه بنفس الختم الذي كان يحمله في

جيبه، وبين كل خطوة من الخطوات السابقة حرص على النظر في وجهي نظرات فزعة، ولم أستطع لومه.

هبت علينا كآبة باردة خفضت من درجة حرارة الغرفة الرطبة، أردت الحديث ولكن منعني منظر بنيامين الذي دفن رأسه بين يديه في محاولة لاستيعاب كل تلك الأفكار التي تنمو وتتكاثر بداخلها الآن، حتى نظر إليَّ وقال: «آسف ... أنا مش مستوعب». فقلت برفق: «مفهوم، خد كل الوقت اللي محتاجه».

وبعد جلسة كئيبة تخللها الكثير من الصمت والقليل من الكلام، عدنا لمعمله حيث سيعمل على إرجاعي، حاولت تركيب بعض كلمات للمواساة في طريق العودة لكني فشلت تمامًا.

***

-9-

لم يخبرني أحدهم من قبل أن الدوار والصداع هما الأعراض الجانبية للسفر عبر الزمن، وحقيقةً هذه أعراض مائعة لا تليق سوى بالسفر إلى دمياط وليس السفر الزمني، ولكني لا أشكوا حقًّا فهي أعراض بسيطة مهما اشتدت، وبالتأكيد ستكون أفضل من أن يتساقط جلدي أو أنزف الصراصير، وهكذا ليومين متواصلين عانيت من دوار لعين بشكل شبه متصل وكان الصداع يطرق رأسي كل فترة والأخرى دق الجار البار، وحاول المخبول جوستاف علاجي ببعض الفجل متعللًا بأن تلك النبتة المبروكة دواء لكل داء وأنها سلاح العاقل المؤمن في نهاية الزمان ضد فرسان المعبد.

أما الأعراض الجانبية الإيجابية ـ للأعراض الجانبية السلبية ـ كانت أن أيام التعافي المملة سمحت لي بالتقرب لسكان العمارة أكثر، في زيارات متبادلة أو مقابلات بالصدفة تعاملت معهم بما يكفي لأعرفهم وأرسم لكل منهم إطارًا خاصًّا به. أكثرهم غرابة هو (جوستاف إلياس) خال ميرتل، نمساوي نحيل، نباتي في الصباح ويأكل البط والحمام في المساء، لا يؤمن إلا بالمؤامرات ويحمل في جيبه الأيمن فصين من الثوم دومًا، ورث عن أحد أعمامه ثروة أغنته عن العمل فتفرغ لكتابة أشعار فاشلة، ودراسة ما يسميه بعلم العطور. كنت أصادفه بصفة يومية على سلم العمارة أو في المدخل، وسواء كان يلقي بقمامته أو يصعد لزيارة أحد الجيران كان دائمًا ما يرمقني بنظراته الغريبة المتحفظة وكأني زوج أمه، يلقي عليَّ سلامًا مقتضبًا ثم يكمل طريقه للأسفل أو يسألني بضع أسئلة مفاجأة عن مقاس حذائي أو إصابتي بأمراض جلدية من قبل، وأحيانًا يبدأ في سرد نظرياته حول نهاية العالم على يد الأمريكان وتجار التوابل.

أكثرهم طرافة هو إسحاق سكرتير بنيامين وصديق العائلة، موظف مصري ترك الريف وجاء عائلة مكونة من أم وأخ للإسكندرية بحثًا عن عمل وظروف صحية أفضل لأمه المريضة بمجموعة أمراض تلخّص منهجًا عامًّا من دراسة الطب. يخاف إسحاق من خياله لكنه نهم للمعرفة وواسع الفضول، يمشي حافي القدمين طول الوقت ورائحة جوربه لا تحتمل، ولكنه لطيف المعشر ولا يتوقف عن الثرثرة حول كل شيء، كان يزورني بين الحين والآخر بصحبة

أليس وزكريا، يُتأتِئ ويسألني ألف سؤال في الثانية حول الألفية الجديدة، كيف تطير الطيور المعدنية الضخمة في السماء، ولماذا يرتدي الناس ملابس كـ(النمِر) في السيرك، على أن كل ذلك لا يوازي اللحظة التي استخدم فيها هاتفي المحمول للمرة الأولى، فرماه من بين يديه متمتمًا (يا حفيظ) عدة مرات ثم جرى مختبئًا خلف المدفأة، مُقسمًا لي بأغلظ الأيمان أن تلك المرآة السوداء «ملبوسة».

أما (ماري وهنري)، خالة ميرتل وزوج خالتها، هما أكثرهم غموضًا، لا تفعل ماري شيئًا سوى حياكة التريكو والبكاء غامض السبب، ربة منزل إنجليزية تعاني من أرق مزمن وهوس بتربية القطط، فلديها 11 قطة لها كلها أسماء تبدأ بحرف الـ(ف). أما هنري فهو إنجليزي هادئ، من بعد تقاعده لا يمضي وقته إلا في شرب الويسكي أو النوم، كان له منصب حساس في حكومة الاحتلال آثر أن يستقيل منه لينضم لبنيامين في رحلته، بشكل عام صرت أقرب من الجميع باستثناء هذا الزوج المنعزل وخصوصًا ماري التي لم تكن تخرج إلا نادرًا لتلتقط قطة من قططها الشاردة في العمارة، ألقي عليها التحية فتبادلني إياها مرتبكة قبل أن تعود من جديد لجوف شقتها.

ثم وقعت حادثة غريبة في مساء أحد الأيام، تضمنت الزوجين المريبين مع جوستاف، حين كنت عائدًا من الخارج لأُفَاجَأ بالأربعة (عثمان وجوستاف وماري وهنري) واقفين بمدخل العمارة في مشهد يبعث على الريبة: اتَّشح أربعتهم بالملابس السوداء ـ عدا عثمان ـ وحملوا زجاجات من عِطر نفَّاذ تغلَّب على رائحته الثوم، يدهنون منه الحوائط وينثرون قشورًا بيضاء على الأرض، وأمام باب المصعد وقفت سبورة رُسم عليها رموز من دوائر عدة متداخلة، أصابني المشهد بقلقٍ عميقٍ، فكرت في الطقوس الشيطانية فازداد هلعي وكدت أهرب، لكن جوستاف أوضح لي ومن بعده أكد بنيامين أنها طقوس جوستاف الخاصة لدرأ الطاقات الخبيثة وصد مصاصي الدماء، وبالطبع فإن بقية السكان يطاوعونه فقط حتى يهدأ قلقه.

ومنذ ذلك اليوم بدأ يصحبني شعور غير مريح ناحية سكان العمارة، يشبه الرؤية عبر زجاج مصنفر، أو كطبق عميق تكاد تغرف منه فتتفاجأ أن الملعقة اصطدمت بقعره، فكانت شخصياتهم ضحلة عندما أخوض في تفاصيلها، وبرغم أحاديثنا الكثيرة الودودة كانوا يحافظون على نوع من المسافة الآمنة بيننا لسبب لا أفهمه، فلم يكن منهم من أشعر ناحيته

بالوضوح والعمق سوى زكريا الذي توطدت علاقتي به وبـ(أليس) زوجته، فيزوراني مساءً كل يوم حاملين سلة تحتوي على الكعك أو الفطائر، يقهقه الرجل السكندري كثيرًا ويمزح أكثر، نتحدث حول حياتي وميرتل وعائلتهم الصغيرة، يتشاجرون عشرات المرات عندما ينسى زكريا موعدهما الأول أو ماذا أهدته (أليس) عندما عاد من سفر طويل في الصعيد، فيتلعثم ويحمر وجهه، ثم يضحكون سريعًا بعدها.

وفي إحدى الزيارات المسائية تطوعت السيدة لتغسل لي صحوني المكومة في الحوض، بينما كنت ألعب مع زكريا الشطرنج في الشرفة وآكل من الكورواسون الذي أحضروه، فقلت له بفم مكتظ تمامًا: «الكورواسون طعمه خطير، مدام أليس خبازة هايلة بجد». فقال مقهقهًا وهو يحرك أحد العساكر على الرقعة: «أُمال لو دقت حلوياتها، آخر خفافة ولطافة، أنت تعرف أن جدة جدتها كانت الخبازة الخصوصي لماري أنطوانيت؟ يعني عيلة أليس هي السبب في الثورة الفرنساوية». قهقه مجددًا على دعابته ثم أكمل: «إحنا كان عندنا مخبز كبير ياما قبل ما نسافرو».

ـ بجد؟ طب وليه مفتحتهوش تاني؟

سكت قليلًا وتجمَّد كما لو أن عطلًا أصابه، ثم قال: «معرفشي... بناء على أوامر بنيامين إحنا مبنخرجوش من العمارة ولا بنتعاملو مع حد براها». فقلت بحماس: «ممكن نفتح مخبز في المحل المقفول اللي في مدخل العمارة، إيه المشكلة؟ على الأقل تجيبوا فلوس تساعدكم تعيشوا هنا، المؤن اللي مخزنينها مش هتكفي كتير».

ـ بس يا علاء أفندي إحنا ممعاناشي اللي يكمل تجهيز مخبز ولا تشغيله.

ـ أنا هساعدكم وأجدده، ماتقلقش خالص.

نظر إلي، ترك قطعة الشطرنج من يده وقفز الارتباك من عينيه وقوَّس حاجبيه، ثم وضع كفه على صلعته وأخذ يحكها منقبًا عن فكرة ما، وقبل أن ينطق دخلت (أليس) بمريلتها القماشية البيضاء تحمل صينية استقر عليها ثلاثة فناجين من الشاي، فطرحت عليها فكرتي متحمسًا مما باغتها أكثر مما توقعت، فوضعت الصينية جانبًا، بادلت زوجها نظرات مرتبكة وضمت أناملها الطويلة معًا، ثم قالت بصوتها الحاد الرفيع: «بس ... بس دي كتير آلاء، مخبز عاوز نقدية كتيرة».

ـ بس هيكسب أكتر، وانتو محتاجين مصدر دخل، صدقيني كورواسون زي ده ثروة قومية، مايتباعش دلوقتي بأقل من خمسين جنيه للواحدة.

بعينين متسعتين وضع زكريا يده على صدره قائلًا: «يا حفيظ!! ده ثروتنا وكل ما نملك 400 جني ودكانة». فأجبته ضاحكًا: «دي الأسعار العادية دلوقتي، إنت هاييجي لك صدمة عصبية لو عرفت المتر في التجمع بكام».

«بس إنتي مش يكسب حاجة كده». قالتها (أليس) وما تزال ملامح عدم الاقتناع تسكن وجهها، لكني قلت لها ببساطة وأنا أقضم من الكورواسون: «لأ طبعًا، هاخد حلويات ببلاش». فأمسك زكريا بيدها، نظرًا إليَّ بابتسامات دافئة سالت معها دموع تشع بالامتنان والراحة من أعين الزوجة، مما زادني حماسًا، فقررت أن أبدأ إجراءات إعداد ذلك المخبز فورًا.

في الصباح الباكر عدت بسيارة محملة بكل ما يلزم لتجهيز المخبز من أدوات نجارة وأثاث وبعض جرادل الدهان، الأمر الذي أدخل قرص الشمس في غرفة معيشة (أليس) وزكريا، وبناء على قرار بنيامين الذي رفض تمامًا الاستعانة بالغرباء جددنا المخبز بأنفسنا، فعملت أنا وزكريا وإسحاق والحمار الحصاوي عثمان على تنظيف المكان ودهانه، وخرجت المرحلة الأولى أفضل مما تصورت بعدما كنساه وغسلناه وركبنا المصابيح الحديثة ودهنَّا حوائطه باللونين الفستقي ولون ال(لاتيه) كما طلبت السيدة (أليس).

عندما امتلأت حواسي بالروائح والمشاهد والتفاصيل عُدتُ إلى الكتابة ـرغمًا عنيـ فلم أستطع مقاومة إغراء القلم أكثر من ذلك، قرَّرت الوصول إلى توليفة تجمع بين ما يحدث في العمارة وبين قصة المحقق التي بدأتها منذ أيام، وزاد حماسي عندما أعطاني بنيامين آلة كتابة نحاسية عتيقة كان قد عالجها لتكتب بالعربية، منحت تجربة الكتابة سحرًا إضافيًّا وبعُدًا موسيقيًّا مع كل نقرة زر يُشعرني بأني أعزف الكلمات لا أكتبها، وخصصت للكتابة أيضًا «سكرتيرة» مريحة للكتابة في غرفة المعيشة التي صارت مقر عملي ونومي أيضًا بعدما نبذت السرير النحاسي تمامًا.

وأخيرًا أخبرني بنيامين أنني على وشك بدء المهمة الحقيقية، وأني بعد يومين سأسافر لمطاردة السَّفَّاح في ليلته الأولى، وفقًا لحسابات دقيقة أجراها. سألته لماذا أجبرني على العودة بذلك

الجواب المستعجل في منتصف الليل فأجابني وهو يكتب بعض المعادلات على سبورة بالمعمل:

«السفر في الزمن أمر معقد، حساباته كتيرة وتلخم. صعب جدًّا تنط لأي تاريخ بصورة عشوائية حتى لو مسافر متمرس، لازم يكون نفس تاريخ اللي انت فيه في الحاضر، يعني لو النهاردة 1 يوليه مثلًا، تقدر تسافر لأي سنة في الماضي أو المستقبل في 1 يوليه، مش أي يوم تاني. علشان كده لما عيدت حساباتي ووجدت إن نسختي التانية هتكون موجودة وقتها في العمارة، شيعتك بسرعة».

وهو ما أفسد لي الكثير من متعة السفر في الزمن المتبناة في الأفلام والروايات، فالعملية محددة ومقيدة وتخضع لعدة شروط مثلها مثل زيارة للسجل المدني صباح السبت قبل أن تخبرك مدام منال أننا (شطبنا).

مع اقتراب الموعد أخذ قلقي في الارتفاع، ورغم محاولاتي لصرع الخوف بنزهات صغيرة على البحر لكني كنت أفشل في أغلب الأوقات، فأحيانًا كنت أرتعب من فكرة مواجهة الشيطان الذي أقدم على فعلة كتلك، وأحيانًا أخرى تملأني نبوءة حنة بثقة نيرون نفسه، فتنتفخ أوداجي وأسير متبخترًا كما فرسان العصور الوسطى عالمًا أن في حزامي سيفًا خفيًّا وفي جيبي إكسيرًا نادرًا سينقذ الأميرة من الموت. أحيانًا نادرة كان يلمسني الواقع مجددًا في صورة معجبة متحمسة تطلب توقيعًا فأتذكر مَن أنا، وأحيانًا يصفعني بفكرة حول إيمي، يلكمني في معدتي بصورتها ويلف شعرها الأحمر حول رقبتي فأختنق ببطء وأناديها في سري، أو أناديها بصوتٍ خافتٍ كما اعتدت في أوقات قلقي أو لحظات إحراجي، لاإراديًّا أهمس باسمها، ولا أعرف حقًّا لماذا طورت تلك العادة الغريبة ولماذا ما زلتُ أحتفظ بها، رغم أن إيمي نفسها لم تحتفظ بي.

***

- 10-

في الليلة التي سبقت سفري، جلست متربعًا على أريكتي أكتب رابع فصول الرواية الجديدة، عندما سمعت أصوات حركة بالخارج. نظرت للساعة في ركن الشقة فهمست عقاربها أنها الثانية بعد منتصف الليل، مما يعني أن سكان العمارة في سابع نومة وأن وعيهم غاطس في قاع بحيرة متجمدة، مَن هناك إذن؟ قمت على أطراف أصابعي، فتحت باب الشقة لأجد المصعد في طريقه إلى أسفل مما أدهشني، جريت إلى النافذة أنظر من بين خصاصها فلمحت (أليس) خارجة من مدخل العمارة على عجل لتقابل جوستاف المتوتر، توتر يمكن ملاحظته بسهولة في رقبته المشدودة التي تلتفت 180 درجة، ثم اقتربت (أليس) من ... ما هذا؟!!

لقد أمسك جوستاف بيدها، والخائنة لم تسحبها، وإنما بادلته نظرة عصفور في قفص نال أخيرًا حريته! تراجعت في مكاني، دفعتني المفاجأة مترين للخلف ولكني واصلت متابعتهما من النافذة وهما يتسحبان إلى داخل العمارة، وفي يد جوستاف رأيت المفتاح الطويل الأسود لقبو بنيامين المحرَّم، فلم يحتجِ الأمر للكثير من الفطنة حتى أفهم أنهما مقدمان على فعل شيء غير بريء تمامًا، المتصابية (أليس) تخون زوجها مع جوستاف!

شعرت بالاشمئزاز، وتكوَّم بداخلي نفورٌ لزجٌ مفاجئٌ نحو مدام (أليس) رغم ما أُكنُّه لها من احترام، فخيانة رجل طيب مثل زكريا هي فعلة شنيعة لا تغتفر! كما أن موسمك فات يا امرأة، وصار رحمك صحراء عربية غربت عنها شمس الطمث للأبد، فلماذا إذن؟ وحتى يا (أليس) لو اخترت أن تخوني زوجك المسكين، أفلم تجدي سوى جوستاف المخبول؟ أقسم بالله أنه لو كان آخر قطعة في سوق الرجال لترهبنت كل نساء العالم واعتزلن في الأديرة. فكرت في النزول، أكلني الفضول وعضعض أعصابي مطالبًا بأجوبة ولكنني أخرسته، قاعدتي الذهبية دائمًا هي أنه لا مكان للمشاكل في حياتي ولا أسعى لمواجهات، حياة الظل أهدأ وحرارتها ألطف.

بصعوبة عدت للكتابة، حفر الشك أنفاقًا وبنى جسورًا في جدار عقلي، فقاومته بالتجاهل والمشي في أحذية أبطال روايتي الجديدة، ولكن كانت تظهر في سماء الأحداث بين الحين

والآخر خيالات جنسية وقحة ومقززة لجوستاف مداعبًا (أليس) ومنتزعًا ملابسها بطريقة معكوسة اتقاءً لشر عطارد، فأحاول غسل هذا الخيال المؤذي عن عقلي برشفات القهوة.

أفكر وأصابعي تدق أزرار الآلة الكاتبة: صحيح أن الخيانة فعلة لا تغتفر ولكنني آخر من يحكم على الخائنين هنا، الخيانة كانت حبل المشنقة الذي وضعته حول رقبة علاقتك بإيمي يا حمار، هكذا قلت لنفسي، أنت أيضًا خائن (اِتوِكِس).

صباح اليوم التالي لواقعة الخيانة كنت أجلس مع زكريا و(أليس) ليعلماني أصول وقواعد المخبوزات، وبين الحين والآخر كانت تفلت مني نظرات ساخرة لأليس أقطعها على الفور. (أليس) ليست سيئة، بل هي طيبة وحنونة وتعد أفضل المخبوزات في العالم، ولكني أشفق على زكريا المغفل من الغدر، وما أثار غيظي حقًّا أن ظاهر زيجتهم مثاليًّا، زوجان متفاهمان يكثر شجارهم على أمور تافهة فقط بين وقت وآخر، فلو لم أر (أليس) تلك الليلة لواصلت ظني بأنهما أسعد زوجين في العالم.

على كل حال قررت وأد جنين الاحتقار الذي كان ينمو بداخلي والاندماج مع حصة المخبوزات، فالاحتراف أمر جذاب حقًّا، و(أليس) في المخبوزات كانت بمثابة شكسبير في الأدب وموتسارت في الموسيقى، لا يمكنك أمامهما سوى أن تسترخي وتشاهد ما لقنهما إياه الزمن من خبرة وتفاصيل خاصة جدًّا لم تتكشف إلا للقلائل، وبالفعل كانت (أليس) ساحرة: ضع بعض الملح هنا، اِخفض حرارة الفرن قليلًا في منتصف عملية خبز هذا الصنف، اِدهن الزبد بشكلٍ أفقي وليس طولي، هكذا تختار التوت الصالح للحشو. والحق يُقال وجدت الأمر ممتعًا للغاية بصحبتها وبصحبة زوجها ـ المغفل – وملأتني روائح المخبوزات بنوع من أنواع السعادة المبررة.

وقفت مع زكريا في مطبخهما نجرب المنتجات ونختبر قائمة البيع وأعلمه كل شيء عن النقود وقيمتها، لوهلة فكرت أن أخبره عن (أليس) ولكني تراجعت بسرعة، فلم أحب أبدًا لعب دور رسول الخراب. الرجل سعيد، قلت لنفسي، دعه يسعد ويقطع بساتين سعادته جريًا، أحيانًا من الأفضل أن تترك الكذبة تعيش وتستقر وتنمو، فالكذب، مهما ذم فيه البشر وعابوا، هو في كثير من الأحيان درع آمن سعيد ضد نصال ورصاصات الواقع، والواقع سفاح مدجج لا يرحم.

الخامس عشر من أكتوبر كان تاريخ أول ليلة جرائم للسَّفَّاح، والخامس عشر من أكتوبر كان اليوم، اليوم أسافر إلى العام 1898 (س.م.ت) بحسب نبوءة الخادمة الحبشية؛ لذا جلس معي بنيامين مُراجعًا للمرة الأخيرة كل تفاصيل الجرائم الثلاث، وقوانين السفر في الزمن خاصته:

1ـ لا يمكنك المكوث أكثر من ٣٢ يومًا متواصلًا في الماضي بأقصى تقدير وإلا ستظل حبيسًا هناك.

2ـ عليك دائمًا حمل أداة أو جسم له جزء في زمنك لمساعدتك في العودة. (لهذا اخترت سلسلة فضية لأرتديها ووضعت جزءَ حلقاتها في شقتي).

3ـ لن تستطيع التنقل سوى في التواريخ المقابلة لتاريخ اليوم الذي ستسافر فيه، وهي قاعدة شبه مستحيلة الخرق، لم يكسرها إلا بنيامين عندما سافر لتغيير موعد دخول سفينة سيسلي في يناير حينما كان في مارس.

4ـ القاعدة الأشهر في أفلام الخيال العلمي (إذا قابلت نسخة منك في الماضي ستكون العواقب غير محمودة) خاطئة، قابل بنيامين نفسه مرة من قبل ولم يتضرر.

كما أخبرني أيضًا أن السنة المفقودة التي سأسافر لها تعج باختلافات شتى عن التاريخ كما نعرفه، تغييرات حكومية وسياسية واجتماعية، فقال وهو يخلط بعض السوائل في أسطوانة معدنية، وفي الخلفية يتعذب اليعسوب إياه عذابه الأبدي:

«فرانز يوزف ملك النمسا مثلًا زار مصر في زيارة ملكية كبيرة مع ابن اخته فرانز فيردناند، وكان هيجوزه شابة مصرية من عيلة كُمَّل، يعني الحرب العالمية الأولى ما كنتش هتقوم من أساسه، تفصيلة مهمة كمان مختلفة هتلاقي البوليص ابتدا يدخله مصريين بصورة واضحة بعد ما كان مقتصر على الإنجليز».

ـ غريبة أوي، إشمعنى؟

ـ كان نوع من رد الفعل على انتشار عصابات شوارع كونها منتصر عناية، صاحب مملكة دعارة ومخدرات مسيطر على إسكندرية.

ـ بنيامين التاني حكالي عن منتصر ده، راجل غريب أوي.

ـ كويس إنك فكرتني، أنا محتاج أشيع معاك جواب تاني لبنيامين وانت مسافر، هعرفه فيه يعمل إيه سواء المهمة نجحت أو فشلت.

قبل الساعات الأخيرة من سفري كان من المفترض أن أنام نومًا عميقًا، ولكن مرَّت الليلة بطيئة باردة بسبب أرق عززه الكافيين، حاولت الكتابة لكن جفَّ بئر خيالي وشرب التوتر ماءه لآخر نقطة، تركني أتمشى في الشقة وأتقلَّب في كل ركن من أركانها، من الشرفة للمطبخ للأريكة للقمر تنقلت بلا إعياء أو تعب، أرجو جسدي أن يطيع قوانين الأحياء والفيزياء وينهار لكنه ظلَّ مصفحًا، فهربت بتفكيري إلى زمان ومكان آخرين، في خطيئتي وغفراني، ملاكي وشيطاني، حبيبتي التي تستطيع أن تجعل الشمس تشرق بكلمة من فيها.

فتحت الألبوم الخاص بصورها على هاتفي، دقَّ قلبي دقتين إضافيتين. إيمي، أفتقدك، أفتقد هالتك النورانية ونقاط النمش الرقيقة التي تركتها الجنيات على وجهك، رقصاتك الحرة المتمردة وأحاديثك المهووسة، أنا بدونك ذابل، رخيص، أكلني الدود وسكنت العثة جسدي، أنا بدونك مدينة خربة ما زال دخانها يتصاعد لمدة عامين منذ احترقت، أنا بدونك أجوف، خفيف كالجيفة وهامد، لن أستطيع النوم أمام صورتها المحتلة عقلي.

وأين يذهب الإنسان إذا لم يسعه بيته ولم يحتويه عقله؟ يذهب إلى خالته. فورًا ضغطت اسم سناء في الهاتف، وقفت على طرف صافرات المكالمة حتى أتاني صوتها العجوز بطريقتها الموسيقية: «ازيك يا مضروب، توَّك ما افتكرت خالتك؟» فسكن قلبي على الفور، هدأت ضوضاؤه وترتبت نبضاته، وببلاهة قلت وأنا ابتسم: «أنا كويس يا خالتو، واحشاني جدًّا».

ـ ماهو باين يا ولا، من كتر ما بتسأل ...

ـ مشغول شوية بس ...

ـ مال صوتك يا واد؟ فيك إيه؟

ـ مافيش ... عادي ... مركز في الكتابة ... بكتب رواية جديدة ...

صمتُّ قليلًا لتتحدث أنفاسي المضطربة بالنيابة عني، ثم قلت: «أنا مسافر قريب، رايح لـ ... شغل كده كام يوم». وسرعان ما انزاح ثقل كبير عن قلبي، شعرت براحة غير عادية بمجرد أن أخبرتها بسفري رغم أنني لم أخبرها بالمكان، أو بالأحرى الزمان، لكن فكرة أن أحدهم يعلم،

أن أحدهم يقلق بشأن عودتك ويترقبها، هي فكرة مطمئنة. قالت سناء: «ابن حلال... بقولك إيه افتح الكاميرة بتاعة الزفت ده، فيه معايا حد بيسأل عليك». فقمت بتحويل المكالمة للفيديو لأجدها ـ خالتي ـ تعدل من وضع الهاتف بطريقتها الخرقاء التي لا تبث في روحي إلا دفئًا، ومن خلفها ظهر الحائط الأزرق المميز لمكتبها بالملجأ، ورأس أخرى أعرفها جيدًا، (زياد) الصغير أحد أطفالي في الملجأ، والذي صاح ما أن رآني «بابا علاء».

لوَّحت مبتسمًا للصغير ذي العيون العسلية وسألته كيف حاله هو وإخوته، فلوَّح هو الآخر وفي يده لعبة بلاستيكية صفراء ثم أخذ يُسهِب في كلامه الطفولي حول آخر تطورات الملجأ، وكيف أن ليلى كسرت الجيتار الخاص بسيف وكيف أنه استطاع إنهاء طبقه كله اليوم وبمفرده، وبجواره تضحك سناء على كلامه المتحمس اللاهث أو تناقشه بطفولية وكأنها تصغره سنًّا فأضحك أنا، كانت لكل تلك التفاصيل الحمقاء تأثير بارد ملطف على جحيم عقلي، وأخيرًا صرت أفضل، بعد مكالمة سناء أنا دائمًا أفضل.

***

- 11-

سنة 1898

(س.م.ت)

ثم توقف شريط الذكريات اللولبي عن الدوران وتوقفت عن السقوط معه، لم يكن هذا حلمًا ولم أكن أهذي، أنا على أرض التخشيبة بقرا قول محرم بك، حبسٌ انفرادي وسط البول والبراز والظلام، مُتَّهمًا بقتل الشابات اللواتي جئت في مهمة لإنقادهن ... لقد انتهيت وضاع كل شيء.

قبل أن أنجرف في تيار الأفكار السوداء تذكرت فجأة الخطاب الجديد الذي أرسله بنيامين معي قبل السفر، ما زال هناك أمل! أخرجت المظروف البني من جيب سترتي وتأملته في ضوء القمر، ثم رفعته لأعلى محمومًا وأنا أصيح: «يا شاويش ... يا أومباشي». قمت ملتصقًا بالباب وواصلت الصياح الهيستيري وأنا ألوِّح بالخطاب من الفتحة الصغيرة: «أنا لازم أقابل المأمور».

صحت وصحت حتى صار تجاهل صراخي دربًا من المستحيل، فاقترب مني كونستابل إنجليزي بدين الجسم وكثُّ الشارب، وقال مُضخِّمًا صوته بالإنجليزية: «فيما تريد المأمور أيها التعس؟» فقلت أنا أيضًا بإنجليزية متلهفة، محاولًا أن أبدو على أعلى قدر من الإقناع: «يجب أن يصل هذا الخطاب إلى شخص مهم للغاية».

ـ حسنًا، أتريدنا أن نُحضر بعض الشاي والكيك من جروبي لفخامتك أيضًا؟ مصري غبي.

قالها ثم بصق على الأرض، لكني ابتلعت الإهانة وقلت متوسلًا: «صدقني هذا الخطاب مهم للغاية، سيوصلنا للقاتل الحقيقي». فقال ساخرًا وهو يعبث بحزامه الجلدي: «ولمن تريد أن أبعث بالخطاب يا جناب الباشا؟ مولاكم السلطان محمد ... أم للملك إدوارد السابع ربما؟».

ـ الخواجة بنيامين ...

انعقد حاجبا الكونستابل على الفور عندما علم أنني لا أهذي، تجمَّد لثوانٍ ثم بيد حذرة منكمشة الأصابع التقط الظرف من بين أصابعي، همَّ أن يفتحه لكني صرخت فيه ألا يفض الختم الأحمر حسب أوامر بنيامين بنفسه، ثم تماديت وقلت من خلف الباب ملوحًا بيدي: «إذا لم يصل هذا الخطاب إلى الخواجة بنيامين قبل بزوغ الشمس ستكون في خطر محدق، أنا غير مسؤول عما قد يقع على عاتقك من اتهامات». وعلى الفور حثَّ السمين خطاه بعيدًا، يهرول ويهتز كرشه بعد أن ازدرد ريقًا مسموعًا.

أيًّا كان التأثير السحري لاسم بنيامين هنا قررت أن أستغله للدرجة القصوى، سيأتي وسيخرجني من هذا الجُب المظلم، بالتأكيد لن تسوء الأمور أكثر من ذلك، فبنيامين يعرف دائمًا ما يفعله. هكذا قلت لنفسي في الظلام. أحتاج لسيجارة، فتشت جيوبي بحثًا عن واحدة بمعجزة لكن لم أجد سوى الخواء، فزفرت في ضيق وعلى الأرض جلست، عندما هدأ كل شيء وخفتت الأصوات من جديد، تعالى الظلام وراودتني الحقائق المرعبة؛ مَن لك هنا؟ أنت وحيد، يتيم في زمن آخر، ورقة شجر في نهر مندفع، سقطت في بئر سحيقة ولن تجد من يمد لك يد العون، السجن أو مقصلة الإعدام مصيرك، فماذا تنتظر؟ نم، نم لعلك تستيقظ بعدها في زمن ثالث.

وفي اليوم التالي لحبسي استيقظت على أصوات حركة وهمهمات عالية خارج التخشيبة، ففتحت عيني منزعجًا بعدما ضربها شعاع الشمس المتسرب من النافذة ليعرفني على محبسي بوضوح ويريني بقع العفن والبول الباهتة على الحوائط والأرض، فحمدت الله على نعمة الظلام ممتعضًا. مع استفاقتي، تناهت الأصوات إلى مسامعي أعلى، واستطعت ترجمة بعض الكلمات: السَّفَّاح ـ شابات ـ المنشية ـ الحكمدار. بالطبع تركت الجرائم تأثيرًا سريعًا وصارت حديث الساعة، ولكن ماذا عن بنيامين؟ ألم يحضر بعد؟

مجددًا وفي إلحاح أخذت أطرق الباب بكلتا يداي مُحْدِثًا ما استطعت من جلبة، بأعلى صوتي ناديت المسئول في هذا القراقول لكن لم يظهر سوى مجموعة من الشاويشية الذين وقفوا يراقبونني من بعيد بفضول زوار حديقة الحيوانات أمام قفص الأسد، واحد فقط منهم هو مَن اقترب، كان الكونستابل الإنجليزي الذي أخذ مني الظرف بالأمس، أقبل يبرم شاربه

في ا دّعاء لمشجاعة و قال بتوترٍ جاهد لإخفائه ـ لكني شعرت به من ا لمسافة ا لآمنة ا لتي اتخذها بيننا ـ: ـ ماذا هناك بحق المسيح؟

ـ هل وصل الجواب لبنيامين؟

ـ لم يخرج شيئًا من القراقول

ـ نعم!

ـ هل نحن سعاة البريد الخاص بجلالة القاتل؟

ـ أين الجواب يا غبي!!

ـ احترس لألفاظك أيها المصري وإلا قطعت لسانك وأطعمته لك.

ـ أنا آسف، أين الجواب يا جناب الكونستابل؟

ـ لقد تحفظ المأمور عليه

ـ يجب أن أقابل هذا المأمور في الحال إذن

ـ حسنًا، أنا أعلم أن المصريين قردة أغبياء، ولكن ليس إلى هذا الحد

ـ أرجوك!

سكت قليلًا يحاول استخراج رد مناسب من جنبات عقله، لكنه ما لبث أن بصق أرضًا ودار على عقبيه في استهانة ليغادر، فصحت قائلًا: «هناك ثلاث شابات أخريات على وشك الموت بعد أيام!» فتوقف مكانه لبرهة، التفت إليَّ بوجهٍ شاحبٍ بينما تعالت همهمات الواقفين، نظروا إليَّ ولبعضهم البعض دهشة، لكنه صرخ فيهم قائلًا: «اذهبوا من هنا بحق الجحيم!».

اختفى معهم هو ا لآخر لدقائق تسارعت فيها دقات قلبي، وهاجمتني خلالها فكرة واحدة فزعة، تلح على رأسي وتطحنها: قد يفوت ميعاد سفري وأظل عالقًا هنا للأبد! لكن أخيرًا جاء المأمور، ببدلته السوداء ذات الأزرار الذهبية اللامعة، وطربوشه وشاربه الميري. ورغم ندبة طولية غريبة تقسم وجهه إلى نصفين متساويين وتوحي بكونه شرير من ا لأفلام، أثلج مرآه صدري ولوَّح لي ببعض الأمل؛ لأنه كان ضابطًا مصريًا. اقترب من الباب في خطوات ممشوقة

واثقة، ووقف يرمقني للحظات من نافذة الباب مداعبًا مسبحة خضراء بين يديه. قال ببطء: «عاوز ايه؟».

ـ يا أفندم مش أنا اللي قتلت البنات والله العظيم، الخواجة بنيامين يعرف كل حاجة ...

ـ الخواجة له يد في قتلهم؟

ـ لا لا! وصَّل له الجواب بس وقول له إني مقبوض عليَّا ...

ـ لو ماقولتش البوسطة دي فيها إيه أنا هفتحها بنفسي ...

خرست للحظات، تلعثمت قليلًا ثم قلت وأنا التصق بالباب أكثر وأمسك بالقوائم المعدنية لنافذته: «ماعرفش! الجواب ما ينفعش يتفتح لأن عليه ختم بنيامين، ممكن تتأكد من الخواجة بنفسك، واللي جوة الجواب كلام سري للغاية أنا نفسي ماعرفهوش».

ـ وأيه حكاية التلات شابات الجدد اللي هيموتوا دول؟

ـ مش هعرف أشرح لك، بس أنا متأكد ...

خطوات بطيئة، معدودة، تقدَّم بها مني، ثم ببرود قال كلمات اخترقت المعدن بيننا واستقرت بين ضلوعي: «انت كداب، أنا عارف اللمامة اللي زيك تمام، خارج من التياترو سكران طينة بعد ليلة أنس، خسرت فلوسك كلها في قمار خايب، ومنقوع البراطيش اللي بتشربه لعب بدماغك، فجأة مابقتش تعرف تتحكم في الرغبة، زي الكلاب». ثم ألصق وجهه هو الآخر بالنافذة وقال: «يكون في عِلمك أنا هسيبك تعفّن هنا لحد ما الحكيم الإنجليزي يأكد كدبك».

ـ بس أنا والله ما ...

ـ قاطعني صائحًا: ولما الضحية التالتة تفوق من الغيبوبة وتشهد ضدك أنا بنفسي هشرف على إعدامك في ميدان عام.

ـ لو مش مصدقني كلم الخواجة بنيامين، هو عارف كل حاجة ...

ـ الخواجة سافر بره مصر ...

كانت جملته الأخيرة بمثابة لكمة إلى معدتي أفقدتني قواي وبثت الرخاوة في أعصابي فلم يكن السقوط هنا رفاهية ولا اختيار عندما نطقها وابتعد بعيدًا، سقطت على ركبتيَّ ووضعت يديَّ على رأسي بحسرة، لقد سافر الوغد وتركني هنا، ربما تعمَّد السفر وتركي، ربما كل هذا فخ متقن، أو ربما أنا منحوس بالفعل. لن تسكت الأصوات في رأسي الآن إلا بموتي أو بظهور بنيامين، وهذا نوع آخر من العذاب، ولكنني اعتدت، بمعجزة ما اعتدت كما اعتدت على عمارة ميرتل وعلى فراق إيمي، فالبشر مصممون بهذه الطريقة، هذه غريزتهم وهذا سرهم، نفوسهم هلامية مطاطة، وإذا لم تكن القوالب مناسبة لهم تغيروا هم حتى يناسبوها، وإلا فلماذا انقرضت الديناصورات وظللنا نحن هنا ـ للأسف ـ؟

في اليوم الأول أنكرت حبسي ولم أستطيع أن أستوعبه، في الثاني والثالث اكتأبت وصرخت ببراءتي حتى بُحَّ صوتي، في الرابع صمتُّ لكن صرخت معدتي طلبًا لطعام إضافي، ومن بعدها فقدت إحساسي بالوقت ولم أعد أحسبه. رقدت في الظلام لأيام وصرنا أصدقاء، فكان يزورني في المساء بصحبة أحلامي وهلاوسي حول إيمي، أراها في الركن معي، تطعمني في فمي طعامًا وهميًّا أعدته بيدها، نتحدث أحيانًا وتربت على وجهي كل بضع دقائق، تقول «أنا هنا» فأبتسم رغم كل شيء، لو كان انفصالي عن الواقع تذكرة للقائك فأنا لست غاضبًا، من أجلك أبيع الحقيقة والواقع بأبخس الأثمان.

برتابة ثم سرعة مرت عليَّ ثلاثة أسابيع كاملة، فاحت خلالهم رائحتي ونبتت لحيتي، استلقيت أرضًا فلم تنتصب قدماي إلا للتبول أو لبضع نظرات محبطة من الفتحة بالباب، ثلاثة أسابيع لم أتوقف خلالها عن كتابة الروايات في رأسي، اختلقت فيها أفضل حبكاتي ونفخت الروح في أعظم أبطالي ثم كنت أنام فأقتلهم بالنسيان، ثلاثة أسابيع لم أنقطع فيهم عن انتظار بنيامين وترقبه، ورغم فقداني القدرة على إدراك الوقت كنت أدعو وأصلي وأنتظر ظهوره، ولكن لا بنيامين ولا يحزنون، ولا حتى تحقيقات مع الضبطية أو زيارات أو محاكمات، وكأنهم نسوا أمري، وكأن هذا الزمن الموازي قد لفظني وردم على فكرة وجودي ترابًا.

حتى حلَّت ليلة من الليالي، سمعت فيها جلبة شديدة صاحبها وقع أقدام عال مدبدب، شدني الفضول لكني لم أقوى على الوقوف فرفعت عنقي لفتحة الباب بالأعلى حتى لطم ضوء قوي

عيني فجأة فأغمضتها وغطيتها بذراعي، كان هذا شاويش آخر يقف على الباب ليقول وأنا أفتح عيني بصعوبة: «قوم معايا».

ـ فيه إيه؟

ـ السَّفَّاح بعت رسالة ...

***

بحسابات (س.م.ت) انقلب السلطان محمد الخامس على أخيه السلطان عبد الحميد الثاني في شهر مايو ١٨٩٨ (س.م.ت) بعدما حلَق عبد الحميد شاربه فبدأ العامة والساسة الاستخفاف به ولقبوه بالسلطان الوردي، يقال إن سبب حلقه لشاربه هو حلاقه الفرنسي الجديد الذي نصحه بعدما بحلق شاربه الشهيرة وعمل «دوجلاس».

- 12-

تياترو زيزينيا

تذكرة لحضور فرد واحد فقط

العرض المسرحي (أنطونيو وكليوباترا) ـ فرقة إسكندر فرح

يبدأ العرض في تمام التاسعة أفرنكي مساءً من مساء يوم الإثنين الموافق ١٣ من شهر نوفمبرا تشرين الثاني لعام ١٨٩٨ م

فوتيل صالة ممتاز

١٢ قرش صاغ

كانت تلك هي رسالة السَّفَّاح، تذكرة لمسرحية أنطونيو وكليوباترا، مكتوب على ظهرها بالعربية وبخط رديء (اشتقتم إليَّ؟ سفاح العذارى يعود بعرض جديد، سيذبح فيه العذراء على المسرح ثلاث مرات، الليلة لن يموت أنطونيو، فقط كليوبا ترا). ومرفق مع التذكرة طحال بشري محفوظ جيداً.

مكبلًا بالأصفاد، أدخلني الكونستابلات للمأمور الذي كان يسبِّح على مسبحته الخضراء بتجهم بالغ، ثم راح يستعيذ بالله من الشيطان بهدوء ما أن رآني وأمر رجاله بالخروج، فتنفسوا الصعداء وولوا أدبارهم خارجين. في البداية تفحصني من مكانه بغضب، مال ناحيتي وأصر بحدة على أنه يفهم خدعتي وأنني لن أستطيع الإفلات بجرمي البشع، عرض عليَّ الرسالة ـ التي لم أكن قد رأيتها من قبل ـ ولوَّح بها وهو يشرح المخطط: «لقد أعددت تلك الرسالة قبل تنفيذ جرائمك، حتى إذا ما قبض عليك أرسلها أحد أعوانك، فنطلق سراحك كالبلهاء».

لم أستطع التركيز ولا الرد، كان عقلي مشوشًا، فكل تلك الليالي الماضية أصابته بصدأ بالغ من جراء الركود، لأيام كان مخي غارقًا في أعماق الزنزانة المظلمة حيث اتحد الواقع مع الخيال في نسيج واحد لا يمكن فصله. عبثًا حاولت التركيز وتذكر أي تفصيلة حول ليلة

الجرائم الثانية لكن كانت كل محاولاتي ضبابية واهية، فلم أقُل سوى الكلمات التالية، بصوت تآكل من قلة الاستعمال: «مش أنا». وهنا تحدث رجل أجنبي جالس في الركن، غلب اللون الرمادي على تفاصيله من شعر وشارب وملابس، وقال بالفرنسية وهو يناولني ورقة وقلم: «أعد كتابة الكلمات الموجودة على ظهر الرسالة من فضلك يا مسيو». فأعدت كتابتها بقلم من الحبر وأيد مرتعشة، وما أن انتهيت حتى أمسك الأجنبي بالورقتين وقارن بينهما، في عبوسٍ ضيَّق حاجباه، ثم وضع الأوراق على المكتب وقال: «ليس هو، الخط مختلف».

ـ المأمور: تأكد مرة أخرى.

ـ خبير الخطوط: سيد حسن، هذه وظيفتي. كاتب الرسالة أعسر وهذا المتهم أيمن.

ـ المأمور: ربما كتبها له أحد أعوانه.

ـ خبير الخطوط: لا أظن، الجرافولوجي تخبرني أن كاتب هذه الرسالة رجل أجنبي قوي البنية واثق من نفسه حدَّ الموت ومضطرب ذهنيًّا. الخط يقول إن كاتبها، على الأرجح، السَّفَّاح.

ـ المأمور: هراء! لن أطلق سراح هذا الشيطان أبدًا، لقد أمسكوا به متلبس ومغطى بالدماء أمام جسد ضحية.

ـ خبير الخطوط: لا يوجد وقت للتعنت يا سيد، اليوم هو التاريخ المذكور في الرسالة.

وهنا تدخلت وأنا أشعر بتروس عقلي تعود للعمل، نقلت بصري بين الرسالة وخبير الخطوط ثم تذكرت، ليلة الجرائم الثانية تحدث بتاريخ اليوم! بانفعال صحت في المأمور وأنا أستعيد ما تيسر من الوعي، بفضل الضوء والهواء النقي والأدرينالين: «قلت لك من بدري فيه بنات تانية هتموت، لو متصرفتش حالًا ذنبهم في رقبتك». وكان هذا قبل أن يندفع داخل المكتب كونستابل مصري لاهث زائغ العينين يقول: «لقيو حُرمة مدبوحة!».

التفت إليَّ المأمور المصعوق وسأل: «إنت عرفت منين!». وبالطبع لم أجبه، كان هذا وقتي للعب دور النبي الغاضب على بني شعبه من العُصاة، فلا ينطق سوى ببضع كلمات حكيمة عندما تحل الكارثة. فقط توجهت بكلامي للكونستابل قائلًا: «لاقوها في محرم بك، صح؟». وأجابني من بين لهاثه: «أيوة، في إمبروزو، من قيمة عشر دقايق».

ـ صحت: وانتم واقفين بتعملوا إيه! مش قلت لكم ... فيه اتنين تاني غيرها!!

ـ المأمور ملحًا: مش قبل ما تقول عرفت م ...

ـ قاطعته: مافيش وقت يا متخلف!

وبأسرع ما يمُكن غسلت وجهي في حمام القراقول وبدلت ملابسي القذرة المهترئة قبل أن أنطلق مع المأمور في عربة تجرها الخيول، يلاحقنا طاقم من الضباط والكونستابلات راكبين أحصنتهم. في الطريق لمحرم بك سمعنا نقرات متتابعة على سطح العربة تحولت سريعًا لخبطات متوا صلة، مطر غزير غاضب ينهمر، وكأن الليلة تنقصها عاصفة! داهمني القلق عندما سمعت الرعد يزمجر، فحولت بصري من النافذة المشوشة بالمطر الجاري لأثبته على رفيقي الجالس قبالتي، أتفرسه في أعلى مراحل الرضا، مرحلة (ألم أقل لك؟) التي تمثل قمة هرم الرضا البشري؛ لذا رحت أرمق المأمور بسهام اللوم الحارقة وبمنتهى التشفي، وعيناي تقولان (ألم أقل لك يا ابن الغبية؟). ولما فشل في تفادي سهامي قال وهو يشعل سيجارة أخرجها من علبة معدنية: «بنيامين رجع من بدري».

ولا أعتقد أن هناك سببًا وراء اعترافه هذا، في تلك اللحظة، سوى رغبته في الانتقال إلى فردوس النعيم مخنوقًا بيدي العاريتين، بعد أن أدخن التبغ في ترقوته ... يا ابن العاهرة! أخذت أحدق فيه ببلاهة عاجزًا عن التفوه بكلمة واحدة، فتابع قائلًا: «سيبناك في التخشيبة لحد ما تيأس وتعترف إنك السَّفَّاح، وإن الملعوب بتاعك ده فشنك».

وحقًّا لم أعرف بما كان عليَّ الشعور وقتها! لقد تم التلاعب بي وضاعت من حياتي أيام ثمينة في زنزانة حقيرة ظلمًا، ولكن على الجانب الآخر بنيامين هنا، مما يعني أن الأمل باق، وأن على الأرجح كل شيء سيكون تحت السيطرة. قبل أن آتي بأي ردة فعل توقفت العربة، وبخبطتين على جانبها فهمت أننا قد وصلنا شياخة أمبروزو بمحرم بك، فنزلنا وفي الحال وضعت غضبي من المأمور جانبًا عندما رأيت القوة الواقفة تحت الأمطار في انتظار ما سأتفوه به من حكمة وشيكة، وقد صرت دليلهم ومخلصهم بعدما تحققت نبوءتي، أنا الذي لا أتذكر حرفًا واحدًا مما أنا مقبل عليه، بعقل نامت خلاياه وثقب ظلام الزنزانة إطاراتها، ولكن كانت الأجواء مشدودة لدرجة أرغمتني على التركيز. من أين أبدأ؟ حاول عقلي يائسًا التشبث بأي خيط تركه بنيامين لي، الذي لسوء الحظ لم يخص معي كثيرًا فيما هو بعد الليلة الأولى.

شياخة أمبروزو هي البداية، ثلاث شابات سيمُتن، لا أتذكر سوى أن إحداهن ماتت خلف محطة الترام وأخرى في زقاق ملاصق لفندق يحمل اسمًا ملكيًّا، وهذه نقطة بداية جيدة جدًّا. سألت الضباط بعد شهيق مضطرب من ليل الإسكندرية العاصف:

ـ الشابة دي ماتت فين؟

ـ قصدك الشابتين ...

ـ اتنين!

ـ فيه واحدة ماتت ورا محطة الترام، ولقينا من شوية التانية عند لوكاندة الخديوية ...

اللعنة! شعرت بضآلة مفاجئة عندما هدَّت الكلمات الأخيرة خطتي، عبثًا تلفتُّ حولي لعلي أرى القاتل يجري هنا أو هناك لكن بلا طائل، فأغمضت عيني مركزًا أفكاري حول فتات الأدلة، ثم عبرت عقلي صورة الرسالة التي رأيتها في القراقول: مسرحية، أنطونيو وكليوباترا، تياترو، زيزينيا! لكن زيزينا بعيدة جدًّا عن هنا، لا فائدة.

أنطونيو وكليوباترا هي مسرحية لشكسبير عن قصة الحب الشهيرة بين ملكة مصر والإمبراطور الروماني، مسرحية ت... أضاء الحل ذهني. مسرحية ـ روماني ـ المسرح الروماني**!

صرخت باسم المكان فأرتبك أفراد الضبطية قبل أن يطيعوا أمري بالجري للمسرح الأثري فورًا، وتحت المطر الغزير لاحقتهم، قطعت الحواري الخالية على قدمي بصحبة المأمور، الحماس الجهنمي يغزو عروقي ويدفعني دفعًا من شارع لآخر، الرعد هادر والمطر ينهمر ومن حولي يتردد الوقع المُلهب لأقدام وحوافر تجري محمومة، تلك أنفاس من الحياة نفثت في جسدي من جديد بعد موتي في قبر الزنزانة.

وأخيرًا لمحت الظلال الخارجية المميزة للمسرح الروماني، فتفرقنا أوتوماتيكيًّا وبدأنا بالبحث في كل اتجاه حوله، ولكننا لم نجد في المنطقة سوى كلبًا تعسًا يبحث عمَّا تجود به الشوارع من طعام، بالإضافة إلى المطر اللعين الذي يصعب الرؤية ويطمس الأدلة. وبعد بحث مطول حول محيط المسرح الخارجي بدأ الشك يعتريني ويغلفهم، فالمكان خالٍ والطقس عاصف لا يعد بأي شيء! مهرولًا دخلت المسرح المهيب، المضاء بالنور الفضي للقمر الكامل، والذي انعكس على المكان خالقًا ظلالًا مرعبة، وبحرص نزلنا السلالم الزلقة

بحثًا عن جسد حي أو ميت حتى صرخ أحدهم: «دماء»! فنظر الجميع إلى حيث يشير: خيوط من دماء غزيرة تتسرب كشباك العنكبوت من خلف أحد الأعمدة الواقفة في ساحة المسرح، فانحدرت ناحيتها مسرعًا حتى كدت أنزلق، ثم رأيتها أمامي.

عمل فني بشع، تمثال صعد من أعماق الجحيم ليُعرض أمامنا، وبرغم رؤيتي لهذا المنظر الجهنمي من قبل، لكنه فاجأني ببشاعته من جديد عندما ومض البرق في السماء للحظة منعكسًا عليه؛ جسد أنثوي مستند للعمود الأثري، مبقورة بطنه على شكل الرقم سبعة «V»، ومن مهبله تسيل بِرَكٌ من الدماء، معكوسة ذراعاه عند المرفقين في وضع يشبه تماثيل القديسين، في يمناه المرفوعة يحمل ميزان، وفي يسراه يحمل قلبًا من الجلي أنه انتُزع من الفجوة المحفورة في الصدر، أما ملامح الوجه فكانت مسلوخة تمامًا كالعادة.

ستذُبح العذراء ثلاث مرات الليلة أيضًا، هكذا كتب في رسالته، وأمامي أخذت الجثة شكلًا قريبًا من تماثيل العذراء مريم، لكنه تمثال مشوه. صاح أحد الكونستابلات بالشهادتين بينما تقيأ آخر إنجليزي، وتقدمت أنا مع المأمور وأحد الضباط فاحصين جسد الفتاة المقتولة، والتي بعثت رؤيتها راحة غريبة في أوردتي ـ لا تفهمني خطأ ولكن كانت سمعتي على المحك هنا ـ فملأني منظرها بجيوش من اليقين تعاظمت بنظرات المأمور المصعوقة التي راحت تتنقل بيني وبين الجثة، يده المرتجفة وحاجباه المرفوعان يعلنان بوضوح عن إيمانه الصادم بي بعدما ثبتت أدلة نبوءتي بما لا يدع مجالًا للشك. وقبل أن نلقي على الجثة المزيد من النظرات الفاحصة دوت رصاصتان أجبرتا الجميع على الانحناء، ولمصدر الرصاص رفعت عيني من على الأرض، حيث رأيته مجددًا على سلالم المسرح العلوية: القاتل، السَّفَّاح، أو أيًّا كان مسماه الوظيفي.

لم أستطيع تبيُّن ملامحه في الظلام والمطر، بالإضافة إلى قبعة موضوعة على رأسه ووشاح غطى نصف وجهه السفلي، لكني رأيته بشكل أوضح من المرة الأولى: فكان ضخم الجثة في حجم ملاكم وزن ثقيل ويرتدي ملابس أنيقة لا تلائم الحدث ولا الأجواء، فبدلته الكُحلية الفخمة كانت تليق بليلة في بلكون بدار أوبرا وليس ليلة للذبح والمطاردة. بادلناه إطلاق النار لكنه كان سريعًا في الفرار خارجًا، لكن أثارت رؤيته وهو يهرب فيَّ جُبن تفاعَل بداخلي، شيء يفور ويغلي في سعادة بدلًا من الخوف، نعم كنت متحمسًا لمقابلة هذا الوحش الذي

ربطتني به نبوءة ونصبتني بطلًا منتصرًا عليه في الفصل الأخير من القصة، أثارني كل هذا فضحكت بعصبية ونحن نرتقي السلالم الزلقة لنلحق به.

بقدر ما أمكن من سرعة ركضنا خلفه لاهثين ولكن لم تسعفنا العاصفة ولا المسافة الموجودة أصلًا، فاتسعت الفجوة بيننا حتى اختفى خلف أقرب منعطف عائدًا لمحرم بك، وفي أثره انتشرت القوات سالكة مختلف الاتجاهات الممكنة، إما على الخيول أو الأقدام، واخترت أنا أحد الشوارع الجانبية كما أخبرني حدسي الذي صرت أثق فيه تمام الثقة، فملأني بسخونة غريبة وأنا أجرى بجوار المأمور، كتأثير جرعة خمر قوية في ليلة باردة، انقلب كل شيء عندما تحققت نبوءتي بموت الشابات، صرت أنا الملك هنا والنبي والقائد، وسأطارد هذا الجرذ حتى أصطاده وأحقق نبوءة حِنة.

وعلى بعُد أمتار كافأني حدسي عندما لمحت الشيطان في ضوء أحد كلوبات الغاز ينعطف يسارًا داخل حارة بعيدة، فأشرت باتجاهه صائحًا في المأمور الذي أسرع ركضه معي، مُشهرًا مسدسه قديم الطراز في انتظار الفرصة المناسبة للتصويب ما أن يظهر، ولكن قبل حتى أن ننعطف خلفه فوجئنا بالملعون يخرج من الحارة ممتطيًا حصانًا اندفع فوقه مسرعًا ناحيتنا، فكاد يدهسني لو لا دفعة جانبية من المأمور الذي سقط أرضًا معي، ثم صوَّبنا حيته رصاصتين يائستين لكنهما طاشتا بعيدًا.

بحنق هائل أطلق الأخير صفيرًا خاصًّا من صفارة نحاسية كنداء لقواته فحضر الفرسان الراكبون بسرعة، وأشار لهم بالاتجاه الذي سلكه السَّفَّاح ثم ركب خيول أحد الضباط، فزادت إثارتي وأنا أمتطيه خلفه، ووصلت ذروتها عندما لفحت أنفي رائحة البارود التي تفوح في الهواء مع لسعات المطر. انطلق جوادنا يجري طاعة لتوجيهات اللجام وغمزات قدم المأمور في جانبه، من ميدان لشارع دلفنا متبعين الأحصنة في المقدمة حتى لمحته مجددًا على مسافة بعيدة، من فوق صهوة جواده كان يلوّح بسوطٍ أسود في اتجاه واحد من فرساننا، والذي ما أن اقترب منه حتى انهال سوط السَّفَّاح على وجه حصانه كصفعة أخلَّت بتوازن الجواد وقلبته مع ضابطنا أرضًا، وبتلويحة أخرى عنيفة من السوط هوى القاتل على صدر ضابط آخر لحق به فسقط ـ الضابط ـ بصوت فرقعة عن الجواد الذي صهل في هيستيرية وداس راكبه ثم جرى مبتعدًا، وعندما كاد ضابط إنجليزي يجري خلفه على قدميه أن يصيبه

برصاصة، دار السَّفَّاح موجهًا إياه في مفاجئة ثم لفَّ سوطه حول يد الضابط وجذبها، فانحرفت الرصاصة للسماء بينما سحل الضابط أرضًا لبضع أمتار. أي شيطان هذا!

دوَت أصوات الرصاص في كل مكان بإثره، تزأر مع الرعد وتومض مع البرق، حيث تبعناه مع الفرسان من شارع لآخر لكنه كان سريعًا كالرياح يعرف طريقه ولا يتردد، بالكاد ألمح طرفه في نهاية حارة أو زقاق فيختفي منحرفًا، أو أراه ملوِّحًا بسوطه بين الحين والآخر ليسقط أحد الموجودات في الشارع أو ليرعب أحد الأحصنة التي قد تقترب منه، هذا قبل أن يتوقَّف جوادنا بغتة عندما دلفنا لشارع ضيق، حين صهل ورفع قائميه الأماميين لأعلى فكدت أسقط لولا تمسكي بالمأمور، وسريعًا ما أدركت سبب فزعه المفاجئ: فأرضًا رقد ثلاثة أحصنة مقلوبين على جانبهم، بركابهم، وسط المطر وبِرك الماء، وأمامهم كومة مكسورة من براميل نبيذ كانت مرصوصة بجوار حانة، ففهمت أنها عرقلتهم وقلبتهم أرضًا عندما دفعها القاتل في طريقهم فاصطدموا بها.

أما الوغد فاختفى تمامًا، بلا أثر، ترك حصانه على بعد شارعين وواصل هربه جريًا على الأقدام، خفيفًا كذرة من ذرات الهواء، ذاب وتحلَّل كل أثر له. أخذ المأمور يسب في عصبية ويصيح بأقذع اللعنات، ثم ركل أحد براميل النبيذ ليكسره، ولكني لم أبالي كثيرًا، اِغضب يا مأمور الغبرة وابكي خسارتك الجولة، فأيًّا كانت النتيجة اليوم أنا قد ربحت، وبالكاد خرجت من قعر ذلك البئر السحيق. كل ما أريده الآن هو العودة إلى بيتي والعودة إلى زمني، دش ساخن يغسل كل تعبي ويبخره ووجبة محترمة تملأ الفراغ بداخلي.

***

المسرح الروماني: تم اكتشافه في تاريخنا عام ١٩٦٠ على يد بعثة بولندية، ولكن في (س.م.ت) تم اكتشافه في ٢٣ يناير على يد راعي غنم يدعى (سيد معزة) في أثناء بحثه عن نعجة تائهة فخرج يصرخ ظانًّا أنها تُرَب مسكونة.

- 13-

عقب انتهاء العاصفة، حضرت مع ضبطية الإسكندرية لعمارة ميرتل عند مطلع الفجر، في زيارة اعتذر فيها المأمور المتلعثم عن سوء التفاهم المزعوم وتفوَّه بكل كلمات الأسف الممكنة تجنبًا لغضب الخواجة، أما الخواجة غير المستوعب لما يحدث فقبل مكوثي في معمله ببعض الحذر والارتياب. وكما تعقَّد كل شيء بسرعة انفرج أيضًا بسرعة، فبعد قرابة الثلاثة أسابيع من العذاب في الزنزانة المظلمة، كنت نائمًا في معمل بنيامين (س.م.ت)، أنعم بسرير مريح وغطاء وثير والكثير من شوربة العدس.

وفي الصباح دق بنيامين باب المعمل مستئذنًا ثم دخل بصحبة غليونه، تفحصني لفترة بعينه مخرجًا أفكاره على هيئة دخان وصمت طويل أشعرني بالتوتر، حتى تحدَّث أخيرًا بابتسامة أراحتني وذكرتني ببنيامين الذي أعرفه، أخبرني أنه قرأ الخطاب الذي كان بحوزة المأمور وأنه صار يفهم وضعي وأسبابي، كما أكد أن الموعد لم يفت لرجوعي لزمني، وأنه يعمل على عودتي في أسرع وقت، ثم قال بطريقته المعهودة في تقطيع الجملة لأجزاء:

«كل شيء هيبقى تمام ... لكن إنت تعبت ... وتستاهل تريح أعصابك شوية».

بعدها طلب مني ارتداء ملابس نظيفة من أجل الذهاب في نزهة، كتعويض عمَّا جابهته في الأيام الماضية وحتى نحظى بحديث ضروري أيضًا، ثم أخذني إلى مقهى كلاسيكي بميدان القناصل يدعى (اللوفر)، وفي الطريق إلى هناك، أبهرتني كل تفصيلة ممكنة إلى حد الثمالة، حيث اختلفت الشوارع القديمة كليًّا تحت ضوء النهار عن منظرها في الليل الأسود الخالي، وبدا الأمر برمته حلمًا جميلًا أو فيلمًا متقنَ الصناعة: ميادين مشمسة مرصعة بالتماثيل والنوافير ومكللة بالعصافير المزقزقة، مبان أوروبية ساحرة تلاصق مشربيات خشبية شرقية، وكل هذا مغلف بأشجار مصفوفة على كلا الجانبين بمنتهى الفن، وبأعمدة إنارة كلاسيكية تظلل عربات فخمة تجرها الخيول، ينتظر أمامها سائقون ببدلات أرجوانية خاصة.

أمام ناظري كانت تروح وتجيء الدكاكين من محلات بقالة أنيقة ودكاكين تصليح الساعات السويسرية بنوافذ عرضها جذابة، والأجزخانات الفخمة بلافتاتها عن الأدوية التي تعالج ستة

أمراض مختلفة في آن واحد، هذا غير محلات غريبة لم أر مثلها من قبل تبيع أجهزة بخارية، ومكاتب لمرهنات الفئران***. لكن وسط كل هذا العجب كانت التفصيلة الأثْرَى بحق هي الناس. المصري والأجنبي متداخلان معًا كخيوط ملونة تطرز ثوبًا بهيًّا، وكل منهم مشغول في أفكاره الخاصة فلا يعي عظمة المشهد الغني بالتناقضات حيث القبعات تجاور الطرابيش والحذاء يحاذي البلُغة، أصناف وألوان من البشر تختلط في تناغم بين أفندية، وجنود، وباعة، وسيدات، وخدم، أعراق مختلفة وأفكار متضاربة لكنها منصهرة في بوتقة الإسكندرية وبين شوارعها، وفي خلفية كل هذا عُزفت سيمفونية من لكنات كثيرة تسبح في الهواء، المصري والجريجي والشركسي والنوبي.

بالحق لم أر مثل هذا حتى في أعتى مدن القرن الحادي والعشرين عولمة، ففي القرن الحادي والعشرين يتخلى الكل بالتدريج عمَّا يميزه وببطء نتحول للإنسان نفسه، تتخلص الشعوب من إرثها وطبائعها حتى تصير أقرب صورة للإنسان الأوروبي المثالي، فإذا عبرت ميدان التايمز لن يمكنك معرفة المصري من البرازيلي أو الإيطالي، صار العالم كله طبخة واحدة ـ برغم دقة مكوناتها ـ تفتقر للتنوع والتباين في الطعوم، للقرن الحادي والعشرين طعم واحد ثابت، مضمون لكن ممل.

أما اللوفر****، فهو مقهى فاخر ووجهة مفضلة للأجانب وعِلْيَة القوم، تنتظم خارجة طاولات دائرية في ساحة مشمسة بميدان القناصل كما تتراص بداخله أيضًا في قاعة ناعمة من الخشب الداكن، تفوح بين حوائطها روائح القهوة والكورواسون، وأنغام كمان رقيقة يلعبها عازف عجوز متخصص. بالداخل وبجوار النافذة العريضة المطلة على الميدان جلست مع بنيامين نحتسي شايًا إنجليزيًّا مُرًّا في فناجين خزفية، ونتحدث حول بعض المواضيع السطحية غير المهمة، يتحسَّس كل مِنَّا طريقًا بحذر حول ما يريد حقًّا الحديث عنه، الطقس وجودة الشاي وطعام الإفطار المفضل لكل مِنَّا، فلم نتحدث عن موت ميرتل ولا عن موعد عودتي لزمني، حتى قال بنيامين:

ـ هاريسون باشا صديقي، حكمدار إسكندرية، عايز يقابلك، هو والمحافظ فتحُم تحقيق واسع في القضية. الدنيا مقلوبة وعايزين يعرفمُ إزاي تنبأت بالجرايم الجديدة.

ـ والمفروض أقول لهم إيه؟

ـ هنشوف لها صرفة، ماتقلقشي. وعلى العموم أنا شددت عليهم إنك مش هتقابل حد اليومين دول، على الأقل لحد ما أعصابك ترتاح.

ثم استطرد وهو يقلب بمعلقته الشاي في الفنجان بشكل متواصل، مصدرًا رنينًا فرض إيقاعًا على أصوات الكمان:

ـ ميرتل بنتي ... هتموت إزاي؟

ـ مش لازم تموت، أنا هنا عشان أمنع ده، ساعدني بس وأنا هساعدك.

ـ أنا مرعوب على ميرتل يا علاء أفندي، بنتي هي أغلى شيء في دنيتي.

أومأت برأسي في شفقة، طمأنته قائلًا إنني ونسخته المستقبلية نخطِّط لكل شيء، وأننا بقليل من الحظ سنستطيع منع مصيبته، ثم ركَّزت على ضرورة عودتي إلى زمني في أسرع وقتٍ حتى أستطيع الترتيب لليلة القادمة، فهزَّ رأسه في فهمٍ وزفرٍ. شرد العجوز مفكرًا في ألف فكرة في آنٍ واحدٍ، وتقديرًا لحالته سكتت ورحت أقرأ عدد جريدة المقطم الذي كان يحمله وأتأمل المقهى من حولي، بمزاجٍ رائقٍ أرتشف الشاي الخاص بي وأنا أراقب من النافذة الميدان الذي ضجَّ بحركة لا تهدأ.

ثم أقبل علينا عجوز نحيف يبدو عليه الحماس، مال بجذعه على بنيامين بعد أن صافح كلًّا مِنَّا قائلًا بالإنجليزية: «سيد بنيامين، الجميع قد حضر الآن، هل نبدأ؟» فأجابه بنيامين بإيماءة رأس كئيبة، ثم التفت ناحيتي وقال محاولًا أن يبدو أكثر مرحًا بابتسامة بسيطة: «النهاردة الأربع، ميعاد اجتماعنا، جمعية (مستنيرين الإسكندرية). عشرات العلماء ورهبان العلم، أدمغة فذة بتجتمع مخصوص،عشان نتناقش في فروع العلم المنسية».

قالها ونقدني عملتين من الإسترليني باللون البرونزي وهو يستطرد: «لو مش حابب تحضر، ممكن تشرب كاس في البار اللي جنبنا». تابعته ببصري وهو يقف في منتصف المقهى الذي تم إخلاؤه تمامًا من الرواد عدا بعض الرجال الأجانب المتشابهين جدًّا في لحاهم البيضاء ونظاراتهم الطبية، والذين جلسوا في وقار مشكلين بكراسيهم خمسة صفوف أمام بنيامين وكأنه مؤتمر علمي صغير. ولما تجمعوا، تنحنح الخواجة قائلًا بالفرنسية وهو يشير للنادل بغلق الباب، كما لو كان المقهى بأكمله محجوزًا خصيصًا لهم:

«أعزائي العباقرة، زملائي من صفوة عقول الأرض. ها نحن نجتمع مجددًا، في أربعاء منير جديد؛ لنسهم في إيقاد سراج مضيء أمام العالم المتخبط في دروب الظلمة، ولمناقشة ما غفل عنه عوام العلماء».

ثم سكت قليلًا وقال بابتسامة بسيطة: «اعذروني عن المناقشة اليوم، فأنا متوعك قليلًا، ليبدأ هاربر باستكمال نتائج أبحاثه حول التنويم المغناطيسي». أنهى كلامه وجلس فقام عالِم وردي الوجه ومستدير الهيئة وكأنه الكرة الأرضية بنفسها ترتدي بدلة ولها تلك اللحية القديمة التي يتصل سالفاها بالشارب فقط ـ والتي تذكرني بالجزارين ـ وبدأ في الكلام، في حين وزَّع النادل أكوابًا من مشروب ساخن أخضر اللون، خمَّنت من رائحته أنه صيني. تحدَّث الرجل متحمسًا حول نظريات التنويم المغناطيسي خاصته التي تخلط بين الفيزياء والأحياء، وكيف أن حالة القمر ونباتات مثل اللافندر والزعتر والثوم يسهمون في التعزيز من تجربة التنويم، وهراء كثير لم أفهم منه شيئًا، ثم قام آخر بعده، أحول وقصير القامة إلى حدٍّ مضحك، وأخذ يتحدث بكل عصبية حول تجارب استحضار الأرواح التي يجريها، وكيف أنه وضع يده على طرف خيط التواصل معهم، المتمثل في مادة جيلاتينية صفراء اللون.

كان الجميع منغمسًا ومستمعًا بما يقال، يرفعون أياديهم ليناقشون أو يعترضون بأدب بين الحين والآخر؛ لذا وعندما وجدت بنيامين غارقًا حتى أذنيه في اجتماعه تسللت بهدوء خارج المقهى، قررت أن أعمل بنصيحته واشرب كأسًا أو اثنين من البيرة، هذا هو كل ما أحتاجه الآن مع أكبر لفافة تبغ في العالم. لحسن الحظ، كانت هناك حانة على بعد خطوات مني، عُلِّق على بابها لافتة بالإيطالية تقول (حانة ألبرتو)*****، فاقتحمتها أملًا في بعض جرعات الكحول، وعلى مشربها جلست وطلبت كأسًا من بيرة (كراون) ثم سرحت بأفكاري في عدة مناطق هجرتها، ملأني هواء الحانة الكسول المُشبع بالدخان ورائحة الخمر ببعض الصفاء فاسترخى عقلي وقبِل بهدوء مراجعة كل الملفات والتحليق فوقها ...

خالتي ودار الأيتام، مثلث الحب والخيانة بين زكريا وأليس وجوستاف، خطوة السَّفَّاح القادمة، وبالطبع إيمي، دائمًا هي إيمي.

انتشلني من أفكاري بكاء طفلٍ صغيرٍ في عمر الثامنة تقريبًا، التفتُّ على إثره لأجد شابًّا أنيقًا في العشرينيات جالسًا على المقعد بجواري يحاول تهدئة الطفل الباكي، مُداعبًا إياه بلعبة

تعتمد على أصابع اليد. كان شابًّا وسيمًا، له عينان ذكيتان وملامح إنجليزية بحتة عزَّز منها شعره الأحمر الياقوتي، وعمومًا شعرت تجاهه بالألفة، وكأني أعرفه أو رأيته من قبل، فوجهه مألوف لدرجة مستفزة دفعتني للاقتراب منه لأفتح حديثًا، قائلًا: «ابنك؟». فأجابني بلكنة بريطانية خالصة:

ـ لا يا سيدي، هو ابن إحدى العاملات هنا، المسكينة تركته لي حتى تستطيع تلبية نداء الطبيعة ...

ـ آسف على الإزعاج، ولكني أشعر وكأني رأيتك من قبل.

مسح الوسيم على رأس الطفل الباكي ثم قال بعدما قبَّل وجنته: «ربما، إذا كنت قد انضممت لجيش جلالة الملك في كوبا أو حاربت في أم درمان، أو عملت في الهند». فقلت وأنا أتجرَّع المزيد من البيرة غريبة الطعم: «حقيقةً لا، ولكني موقن أنني رأيتك من قبل، ربما رأيت والدك أو أحد أعمامك».

ـ تشرشل، وينستون تشرشل.

قالها وهو يمد يده الخالية تجاهي بالسلام فبصقت ما في فمي من جعة بعيدًا، اللعنة! إنه تشرشل الحقيقي بلحمه وعظمه، كيف لم أدرك الشبه بسرعة؟ اعتذرت له وأنا أمد يدي بالسلام، بابتسامة بلهاء قلت: «علاء مدبولي، كاتب ومؤلف روايات».

ـ تشرفت بمعرفتك، ولكني، بكل صراحة، لم أسمع بك في عالم الأدب من قبل.

ـ يبدو أنك غير مُطلع على الأدب الشرقي.

ـ في الحقيقة أنا لست على دراية بأي شيء في مصر، فقدومي هنا هو محض خطأ بسبب السفينة الغبية سيسلي التي أربكت حركة الملاحة، مما أجل عودتي من السودان لوطني.

هي السفينة إذن، وهذا هو الواقع الأصلي الذي كان من المفترض أن يحدث: يمكث تشرشل في مصر بضعة أشهر بعد معركة أم درمان بدلًا من العودة للإنجليز، ربما كان سيقع في حب خادمة مصرية ويستقر هنا ليفتتح دكانًا للعطارة بعد أن يغيِّر اسمه إلى (شيحة)******، ولا حرب عالمية ولا يحزنون. انتزعني تشرشل من أفكاري وهو يناولني الطفل الذي نام على قدمه قائلًا: «أستمحيك عذرًا». فتناولت منه الطفل في حين قام هو بإشعال لفافة تبغ كبيرة،

نفث دخانها على شكل حلقات كسولة في فضاء الحانة. هدهدت الطفل النائم على حجري متأملًا وجهه البريء، شعرت نحوه بتعاطفٍ كبير، فملابسه ممزقة قذرة، ورغم براءته ظهرت عليه شتى أشكال المرض والفقر والحزن، وكأنه ملاك تائه فقد طريقه للفردوس.

ثم أقبلَتْ علينا امرأة نحيلة قصيرة الشعر، جميلة بالرغم من وجهها المتغضن وبنيتها الهزيلة، كانت تمسح يديها في مريلتها البيضاء قبل أن تمدهما ناحيتي طلبًا للطفل بابتسامة حرجة، وأيقنت أنها أمه عندما أخذت تهدهده متمتمة بأغنية ما، ثم كلام لم أفهم منه حرفًا لكن التقطت أذني كلمة (أدولف) مرتين أو ثلاث. عندما ابتعدت عننا مال عليَّ تشرشل وقال ماطًّا شفتيه: «مسكينة كلارا. خسرت كل ما تملك، وجاءت هاربة من النمسا بعد أن منعوها هي وزوجها من دخول ألمانيا».

أدولف والنمسا وألمانيا؟ زويت بين حاجبيَّ في دهشة وفتحت فمي، للحظات لم أنطق وأنا أجمع أجزاء القصة في رأسي؛ فيما يبدو كان هذا وينستون تشرشل الشاب يداعب هتلر( ) الطفل ويقبِّل وجنته حتى يكف عن البكاء، زعيم الحلفاء يحتضن زعيم المحور بكل حنان في مشهد عبثي خالص لم يكن ليتخيله أعتى رسامي الكاريكاتير سخرية!

بين ذراعيَّ كنت أحمل طفلًا بريئًا سيقتل الملايين، ورأسًا صغيرًا سيكبر ليحمل بين طياته أفكارًا وحشية وأيديولوجية نازية لا ترحم. تُرى ما الذي قد يحوِّل ملاكًا كهذا إلى طاغية يشرب الدماء شربًا؟ لا أعرف حقًّا، ولكنها فكرة مرعبة، أن نولد جميعًا بهذا الكم من اللطف والبراءة، برأس أبيض تمامًا، ثم يحولنا الوقت إلى سفاحين وأوغاد برؤوس تلهو الشياطين بين جنباتها.

عندما لاحظ تشرشل نظراتي الحالمة عرض عليَّ لفافة تبغ فقبلتها بصدر رحب ثم أشعلها لي، وينستون تشرشل بنفسه أشعل سيجارة للعبد لله، هذه قصة سأحكيها لتأكيد لأحفادي ليضربوا كف على كف ويقولون لقد جُنَّ حتمًا وتحولت خلايا مخه لمهلبية. ودعته وعدت بعدها لمقهى لوقر، مبهورًا ومنتشيًا من سريالية الواقع، والفارق الضخم الذي أحدثه تغيير بسيط كسفينة رحلات. التاريخ والمصير والزمن، كلها مفاهيم عبثية كلما تعمقت فيها، ونحن مجرد حشرات، حبوب لقاح صغيرة عالقة في هذا البحر العظيم المسمى بالحياة، نطفو على وجهها بكل استسلام لتحركنا أمواجها في أي اتجاه. واهمٌ مَن يظن أنه يتحكم في مصيره

وسط كل هذا العبث، واهمٌ مَن يظن أنه نجح في التخطيط لأي شيء بمحض إرادته، أنت فقط مجرد محظوظ توافقت رغبته مع اتجاه الرياح.

عندما انتهى الاجتماع العلمي صحبني بنيامين ـالذي تحسَّن مزاجهـ في جولة حول بعض أحياء الإسكندرية القديمة متقمصًا دور المرشد السياحي، فكان يشير بغليونه أو عكازه بين الحين والآخر إلى بناية أو شارع حاكيًا بعض التفاصيل: هذا مولد الكهرباء الشهير وهذه لوكاندة بليزانس، صاحب هذا المكتب محام طلياني يتخصص في القضايا الفاسدة، وهذه الأجزخانة هي الوحيدة في مصر التي تصنع دهانًا يعالج الصدفية. كما تناهى إلى مسامعي بعض من حوارات المارة والتي لاحظت فيها تكرار واضح لكلمة مألوفة: (السَّفَّاح)، الجميع كان يتحدث عن القاتل الذي ظهر مجددًا، بمختلف اللهجات واللغات يطرح المارة في الشارع وجهات النظر المختلقة حول أجدد مواد الدردشة، بين خوف أو استهانة أو تعقل، كلهم يختلقون الشائعات.

طالت تمشيتنا في الشوارع الكوزموبوليتانية حتى حلَّ الغروب وتبدلت فيها طبيعة الحركة، سألني عن المستقبل وكيف يبدو فتلعثمت قليلًا ولم أعرف كيف أصف له الإنترنت ولا الحواسيب الآلية، ولكني حاولت، ثم اشترى لنا حلويات عبقرية بالقرفة من محل يدعى (ميخاليدس) وحاول أن يعرض عليَّ شتى الطرق للتنفيث عما كابدته الأسابيع الماضية، فأخذ يرشح لي بعض المسارح والكلوبات التي بدأت لتوها العمل مع حلول الليل، حتى أنه اقترح عليَّ تجربة أحد بيوت البغاء قائلًا بغمزة لم تليق به ولا بالمونوكل على عينه: «مانفسكشي تروح صالة قمار ولا تجرب شلخت؟ ممكن أرشح لك بيت من إياهم، كرخانة ماريكا ممتازة».

ـ شلخت؟

ـ الشلخت هي المومس الأجنبية، والمصرية بنقول عليها عايقة.

مازحته قائلًا: «وانت بتفضل أنهي ؟" فقهقه وأجابني: «أنا ماحبش الكرخانات والكلام الفارغ ده، اللي بيني وبين كلودين مالي عينيا. لكن لو تسألني عن رأيي، البيوت الألافرانكا بضاعتها بريمو، ده غير إنك تقدر تاخد راحتك فيها على الآخر؛ لأن ما فيش حد بيعرف يفتشها غير بإذن من القنصلية».

ـ وتتفتش ليه؟ بيوت الدعارة مرخصة هنا على ما أظن ...

ـ طبعًا لازم تتفتش، افترض فيها حريم مش مترخصين، أو عندهم عيا من أي نوع بطال؟ لكن زي ما قلت لك الكرخانات المصرية هي بس اللي بتتفتش ...

ـ وإيه يعني اللي فرق مصري وأجنبي في الدعارة؟

ـ ماتنساش إن كل ما هو أفرنجي بيتعامل معاملة خاصة، ده قانون الاحتلال في أي مكان، صاحب البلد درجة تانية.

انقطع حديثنا عندما عدنا لعمارة ميرتل، وهناك في المعمل جلست في انتظار الخواجة الذي عمل على إعداد ما يلزم لسفري لزمني. متململًا أخذت أعبث بما طالته يداي من اختراعاته الغريبة، حتى استرعى انتباهي شيءٌ ما، على مكتبه وجدت بقايا قصاصات محترقة ترقد في منفضة نحاسية، كانت تحوي كلمات بخط بنيامين لمحت من بينها اسمي، فشدني الفضول وجذبني من ياقة قميصي حتى أميل على بقايا الكلمات المحترقة وأقرأها، بصعوبة: «خذ حذرك (كلمات مطموسة) علاء ليبتعد (كلمة مطموسة) ميرتل (كلمات مطموسة) بأي شكل».

عقدت حواجبي، فأنا لم أفكر من قبل في قراءة واحدة من تلك الخطابات التي كان يرسلها بنيامين لنفسه معي، ولكن ما الذي قد يجمعني مع ميرتل في نفس السطر؟ هل يحذره مني أم يوصيه بحمايتي؟ دارت الأسئلة بخلدي وأخذت تلف لبعض الوقت قبل أن يقطع بنيامين تتابع أفكاري عندما دخل، كاد يلمحني وأنا أمسك بقصاصة الورق المحترقة لكن كان تركيزه منصبًّا على الآلة التي انهمك في تعديل القرص الخاص بها قائلًا: «اجهز، هنرجعك زمنك حالًا» فألقيت بالقصاصات في المنفضة بسرعة وهو يعبث ببعض التروس قبل أن يراني، ثم قام ماسحًا جبينه بظهر يده وقال: «اتفضل»، فشعرت بانفراجة غير عادية في صدري، أنستني أمر القصاصات تمامًا.

هي الخطوات المعتادة نفسها، أخطو خطوة داخل الخزانة، أسمع تكة غلق الباب، ضوء يبزغ، ثم غشيان لعين يبتلعني قبل أن تبدأ الأعراض اللعينة في الضرب: تميل رأسي وتغرق في قاع الدوار فأوشك على القيء، عبثًا أستند إلى جدران الخزانة محاولًا التماسك، أشهق، يملأ رئتاي هواؤها المكتوم الذي لا يفيد، مكنونات معدتي تتسارع إلى حلقي رغبة في الخروج،

وما أن يخفت الضوء الأصفر أدفع باب الخزانة أملًا في بعض الهواء، أنزل مترنحًا وقد ألقى الصداع في رأسي بفأس يكاد يشقها نصفين، على السجاد الثقيل الفاخر يتدافع ما في جوفي ويسيل، تتبعثر قطراته هنا وهناك وعلى معطفي، ومع ذلك لا أشعر بتحسن، وكأن أحدهم يمسك برأسي ويطوقها، الصداع اللعين يسرح فيها ويصرخ بأصوات استاتيكية عالية. بكُم المعطف أمسح فمي، ألعن، من المفترض أن تخف الأعراض مع الوقت وليس العكس. سيهدأ كل ذلك بعد قليل وسأنام في سريري هانئًا، هكذا قلت لنفسي محاولًا عقد هدنة مع رأسي حتى تكنس تلك الأعراض أسفل أي غطاء، بمعجزة أواصل سيري عبر المعمل وأخرج، ما يهم الآن هو الوصول لباب شقتي بأي شكل، الزحف حتى الأريكة المحيطة والارتماء عليها حتى تلتهمني أمواجها ولا تلفظني إلا بعد أعوام.

على السلم نزلت متلهفًا، فاستقبلتني رائحة الثوم المميزة لطرقات العمارة، ثم تناهت لسمعي أصوات لم أعرف في أول الأمر إن كان مصدرها داخل دماغي أم خارجها: شجار وصياح، وخبطات غاضبة مكتومة تأتي من شقة بنيامين. لم أقوَ على التركيز بسبب ضغط الصداع على عيني، ولكن مع اقترابي من الباب الخشبي سمعت بكاءً حريميًّا وأصوات رجولية تتكلم في يأس، أصوات ماري وبنيامين وجوستاف.

كل ما استطعت سماعه كان: علاء لم يعد بعد، ولن يعود على الأرجح، ماتت ابنتي وانتهى الأمر، سأنسحب من كل هذا، لم أعد أتحمل، كانت تلك هي كلمات ماري وصرخاتها التي احتوت على قدر عال من الهيستيريا الباكية، بينما كان بنيامين يجادلها حول الحل الأمثل الآن، يحاول تهدئتها فترفض قائلة أنها خسرت كل شيء للمرة الثانية. لم أفهم حرفًا مما قيل لكن تأكدت شكوكي حول أمومة ماري لميرتل، ولما حاولت سماع المزيد باغتني الصداع أكثر، ارتفعت حدة أصواته في رأسي كصافرات الإنذار وبالكاد تلقف سمعي بعض الكلمات الفرنسية بصوت بنيامين: الجبن والصبر والخطة والتضحية.

كلمات تحتاج لسياق ليفسرها ولكنها على الأرجح تعني شيئًا غير مريح أجبرني على مواصلة الاستماع.

تعالت أنفاسي وأنا أحاول التركيز، أمسكت رأسي بكلتا يدي عندما دكها الصداع مرة أخيرة، ثم سكتت أصواتهم بغتة فابتعدت عن الباب، متعثرًا سقطت على ظهري فخيَّم الظلام وغطى

رؤيتي، وبين الوعي والنوم فلتت المزيد من الأصوات إلى عقلي قبل أن ينغلق تمامًا: صليل مفاتيح، شهقات، اسم البغل المدعو عثمان، ونبرات قلقة جدًّا، وصمت.

***

مراهنات الفئران: صارت موضة جنونية في صيف عام ١٨٩٨ (س.م.ت)، تشبه مصارعة الدِّيَكَة لكن يتم الرِّهانُ فيها على مصارعة دموية بين الفئران.

مقهى اللوفر: تم افتتاحه في شهر مارس (س.م.ت) لمرابي يهودي يُدعى إبشالوم النحاس، واكتسب شهرة خاصة بعدما تناولت فيه الأميرة إقبال هانم حرم الخديو عباس حلمي الثاني حلويات الميلفاي لأول مرة فأسرتها تمامًا حتى أنها أشادت بحلويات اللوفر في إعلان خاص بجريدة الوقائع المصرية، وأجبرت الخديو على إصدار فرمان رسمي يعلن فيه تغيير اسم الصنف من ميل فاي إلى (فطيرة إقبال)، وتجريم كل من يطلق على الصنف اسم ميلفاي.

حانة ألبرتو: لصاحبها ألبرتو دي روسي، مهاجر طلياني جاء إلى مصر على متن سفينة سيسلي سنة ١٨٩٨ (س.م.ت)، ولكن بنهاية السنة تم القبض عليه بتهمة الغش التجاري بعد اكتشاف تخفيفه للبيرة بخليط من عصير القصب والبول، ويُقال إن زوجته هي من أبلغت عنه بالاتفاق مع عشيقها

أدولف هتلر: بحسابات (س.م.ت) هو فنان ورسام نمساوي/مصري هاجر من النمسا إلى مصر ليكبر ويترعرع في حي الظاهر، ويتزوج من الفنانة المصرية اليهودية كاميليا.

- 14-

الشك نبتة شيطانية بامتياز، فهو صالح للنمو في كل فصول السنة، وأي نفس بشرية هي تربة خصبة له. ما أن ينثر أحدهم بذور الشك في صدرك حتى تصل جذوره فورًا لأعمق نقطة بداخلك، بسرعة وخبث تنمو نبتته ولا تسكت أوراقها عن الفحيح داخل عقلك المسكين. بالفعل بذرت قصاصات الخطاب المحترق بذور الشك في صدري، وروتها بالماء همسات الاجتماع الخاص لسكان العمارة، هم يخفون عني أمرًا ما، أو على الأقل لم يلقنونني الحقيقة كاملة حتى الآن.

كما تغذت أيكة الشك بداخلي بحقيقة أن ذاكرتي لم تفلح في استعادة ما حدث في تلك الليلة الضبابية، فمن بين كل ذلك الصداع فشلت في استخراج أي شيء سوى الأحاسيس، طعم القيء المر وأصوات النواح الحريمي وملمس البلاط البارد، ثم بمرور الوقت طُمست تفاصيل الحادث في رأسي رغم تشبثي جاهدًا ببعض منها وتدوينه في مفكرتي (الخطة ـ ابنتي ـ التضحية)، حتى تناسيت تمامًا ما حدث في نهاية المطاف عندما أدركت أنه كان في الأغلب حادثًا عارضًا مخلوطًا بهلوسات السفر الزمني.

ولكن رغم تقبلي للحادث وتناسيه، أثَّرت الواقعة على علاقتي بجيراني بشكلٍ ملحوظٍ في البداية، فعلى سبيل المثال، زارني بنيامين بصحبة هنري زوج أخته في اليوم الذي تلى عودتي، أخبراني أنني فقدت وعيي ليلة أمس وأن عثمان حملني لشقتي ثم سألوني في لهفة عمَّا حدث فأجبتهما إجابات مقتضبة تشي بوضوح بأني منهك ولا أرغب في الحديث، لم نمسك بالسَّفَّاح وماتت الشابات ودخلت السجن، ولن أجيب عن المزيد حتى تخبروني بما يحدث خلف ظهري، بالطبع قلت الكلمات الأخيرة لنفسي، ولكنني وددت لو قلتها علنًا. آسفًا اعتذر لي بنيامين وبحنوٍّ رَبَت على كتفي، قال كلامًا معتادًا عن كونه يعي صعوبة الأمر وأنه يحمد الله على عودتي سالمًا، هو آسفٌ بشدة وهذا يظهر في صوته بوضوح، لكن ظلَّ هنري واجمًا وكأنه لا يهتم بتعبي ولا يقبل به حجة؛ لذا رمقتهما متبرمًا ثم سعلت متصنعًا كي يتركاني، كنت أريد وقتًا للراحة، والمزيد من الوقت ليستعيد رأسي توازنه وتشكِّل الحروف المبعثرة في جعبتي كلمات واضحة.

وكأن هناك اتفاقًا ضمنيًّا على منحي إجازة، لم يتحدث معي أي منهم عن المهمة لحوالي عشرة أيام، عشرة أيام أمضيتها في شقتي على الأريكة البحرية، أمارس ما أحب من عادات وأسكنها: أقرأ وأسقي النباتات وأغلي القهوة، أنقر أزرار الآلة الكاتبة وأمتص النيكوتين وأستمع للسمفونيات، أوقات كانت من الأفضل في حياتي كلها على الإطلاق وأكثرها سلامًا بعد مغامرتي الماضية، فالسكون كان جذابًا والملل صار ساحرًا بعد رؤية كل تلك الدماء والجثث. وحيدًا أمضيت إجازتي الصغيرة، بلا مقاطعة سوى من زكريا وإسحاق، فأحيانًا كانا يزوراني بصحبة جوستاف الذي يأتيني بطعامه وأعشابه الخاصة وتبغه المخصوص لنمضي الليل في لعب الشطرنج والحديث. عدا تلك الزيارات المعدودة لم أختلط بأحد، حتى بنيامين نفسه لم يزرني إلا مرة أو اثنتين دون الحديث عن الماضي، فقط عن الحاضر والمستقبل.

وعلى ذِكر الحاضر وأخباره، فوجئت بالنجاح الهائل لمخبز (أليس) وزكريا، فحكى لي الأخير ونحن نشرب الينسون في شرفته عن الأعداد المتزايدة من الزبائن، أشار لي في خبرة وكوب الينسون في يده قائلًا إن رائحة مخبوزات (أليس) لا تحتاج إلى دعاية، وأنها أفضل من ألف لافتة وملصق دعائي في الشوارع، وأن (أليس) نفسها بمرور الوقت تتحمس وتبدع في إنتاجها أكثر، كما أخبرني مقهقهًا أنه صار ضليعًا في عد نقودنا والتعامل مع الأفندية غريبي الأطوار. على الرغم من معرفتي قصيرة الأمد بزكريا فأنا أحبه وأحب مرحه وبساطته، أرتاح في الكلام معه حول الماضي والطعام، وكأنه صديق قديم لا أجد حرجًا ولا غضاضة في البوح له بمكنونات صدري، مما أشعرني طوال حديثنا بصراصير خفية تفرك أرجلها في عقلي، بإلحاح، تريدني أن أخبره عن (أليس)، ولكني كنت أدهسها بقدمي في هدوء احترامًا للسيدة التي لم أرَ منها أي سوء، وتقديرًا لضعف النفس البشرية، ورغبة مني في عدم تكدير صفو حياة هادئة.

كما ساعدتني الإجازة على إنجاز جزءٍ كبير من الرواية الجديدة، التي كنت أسكب فيها كل ما اختبرته سكبًا فتنساب عليها التفاصيل بسلاسة، مشاهد بعينها وأصوات أصلية توحي للقارئ بأن هذا الكاتب متمكن وكأنه عاصر تلك الفترة بكل تأكيد، قررت أن أستلهم ما يحدث معي وأكتبه في الرواية بلا أي فلسفة أو اختراعات، هذه المرة أنا البطل وسأكتب قصتي، سأسطرها بعرقي وبمجهودي بدلًا من الحبر. البطل مثلي، البطل أنا، كاتب يبحث عن

رواية جديدة، ثم يزوره جيران جدد غرباء الأطوار، رجل عجوز وبناته الأربعة، وبعد عشاء غير متوقع يعرض عليه رب الأسرة العودة إلى ماضيهم لينقذ ابنته الخامسة، وما عدا ذاك فكل التفاصيل متطابقة، يعود البطل في الماضي، يفشل في الليلة الأولى ويتم حبسه في القراقول، يهدد المأمور في الليلة الثانية ويعود إلى زمنه، وإلى هنا توقفت.

عند زيارة بنيامين الثالثة كنت أعرف أن إجازتي قد انتهت، فالوقت يمضي وعقارب الساعة لا تعترف بحالتك النفسية؛ لهذا لم يحتج إلى أن يطلب مني التركيز مجددًا، ومن تلقاء نفسي حكيت له كل ما حدث. استمع إليَّ بتركيز فائق سانداً ذقنه إلى كفيه المضمومين، يمط شفتيه بين الحين والآخر أو يضيِّق عينيه، وعندما انتهيت اعتذر لي مجددًا في أدب، ثم حدَّد لي الساعة السابعة من مساء اليوم كموعد اجتماع مع هنري من أجل السفرية القادمة.

أوراق وصحف وصور، كان كل شيء مُعدًّا عندما وصلت، وبسرعة غُصت في تفاصيل الليلة الثالثة. كالعادة، ثلاث جرائم تحدث في الليلة الثالثة، والثلاثة وقعوا في الإبراهيمية:

1ـ سارة جيكوب: رسامة إنجليزية تابعة لبعثة أثرية ...

2ـ ماريا ميخاليديس: الابنة الصغرى لتاجر قطن يوناني كبير ...

3ـ شحتة الجدر: موظف مصري بشركة للاستيراد ...

شحتة هو الخلل في منظومة السَّفَّاح والنشاذ الوحيد في سيمفونيته، رجل واحد من بين إحدى عشر فتاة، كيف ولماذا؟ أخبرني بنيامين أنه بحث عن أي مبرر ممكن لكي يوافق شحتة نمط السَّفَّاح لكنه فشل، وقال هنري إن كل تحرياته في هذا الشق قد وصلت إلى زقاق مسدود، شحتة موظف حكومي أمهق يعيش بصحبة أخيه وأمه، لم يتزوج حتى، وإيقاع حياته رتيب كأجراس الأديرة. هناك لغز يحيط بشحتة أعمق مما يحيط بأولئك الشابات.

ثم أخبرني بنيامين وهو يكتب ملحوظة هامشية أن هذه ليست الفجوة الوحيدة، يرفع عينيه الضيقتين ويقول بشرود: «انت حكيت لي حاجة عجيبة، السَّفَّاح لما قتل صوفيا في الليلة التانية، المفروض قتلها بالطريقة المعتادة، بس انت بتقول إنه النوبة دي بعت رسالة في تذكرة تياترو، وده محصلشي النوبة اللي فاتت!».

فأهز كتفيَّ وأمط شفتيَّ، إذا لم تفهم أنت أيها العجوز فهل تتوقع مني أن أملك تفسيرًا؟ أسأله عابثًا بأحد أقلام الحبر: «والتغيير ده معناه إيه؟»، فيقابلني بصمتٍ لا تقطعه سوى دقات الساعة وأصوات الأوراق التي يقلبها هنري، قبل أن يجيبني أخيرًا: «التغييرات دي كلها بتشاور على إنك ممكن تكون اتسببت في أثر اليعسوب من جديد، إنقاذك للحرمة عديلة ممكن يخليه يتغير، يبدأ ينوَّع في طرقه وأساليبه، أو ربما دي تكون حالة فردية، والأثر مش كبير».

أثر اليعسوب من جديد، يبدو هذا مثيرًا للاهتمام ولكني ـ والحمد لله ـ شُفيت من حُمَّى الحماس التي أمرضتني في البداية وغدوت الآن أكثر تعقلًا، صحيح أنا البطل وأنا الفارس الذي سيكسر كل الفِخاخ ولكني أيضًا لحم ودم وأكثر من مجرد فصول في قصة، فلا داعي للحماس الزائد ومرحبًا بالقلق وقليل من التشاؤم. وبقليل من التشاؤم والكثير من الكافيين عكفت على مذاكرة الليلة الثالثة بضمير، حتى استهلكت كل مخزوني من الطعام والسجائر، فخرجت للتبضع والتمشية على البحر.

عند عودتي محملًا بالأكياس استوقفتني رائحة غريبة على السلم، دقَّقت تركيزي قليلًا فاشتممت من شقة السيدة ماري رائحة بارود قوية تعبئ الممر، ثم سمعت بكاءها المميز منبوح الصوت. شعرت بفضول قوي يتضخم في معدتي ويحركني للأمام، بدون مقدمات، صحيح أنني أريد مواساتها، لكني أيضًا أريدها أن تواسي فضولي تجاه ما سمعته في تلك الليلة الضبابية، ما الذي فقدتيه يا ماري للمرة الثانية ولماذا تبكين؟ هل ميرتل هي ابنتك فعلًا؟ هل هي نتاج علاقة محرمة مع أخيك بنيامين بدلًا من زوجته العاقر؟

بمسحة من التوتر دُرت حولي كي أتأكد من عدم وجود من يراقب خطتي وليدة اللحظة، ضغطت على جرس الباب بذقني وابتعدت خطوتين عن الباب راسمًا ابتسامة مصطنعة، ثم سمعت رصاصة تدوي من الداخل! سقطت الأكياس من يدي في فزع وكدت أهرب إلا أن الباب انفتح، ومن خلفه ظهرت ماري الباكية التي اتسعت عيناها في دهشة ثم قالت متلعثمة: «إزيك آلاء. اتفضلي اتفضلي».

أفسَحَت لي الطريق فدخلت خلفها، مهزوزًا سألتها عن الرصاص فسألتني باستغراب (أي رصاص؟) ثم نادت مسرعة على قطتها (فانيا) لتضع لها طعامًا في طبقها، أتكذب ماري أم

أتوهم؟ صوت الرصاصة كان واضحًا، لكنه قد يكون أيضًا صوت ارتطام أو اصطدام.

على كل حال، جلسنا في غرفة معيشتها ومن حولنا مواء ١١ قطة تتحرك في المكان وتتمسح في صاحبتها التي كانت ترتدي فستانًا أزرقَ رقيقًا بنقشة زهور سماوية جميلة، وعلى وجهها مسحة من بؤسٍ واضحٍ لم ينجح في طمس ما تبقى من جمالها.

بغرابة شديدة تجاهلت السيدة وجودي، وجلست شاخصة ببصرها عبر النافذة إلى غيوم السماء، وكأني لست هناك. تنحنحت مرتين فلم ترد، سألتها عن زوجها فأجابتني بدون أن تلتفت أن هنري نائم، ثم ساد صمت بارد رمادي مثل الغيوم بالخارج، ومعه اتسعت فجوة بيني وبينها، حتى شعرت بها هوة سحيقة، فقررت أن أستجمع قواي وشجاعتي وسألت: «انتي كويسة؟».

إيماءة رأس صامتة، فارغة، تعني أي شيء سوى أنها بخير.

ـ مدام ماري أنا عارف إنك مش كويسة. اسمحي لي اعرف فيه إيه، يمكن أقدر أساعدك.

لم تحوِّل بصرها عن النافذة متجنبة رؤية وجهي، لكن كانت يدها الموضوعة على الكرسي، بوضوح، ترتعش. ما الذي فقدتيه يا ماري وجعلك مدمرة إلى هذا الحد، حتى صرتي حديقة مهجورة ذبل زرعها؟ أنت روح لا تبتغي إلا الموت.

ـ ليلة ما رجعت، قبل ما يغُم عليا، سمعتك بتقولي إنك خسرتي كل حاجة لتاني مرة، قصدك إيه؟

التفتت إليَّ أخيرًا، بوجهٍ متعبٍ ارتعشت شفتها السفلى ومن عينيها تدحرج الحزن السائل بغزارة كالمطر، أخبرتني ببرود أنها لا تريد الحديث وأنني غير مرحب بي في غياب زوجها، وهو ما كان له وقع دلو ماءٍ باردٍ يُصبُّ على رأسي؛ لذا، محرجًا تفوَّهت ببعض الكلام الفارغ عديم المعنى ثم قمت من على الكرسي أحمل أكياسي وإحراجي، قبل أن يلفت نظري على المائدة مسدس فاحت منه رائحة البارود، أنا لا أتوهم، كانت السيدة ماري تحاول الانتحار لكن أنقذها رنين الجرس... أيًّا كان سرك يا ماري فقد صرتُ أكثر فضولًا لمعرفته.

وأخيرًا حلَّ يوم السفر الأول، قبل أسبوعين من تاريخ القتل، بعدما أعددت مع بنيامين خطة جديدة تعتمد على سفري مرة قبل ليلة القتل الثالثة، من أجل الترتيب مع ضبطية الإسكندرية

وإحكام قبضتنا على السَّفَّاح، بما إنهم علموا بأمري.

أرتدي الملابس القديمة في معمل بنيامين، أقرأ لمرة أخيرة تعليمات الجزء المطلوب من الخطة، ثم وثبة داخل الخزانة، ضوء يومض، بعض الدوار و... وصلت.

***

- 15-

العام 1898

(السنة المفقودة من التاريخ)

هل تعرف ذلك الإحساس المقبض الذي يصيبك قبل سفرية مشؤومة أو مشوار كارثي؟ الإحساس الرمادي غير المبرر بمشاكل ما تتشكَّل في الأفق، ثم تتحقَّق فعلًا؟ الآن على الأقل صرت أعرفه بعد ما راودني منذ وطئت قدماي أرض (س.م.ت) تلك المرة.

في البداية سارت الأمور كما خططنا لها، فاجتمعت بمجموعة من عناصر ضبطية الإسكندرية تدعى فرقة كلاب الصيد، وهي مجموعة خاصة تم تشكيلها لمطاردة السَّفَّاح والتحقيق في أمره، تتمثَّل في حكمدار الإسكندرية هاريسون باشا وبعض الضباط الإنجليز ذوي الرتب، مع فريق من الكونستابلات الخبراء بدواخل المدينة، وضابط الغبرة مأمور قسم المنشية ذي الندبة الطولية (حسن سلامة)، بالإضافة لي أنا وبنيامين والمحافظ.

حسب كلام الخواجة لم يشكِّل الحكمدار مصدر قلق لفكرة وجودي دون تفسير أو أوراق، فالرجل صديق مقرب له، وهو ما ظهر في عناق قوي ومصافحة متينة بينهما أشعل بعدها الحكمدار السيجارة لبنيامين بشكل ودي وتناقشَا حول صحة الأبناء والزوجات. ورغم عدم تعاملي مع هاريسون باشا من قبل لكنه بدا لي شخصًا جديرًا بالاحترام، إنجليزي لا ريب فيه تظهر إنجلوساكسونيته في وجهه الطويل وأنفه الحاد، وصمته البارد الذي لا يقطعه سوى لقول كل ما هو حاسم، فكان ساكتًا أغلب الوقت لا يتحدَّث إلا بعينيه فقط، يجيب أسئلتي أو يلقي أسئلته بعينين رماديتين من تحت حواجب بيضاء كثيفة. كان لبقًا ومتزنًا باستثناء كونه يتجرَّع رشفة من قنينة خمر كل بضع دقائق، بطريقة دفعتني للتساؤل: ألن يسكر ويفقد صوابه في أي لحظة مهددًا جميع من في الغرفة بالقتل؟

كان اجتماعي بهم جيدًا في أول الأمر، فاستمعوا وأصغوا لكل حرف أتفوَّه به وكأنه كتاب مقدس، عُقدت الأذرع وانعقدت الحواجب وضُمت الشفاه، الجميع متوتر وخائف ويتعلق بالقشة الأخيرة المتمثلة في الرجل الغامض الذي ظهر من اللامكان. لم يملكوا سوى

تصديقي والإيمان بي، فالشوارع بالخارج تضج ذعرًا والبيوت مملوءة رعبًا، الإسكندرية في حالة من الفوضى المكبِّلة لكل شيء بعد انتشار أخبار السَّفَّاح وشائعاته، والكل ينتظر الضحية القادمة وليلة الرعب الآتية. حول الطاولة أخذت أشرح للجالسين المفترض وقوعه، بالتاريخ والعناوين، ولكن لم يطل شرحي كثيرًا على أي حال لأن الحكمدار قاطعني بلكنته الإنجليزية الفخمة: «ألا تشم رائحة چاك السَّفَّاح؟ ثمة تشابهات فجة بين الاثنين».

بالفعل كانت هناك تشابهات واضحة بين سفاحنا وبين چاك، السَّفَّاح الأشهر في تاريخ بريطانيا والعالم، دعنا لا ننسى أيضًا أن عديلة نادت الاسم (چاك) عندما كانت تلفظ أنفاسها بين ذراعي، فهل هي مصادفة؟ ربما يكون قاتلنا هو چاك السَّفَّاح فعلًا وقد أتى هاربًا من بريطانيا في (س.م.ت)، أو ربما هو مريض آخر تأثر بأسلوبه وسرق اسمه، الفكرة الأولى كانت مثيرة ولكني حقًّا لا أعرف الحقيقة، وهو ما قلته لهاريسون محرجًا، فأشار لأحد معاونيه بيده إشارة ذات مغزى، ثم قال بهدوء: «قبل أن نقفز للاستنتاجات هناك شيء عليك أن تراه أولًا».

ناولني معاونه حافظة جلدية تحتوي على رُزمة من جوابات كثيرة، فالتقطت واحدًا من بينها بعشوائية وقرأته بصوتٍ عالٍ، كان كاتبه يقول إن هذا هو سفاح كرموز، وأنه سيقوم بذبح الأميرة إقبال حرم الخديو عباس حلمي إذا لم يذعن الأخير لطلبات الباب العالي في إسطنبول. ثم سحبت خطابًا آخر يدَّعي كاتبه أنه المهدي المنتظر ويصف عملية الاغتصاب بالتفصيل بأبيات شعرية مقفاة، وثالث كان في شكل بيان من منظمة (عصبة الدماء النقية) التي تتبنى مسئوليتها عن الجرائم وتهدد بالمزيد إذا لم يتم جلاء الإنجليز عن مصر، هذا غير الخطابات الأخرى المجنونة، المقرونة برسومات غريبة أو مواعيد مزيفة.

بابتسامة أزحت الخطابات كلها جانبًا، استمعوا إلى كلامي أيها السادة وأنصتوا إلى الحق، هناك خطاب واحد حقيقي سيأتي من السَّفَّاح الليلة، مذيلًا بالحرفين «ج. ج»، سيشكر فيه أفراد ضبطية الإسكندرية على مجهوداتهم عديمة الفائدة والتي جعلت منه نجم مجتمع في الصحف، ثم سيبلغهم بموعد الليلة القادمة، الثلاثاء الثاني من شهر نوڤمبر.

بالطبع طالتني نظرات مرتابة وأخرى متشككة تتسائل كيف يعرف هذا الغريب تلك الأسرار وكأنه أتى من المستقبل؟ فإما أنه صاحب كرامات أو نصاب متواطئ مع السَّفَّاح، ولكن لم

يكن هناك وقت للتشكيك أو التساؤل في خضم الخوف العارم. بعد عرض شيق عدت لأجلس في مكاني، تاركًا المكتب يسبح في أمواج كثيفة من الصمت والنظرات المعقودة، حتى قام هاريسون باشا من مجلسه، خلع طربوشه القرمزي ووضعه جانبًا فظهرت من تحته صلعة وقور كُللت ببعض الشعر الأبيض، ثم قال بعد أن أخذ رشفة من قنينته المعدنية: «أيها السادة، نحن نمر بأوقات عصيبة للغاية ولن أسمح بمزيد من التجاوزات، بدءًا من الآن سنقوم بتفتيش كل حي وبيت، سنقلب كل حجر بحثًا عن ابن العاهرة هذا».

فقال (حسن) المأمور بإنجليزية رديئة مفتتة إلى ألف قطعة: «لا أرى نفعًا من هذا التفتيش، فالسفاح لن يرتدي لافتة على صدره تقول أنا القاتل، في رأيي يجب أن نقوم بإعداد كمين مكثف له». وبضربة غاضبة على سطح المكتب أجابه الحكمدار وهو يصيح قائلًا: «هراء! أنتم فقط حفنة من الكسالى المتراخين» فنثرت ضربته التوتر في الهواء من حولنا، وعلى إثرها تقلصت الوجوه وكُتمت الأنفاس، وحتى أنا شعرت ببعض الخوف يتسرب إلى مثانتي تحت سطوة صوته الجهوري، إلا أن المأمور قال في شجاعة:

ـ وهل ترى يا جناب الحكمدار أن هذا الأمر لن يخلو من البولوتيقة وتعقيداتها؟ ماذا لو كان أجنبيًّا يختبئ في قصر من القصور الفارهة خلف صفٍّ من الخدم؟ هل سنفتش هؤلاء أيضًا أم أن الأمر مقتصر على بيوت الصيادين والموظفين من أهل البلد؟.

ـ أقسم بالمسيح أنه لو كان الملك إدوارد السابع شخصيًّا سأضع القيود في يديه بنفسي وأقوده لمنصة الإعدام.

قاطع كلمات هاريسون دقات متتالية منزعجة على الباب الخشبي، وبسرعة فتح أحد معاونيه الباب فرأينا على عتبته كونستابل إنجليزي ممتقع الوجه، هربت الدماء من وجهه لسبب وجيه، فبين أيديه كانت عربة خشبية ذات ثلاث عجلات، من النوع الذي ينقل البضائع الصغيرة، لكن كانت الحمولة عليها مختلفة: كبش بقرون ضخمة، مذبوح ينزف دماءً طازجة من رقبته، ومن فمه برزت رسالة باللون البنُي، رسالة أعرفها جيدًا. قال الكونستابل الممتقع الوجه: «وصلنا هذا الطرد للتو إلى قراقول العصافرة ... من السَّفَّاح».

دكَّت كلماته سياج الهدوء القائم فقمنا جميعًا على الفور واحتشدنا حوله في غوغائية، وعندما اقتربت منه كانت تفاصيل الحمولة أوضح: على فراء الكبش الأبيض رُسمت العلامة

الخاصة بـ(جاك) بالدماء، وعلى طرف كل قرن من قرونه ثُبِّتت عين بشرية. وبينما تأوه الجميع أو كاد يتقيَّأ لم أتأثر أنا ولا المأمور، اعتدنا رؤية الدماء والأعضاء البشرية كرؤية الطماطم في طبق السلطة، لكن كانت مشكلتي الوحيدة فقط، أنني لا أذكر وجود أي كبش أو حيوان مرفق مع الرسالة! بسرعة التقطت أناملي الجواب من فم الحيوان النافق، فتحته على عجل بعد أن وقفت أسفل أقرب مصباح حتى أبهرهم، حتى تتحقق نبوءتي الأخيرة ويؤمن بي منهم كل من كفر، وبصوتٍ مرتفع أخذت أقرأ الجواب ذا الخط الرديء والعربية الركيكة، والذي حفظته مسبقًا:

«عزيزي هاريسون باشا ...

كيف حالك أيها الكلب العجوز؟ أكتب إليك هذا الرسالة من بيتي، لا أختبئ ولا أتسلَّل مثل فئران في جحورها، رجل شجاع، هيه؟

في البداية أريدك أن تشكر كل فرد من مجموعتك الرائعة في ضبطية أليكساندريا على بحثهم الفاشلة ومجهوداتهم عديمة الفائدة، وتسريبهم الشائعات للصحف التي نسجت حولي أساطير كالكونت دراكولا.

أكتب إليك لنلعب لعبة جديدة: سأحدد لكم ليلت العرض القادم، ال ... ...»

قطعت قرائتي السريعة المتحمسة للجواب فجأة، توقفت وأخذت أمر بعيني على السطر مرة واثنين حتى أتأكد من أنني قد قرأته بالشكل الصحيح، فهنا اختلف الخطاب، بدَّل وأضاف بعض الكلمات والجُمل التي لم تكن موجودة في الخطاب الأصلي، وهو ما أخل بتوازن تفكيري قليلًا وجعلني أخفض صوتي وأنا أكمل قراءة:

«أكتب إليك لنلعب لعبة جديدة: سأحدِّد لكم ليلت العرض القادم، الثلاثاء الثاني من الشهر ـ ليلة ممتاز لحصد الأرواح ـ ولكن أين ستُذبَح العذراوات؟ أجب أنت.

أخيرًا وليس آخرًا، بالتأكيد وصلكم قبل هذا الخطاب عشرات الرسائل الكاذبة وسيصلكم بعده المئات؛ لذلك أرسلتو داخل هذا الطرد اللطيف دليلًا بسيطًا ومرشدًا حتى تتأكدو من أنه أنا.

بإمكانك أن تنشر كواتك في كل شارع وحارة من حواري أليكساندريا، ولكني أعمل في ظل كوة أعلى منكم، الحمل يحرسني ويؤيدني في خطتي.

حبي وقبلاتي، ج.ج»

ضربنا جميعًا شلل تام، فلم يتحرك سوى الحكمدار الذي شمَّر عن ساعده الأيمن ثم دسَّ ذراعه في فم الكبش، مدَّها ليبحث داخله عن الدليل والمرشد المذكور في الخطاب، حتى توقف عن العبث بأحشاء الكبش النافق وخرج بذراع مخضب بالدم، وفي يده كان يحمل قلبًا بشريًّا، قلبًا مطعونًا رأسيًّا بخنجر فضي، وعلى جداره حُفر حرف (S) بالإنجليزية، وحوله لُفَّت ورقة صغيرة كرباط معقود تشبه الرسومات المسيحية في القرون الوسطى، فكها هاريسون ثم قرأها بعربية ناعمة: «سأغرس سيفي في قلب القديس ليسبب سكتة دماغية بالرأس».

في أول الأمر عمل الجميع على هضم المفاجأة، ثم بدأت همهمات تتعالى بين نقاش جانبي أو سؤال حائر:

«والآن يتحدَّث بالأحاجي والألغاز، هل يظن نفسه روبن هود اللعين؟».

«ربما يلمح لكنيسة القديس مرقس بالعطارين، فهي رأس القيادة الدينية المسيحية».

«رأس؟ أكيد قصده رأس التين!».

وكراكب سفينة تقترب من إعصار، بدأ الذعر بداخلي يتكوَّن ويجثم، لم يكن هذا هو المتن الذي حفظته ولا الطرد الذي حكى لي بنيامين عنه، فالخطاب الأصلي لا يحتوي على ألغاز ولا قلب ولا كبش، كما لم يأتِ على ذكر أي شيء عن الحمل الذي يؤيده! وهو ما طرحه هاريسون معقود الحاجبين وهو يمسح ذراعه من الدماء، فقال:

ـ هُوَ ذَا حَمَلُ اللهِ الذِّي يرَفَعُ خَطِيةَّ الْعاَلَمِ

ـ حسن سلامة: ما هذا؟

ـ هاريسون: آية شهيرة من الكتاب المقدس، يرمز الكتاب المقدس للمسيح بالحمل في الكثير من الأجزاء.

ـ حسن: هل تقصد أن القاتل متطرف ديني إذن؟

ـ هاريسون: بكل تأكيد، قد يكون من مهاويس المورمون أو الأدفنتست. قد يكون من البروتستانت الذين يكرهون العذراء لهذا يقتل العذارى! أليس كذلك يا مستر علاء؟

م طَّ م ستر علاء شفتيه في عد م معر فة، وق ال محافظ الإسكندر ية مح مود باشا متو ترًا بالسيجارة في فمه: « ربما يقصد خروف ا لفصح لدى ا ليهود، قد يكون يهوديًّا م تعصب أيضًا».

ـ هاريسون: لنبحث في كل الكنائس ودور العبادة إذن.

كلام جميل ولكني لا أتذكر على الإطلاق انتماءه لأي جماعة دينية، فلم يذكر بنيامين هذا ولم تذكره تقارير الشرطة بعد هروبه، ما هذا العبث إذن؟! هل بدأ ذلك اليعسوب بتحريك أجنحته وتغيير كل شيء؟ بصوت تخلَّت عنه الثقة قلت متصنعًا التعقل: «يمكن، بس بلاش تسرع». فقال أحد الضباط الإنجليز من ذوي الرتب العالية:

ـ ماذا عن القلب والرأس؟ بالتأكيد يقصد رأس التين ...

ـ أجبت: لا، ستتم الجرائم في الإبراهيمية ...

ـ الضابط: ولكن الكلمة واضحة، ر ـ أ ـ س، رأس ...

ـ لا يبدو هذا منطقيًّا ...

ـ الضابط: ألا تستطيع القراءة؟

ـ لن يخبرنا بالمكان بتلك السهولة ...

ـ لا داعي للفلسفة، الأمر واضح ...

ـ ليست فلسفة. أنت الذي لا تفكر ...

ـ هي كلمتي مقابل كلمتك إذن أيها المصري؟

ـ أنا متأكد مما أقول ...

ـ ما دمتَ متأكدًا وتعرف الضحايا القادمين، بالاسم، فلماذا لا نحذرهم وننتهي من أمره؟

ـ لأنه سيقتل غيرهم ببساطة. نحن نملك المكان والموعد وهذه فرصتنا الأكبر للإيقاع به وإعداد فخ، قبل أن يعيث فسادًا ويقتل مرات ومرات أخرى ...

ـ ألا تجدون الأمر مريبًا يا سادة؟ إنه يعرف أكثر من اللازم، ربما هم شركاء بعد كل شيء.

بسبابته أشار إليَّ، قالها وهو يقترب ببطء كحيوان ضارٍ على وشك الانقضاض على فريسته التائهة، التي تراجعت خطوتين للخلف وانكمش جسدها. بالفعل كانت معرفتي بكل شيء هي سلاح ذو حدين وأنا قد أخذت ألوِّح به يمينًا ويسارًا كالمخمور حتى كاد يقطع نصله شرياني السباتي، وما قاله الرجل هو ما يدور في أذهان معظمهم على كل حال.

تلعثمت قليلًا قبل أن يوقفه المأمور (حسن سلامة) ويبعده عني بهدوءٍ صارمٍ، بينما تدخَّل بنيامين قائلًا في لطف: «علاء أفندي عنده موهبة روحانية، وسيط روحاني بيعرف يتواصل مع الموتى».

نعم، بالفعل يا سادة أنا وسيط روحاني، أنا تنين مجنح أو رغيف حواوشي، أنا أي شيء سوف تسلمون بوجوده بدون أسئلة. وبفضل كلمات بنيامين تراجع الضابط المهدد وخفتت نظرات الحضور المشككة، فابتلعت ريقي ورمقتهم بكبرياء زائف وأنا أعود مجددًا لدائرة الضوء تحت المصباح، وإن كان بداخلي قد اضطرب البرج العاجي الذي أعتليته واهتزت أساساته قليلًا، في كلمات الخطاب الجديدة ما يدعو للقلق الشديد أو الاطمئنان التام، لا أعرف سوى أنها مفاجأة، والمفاجآت عمومًا أمر يميل للسوء. التقط مني هاريسون الخطاب، تأمله قليلًا بوجه متقلِّص أحمر من شدة الغيظ، وبعد دقيقة أو اثنتين جعده في يده وقال ببطء بدون أن يوجه كلامه إلى شخص بعينه من الحضور:

«من الآن لا أريد أي أخطاء، ملك النمسا قادم في خلال أسابيع، يجب أن ننتهي من هذا قبل حضوره، وبالطبع لو تفوَّه أي منكم بكلمة حول هذا الخطاب، خارج هذه الجدران، سأطلق النار على ركبتيه بنفسي. هل لديك ما تقوله يا سيد علاء؟».

ـ لقد أخبرتكم بكل ما أعرفه، ليلة الثلاثاء في الإبراهيمية ...

ـ وماذا عن هذا الهراء حول القديس والقلب والرأس؟

ـ فلسفة شاعرية، استعراض ...

ـ هل أنت متأكد؟

ـ تمامًا. هذا ما رأيته في ... في رؤيتي، هذا ما أخبرتني به الأرواح.

ـ هُوَ ذَا حَمَلُ اللهِ الذّي يرَفَعُ خَطِيةَّ الْعاَلَمِ ...

غمغم بها هاريسون مجددًا، ثم أنهى الاجتماع. عندما خرجنا، شكرت المأمور المصري الذي اعتذر لي في هدوء عمَّا حدث من قبل في قراقول المنشية، انتظرته حتى توضَّأ وصلَّى العِشاء ثم تحدثنا قليلًا، وكما عرفت منه فهو من القِلة المصرية التي تعمل في جهاز شرطة يسيطر عليه غالبية من الإنجليز؛ لذا فموقعه حساس ويتطلب خشونة وحسمًا حتى لا يعطي فرصة لهؤلاء «الكفرة» كي يتصيدوا له الأخطاء، كما أخبرني أنه أب أرمل لستة أطفال، أتى بهم إلى الإسكندرية من محافظة الشرقية. حكى لي أيضًا حكاية الندبة المميزة التي تفصل وجهه، والتي أصيب بها من جراء ضربة فأس ضعيفة أثناء إنقاذه لحُرمة من مجموعة سكارى يعملون بالسيرك الروماني، ومن يومها صار يمقت السُّكْرَ والخمر والجريمة، وتقرَّب إلى الله بعد أن كان بينه وبين الموت شعرة.

«سأغرس سيفي في قلب القديس ليسبب سكتة دماغية بالرأس» ...

ظلت الجملة تتردَّد في رأسي أنا حتى كدت أصاب بالسكتة الدماغية، ما معناها؟ يتوجب عليَّ سؤال بنيامين في زمني. وحتى يحين موعد رجوعي أقمت في معمل بنيامين (س.م.ت)، تناقشنا أنا وهو حول التحريف في خطاب السَّفَّاح، أخبرني بصدق أنه لا يدرك خطورة أثر اليعسوب هنا، ربما هو انحراف بسيط لا معنى له، وعندما يقول بنيامين هذا فعليك أن تطمئن، ولكنها كانت طمأنينة زائفة دامت فقط لبضع ساعات مع بزوغ الفجر وقدوم أولى الأخبار السيئة.

***

دق باب المعمل دقات سريعة توحي بانزعاج صاحبها، ككل دقات الأبواب في حياتي مؤخرًا. فركت عيني وقمت أجر قدمي لاعنًا الطارق لأجده بنيامين القلق برفقة كونستابل أسمر نحيل، يخبرونني بوقوع جريمة فجر اليوم في شارع النبي دانيال، وأن عليَّ التوجه للمشرحة الآن بصفتي الوسيط الروحاني الخبير بالقضية.

لمحظة سكت قلبي ونسى أن ينبض لثانيتين، يا للروعة، يا للحظ العطر، جريمة قتل غير مخطط لها! كم أكره فقدان السيطرة أكثر من أي شيء آخر في العالم، كم تعبث الخطط

التالفة بأعصابي وتثير ذعري، هل يمكن أن يكون هو سفاحنا وقد تخلَّى عن نمطه؟ نعم، لكني أرجو وأصلي ألا يكون!

لامست خيوط الفجر الأولى وجهي وصفعتني نسائمه الشتوية في غضب عندما نزلنا، متجهمًا أشعث الشعر ركبت مع بنيامين والكونستابل عربة تجرها الخيول وتفوح منها روائح الروث والتراب الرطب، حملتنا للمشرحة في المبنى نمرة ٣٦ بكوم الدكة، ومن نافذة عربتنا راقبت الإسكندرية القديمة بأعين قلقة ما زالت منتفخة بفعل لدغات النوم، حتى وصلنا بيت الموتى. خارج المشرحة كان الزحام ملحوظًا، تجمهُر كبير من الصحافيين والمصورين وبعض العامة الفضوليين بجلاليبهم أو بدلاتهم، فلا يفرق الفضول بين جنسية أو جنس على كل حال. خلال الصفوف المزدحمة عبرنا بسلاسة بمساعدة الشاويش الذي أخلى الطريق بصوته الأجش وأسلوبه الْفظِ، وأقتادنا عبر دهاليز وطرقات المشرحة الرمادية إلى غرفة رطبة، واسعة، دخلتها أشعة الشمس على استحياء وكأنها تخاف دخول المكان الذي امتلأت أرففه بتوابيت خشبية تفوح منها رائحة الموت.

اكتظت الغرفة بتومرجية وكونستابلات وطبيب شرعي واحد، وعلى مائدة حديدية في المنتصف كان يرقد رجل متين عاري الجثة اصطبغ لونه الشاحب بأحمر الدماء القاني، وحلقه مقطوع بجرح عريض دُفنت داخله حُلي ذهبية ـ كسمكة مطبوخة ومحشية بالخضروات ـ برز بعض منها خارج الجرح، لتلمع بالأحمر والذهبي. أزعجني المنظر فأشحت ببصري بعيدًا، بحثت في جيوبي الفارغة عن سيجارة تسحب قلقي وأنا أتظاهر بالتفكير لكني لم أجد، التفتُّ حولي رجال الشرطة طلبًا في معرفة إجابة من الوسيط الروحاني، فتملكني التوتر أكثر حتى كدت أصرخ فيهم أن يغربوا عن وجهي، وبصعوبة بالغة تجاهلتهم وعدت لأفحص الجثة أكثر عن قرب: لم يحمل جسد الرجل أي جروح مثل التي اعتاد جاك فعلها، فقط الجرح العميق في الحلق وآثار خربشات أظافر بشرية طالت خده الأيمن وشاربه الكثيف، ممَّا دلَّ على وجود مقاومة.

مقابلي، كان الطبيب الشرعي منحنيًا يفحص الجثة بأساليبه الخاصة بينما يطرح التومرجية عليه أسئلة ساخرة؛ هل يقدر أن يحدد آخر وجبات الميت؟ أو لو كان يستطيع معرفة متى كانت آخر مرة ضاجع زوجته؟ الطب الشرعي هو محض خرافات بالنسبة لهم بالطبع،

وطريقتهم في التعبير عن ذلك كانت وقحة، فيتغامزون فيما بينهم ويقهقهون، ويتقبَّل الطبيب المسكين كل أسئلتهم دون رد. بحكم السلطة المخولة لي أمرتهم جميعًا ـ بما فيهم بنيامين ـ أن ينصرفوا وطلبت من الطبيب بأدب أن يعدَّ لي تقريره ويتركني مع الجثة، ثم دوَّنت بعض الملحوظات التافهة في دفتري الصغير وفي رأسي تسابقت خيول فزعة تصهل في كل الاتجاهات. هل هذا من عمل چاك؟ لو كان من عمله فهذه مصيبة كبرى، كارثة الكوارث، سينهار كل شيء وسترتخي قبضتي لتتساقط منها الخطة مفتتة، هاربة، تاركة إياي في مواجهة لا طاقة لي بها. ولكن لا، لا أظن أن هذا هو، لچاك أسلوب خاص وطقوس معينة، ولا أظن أن أثر اليعسوب هذا مهما زاد حجمه قادر على تغيير عقيدة راسخة معقدة مثل تلك.

وحدي تمامًا وقفت هناك، خلى المكان من الجميع فلم يتبقَ إلا الأموات حولي في كل مكان، والرطوبة الخانقة والحر، فأغمضت عيني راجيًا بعض الهدوء في هذه المقبرة الحديثة لكن قفز الخوف من كل شيء، تسارعت آلات كمان في رأسي وشعرت للحظات أني أطفو في فضاء من الرعب وأن هؤلاء الأموات سينقضون عليَّ فجأة ليزداد عددهم ميت آخر، حتى سحبني من خلوتي صوت يقول: «بيقولوا هاريسون باشا شيَّع يجيب الخواجة لامبروزو مخصوص من إطاليا يتابع القضية، صحيح الكلام ده؟».

كان الصوت لرجل أصلع، قصير القامة، يتحدث بسيجارة في فمه، وفي ظهره كانت انحناءة خفيفة تماشت مع عينين تشعان بخبث جلي. كان أقرب في شكله للثعابين لا البشر، فلم يميزه عنهم إلا القميص زيتي اللون الذي يرتديه والحقيبة التي يحملها على ظهره.

سألته مستغربًا وهو يتقرب مني: «لامبروزو مين؟».

ـ معقولة ماتعلمشي مين لامبروزو؟

ـ الحقيقة لا ...

ـ ده خواجة طلياني ابتدع علم جديد وسماه علم الجريمة، إنما إيه، عامل ثورة في أَروبَّا، بيقولوا عليه ساحر، من بصة في عين الواحد من دول يقدر يقول لك هو مجرم ولا لأ.

قالها ثم مدَّ لي يدًا نحيلة فوق الجثة وقال بابتسامة: «موسى ياقوت»، فصافحته بلا إرادية وسألت: «إنت شغال هنا؟».

ـ محسوبك مدير المشرحة.

ـ وعادي أدخن في المشرحة؟

ـ لو الصنف عال دخن، وبعدين دول أموات يا أخينا، ماحدش هيشتكي ...

ـ شكرًا، كنت محتاج سيجارة ضروري ...

ـ إنت الجدع اللي بيتنبأ بخطوات سفاح العذارى؟

ـ عرفت منين؟

دون أن يجيبني فتح حقيبته الضخمة، أخرج منها كاميرا كبيرة من النوع القديم الخشبي ثم ثبتها على قوائم لتواجه الجثة وهو يقول: «معلشي لازم ناخد صورة للإكسلانس المرحوم، عشان المشرحة». وقبل أن أكرر سؤالي أدخل رأسه في الكاميرا وغطاها بالغطاء الأسود، ثم قال من داخلها وهو يتموضع لأخذ صورة للجثة: « بيني وبينك حكايتك دي ماتخشش النافوخ. أنا لو من البوليص أقول إنك متفق معاه، إنت متفق معاه؟».

كانت لحظة مربكة حدث فيها كل شيء بسرعة: انفتح باب المشرحة الرئيسي كاشفًا عن بنيامين والكونستابل، في نفس الثانية التي انفجر فيها فلاش الكاميرا وامضًا بضوء باهر ودخان كثيف، حمل بعدها موسى الكاميرا والحقيبة على كتفه وبسرعة البرق فرَّ هاربًا من باب المشرحة الخلفي قائلًا: «سعيدة يا حلو».

غير فاهمٍ لما يحدث لمحت الغضب على وجه الكونستابل الذي جرى غاضبًا في إثر موسى، بينما ظهر التقزز على وجه بنيامين فقال: «سألك في حاجة؟»، نفيت وقلت: «هو ده مدير المشرحة فعلًا؟». فأجابني: «ده صحفي يهودي اسمه ياقوت، من بتوع الجرايد الصفرا، عنده جرنال فاشل اسمه الخبر. شكل كده حد من التومرجية خباه هنا واستنى المشرحة تفضى عشان ياخد صورة القتيل لجرناله الفاشل».

وقبل أن أستفسر أكثر أو يتمكن مني الشعور بالغباء وبالغيظ أخبرنا أحد التومرجية بخبر إلقاء القبض على المجرم الحقيقي لذلك القتيل، والذي أسلم نفسه للضبطية، معترفًا ـ على الملأ وأمام الجميع ـ بنظرة مجنونة وأيادي ملطخة بالدماء، أنه هو من قتل (سيد الطحان) وحشى جروحه بالشطة والذهب لأنه ضاق ذرعًا بنظراته الساخرة وأسلوبه المتعالي. اعترف وعلى

وجهه ابتسامة شيطانية باتساع الجحيم، وظل يقهقه بعدها لنصف ساعة بطول الطريق للقراقول ... فيما يبدو ضرب مس السَّفَّاح الجميع، وصار غبار جنونه يملأ الهواء ويدنس الصدور، وها هو أول الضحايا أمامي.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، ففي اليوم التالي رصدت ضبطية الإسكندرية جريمتي قتل في أنحاء متفرقة من المدينة، في واحدة منها قتل تاجر للزيوت خادمه الخاص؛ لأنه كان يشك في علاقة مريبة بينه وبين زوجته، والأخرى كانت فتاة ليل من حي اللبان أضرمت النيران في إحدى زميلاتها، وكلهم اعترفوا أنهم تأثروا بسفاح العذارى. هذا غير ما عُرف بـ«تجارة السَّفَّاح» التي شكلت مصدرًا وافرًا للأموال والثروة السريعة؛ صحف تكتب الأخبار والشائعات، فرق مسرحية تتجلى العروض حول سفاح العذارى وتعرضها بالمسارح والكلوبات، تجار للأسلحة الخفيفة والأبواب الثقيلة والأقفال المتينة، رهانات ومرابين ورسامين، الكل يستخرج ما يستطيع من قروش وملاليم من هذا الوحش، كان الوضع يتصاعد بطريقة غريبة مقبضة.

***

- 16-

سنة 2023

(الزمن كما نعرفه)

فور عودتي من الماضي لم أرتح، تحملت النوبة المعتادة من الصداع والدوار وطرقت باب بنيامين الذي أجلسني وأسقاني كأس ماء باردًا ثم استمع لقصصي حول ما حدث من تغييرات، أخبرني وهو يهز رأسه أن كل ما يحدث خلل متوقع ولكنه لن يزيد عن ذلك وفق حساباته، ثم أرسلني بعدها إلى شقتي أترنح برفقة عثمان. هناك على أريكتي النيلية نمت أحملق في السقف الملون، مستلقى في أرض الحياد بين الوعي واللاوعي، تتدلى يميني بجانبي، وبين السبابة والوسطى سيجارة تلفظ أنفاسها الأخيرة، رأسي مزدحم يضج، لا يتسع لأي فكرة سوى السفر القادم وما يحمله من مصائب.

هاجمتني في أحلامي ومضات من جثث ودماء، طاردت السَّفَّاح مرتين وأمسكت بكتفه وقبل أن أرى وجهه كنت أستيقظ فزعًا لأجد في أنفي رائحة جوز هند لا أعلم لها مصدر، وجسدي غارق في عرق بارد متكثف، ألتفت حولي فلا أجد سفاحين ولا جثث، فاستسلم لوردية أخرى من الأحلام والهلاوس؛ عثمان يتبرز على سجاد الشقة ويرفع لي إصبعه الأوسط، إيمي تجلس مع تشرشل في الأنتريه ويقوم هو بإلقاء النكات عليها فتضحك، تجلس على قدمه، يقبلان بعضهما البعض وتتلاقى شفاههما في شهوة حيوانية ... اتركيه يا إيمي وتعالي، أنا حبيبك أيتها العاهرة، أيتها الخائنة التي بعتيني فقط لمجرد نزوة.

ناما على الأرض عريانين، مارسا جنسًا مقززًا لمحته بطرف عيني فبدأت في البكاء، ثم ظهرت شابة خمرية جمالها ملفت وعيناها واسعتان، أراحت رأسي على فخذها العاري المكتنز وأخبرتني أنها لا تطيق الانتظار حتى نهرب معًا، ومن النافذة المفتوحة دخل غراب أبيض اللون حطَّ على كتفي وأخذ ينعق صارخًا في إيمي التي انتفخ بطنها: زانية، وبحنوٍّ نقر عيني اليسرى فتفجرت منها نافورة من الدماء لوَّثت السقف واختلطت بدموعي، قبل أن تدخل ماري بمسدسها مع هنري الذي حمل خنجرًا طويلًا، وقفًا أعلى مني في حقد وصوبوا

ناحيتي أسلحتهم. استيقظت فزعًا، ألهث، ما سر هذه الأحلام والهلاوس المتزايدة؟ وبجانب الأحلام الغريبة، احتضنت الغرابة كل شيء في العمارة وشوهته منذ رجوعي، ظهرت في تحيات زكريا و(أليس) المرتبكة، وفي إسحاق الذي يتجنبني بأعذار واهية، وبنيامين الذي كثر اختفاؤه، قبل أن يخبرني الجاموس عثمان إنه سافر خارج الزمن ليصفي ذهنه كما لو كان مسافرًا لبلطيم، لم أعد أفهم شيئًا!

حاولت الهرب من أفكاري بالكتابة لكن خرجت كلماتي ناقصة، بلا معنى، فقطعت من الصفحات أكثر مما كتبت، ثم قرَّرت نقع جسدي في مغطس الحمام الخشبي طلبًا للإلهام من آلهته، ولكن حتى في المغطس لم أستطع الفرار من التفكير. حاولت التأمل في الفراغ، الخواء، ولكن ركل الفراغ شجرة الشك المزروعة في صدري منذ اجتماع بنيامين وماري وجوستاف، ومن على أفرعها سقطت ثمرة ناضجة لها طعم المؤامرات، التقطها عقلي وتذوقها وأنا نائم في ماء المغطس الدافئ، فشعرت بجذوة تشتعل بداخلي، وَسوَس لي الشيطان قائلًا: «هناك أمر مريب أنت تتجاهله، هناك شيء ما يحدث خلف ظهرك يا مغفل». وللشيطان استمعت.

عاريًا خرجت من المغطس، أقطر الماء على الأرض والسجاد، وبدون أن أجفف نفسي ارتديت سروالًا قطنيًّا وقميصًا بالكاد زررت أزراره، ثم فتحت باب الشقة بأقصى ما استطعت من هدوء وتسحبت على أطراف أقدامي المبتلة، لم أكن قد حددت وجهتي ولكن أنبأني حدسي أن الخيط يبدأ من عند ماري. على السلالم البيضاء نزلت حتى لا تكشفني أصوات المصعد، اقتربت من باب السيدة في هدوء حيث كانت ترقد ثلاث قطط نائمة بجوار العتبة، وضعت أذني على الخشب بمنتهى الحرص محاولًا ألا أدوس أي منها، ولكني لم أسمع سوى صمت النيام. محبطًا تسحبت لشقة زكريا المواجهة لها، ابتلعت ريقي ومسحت بيدي على شعري المبتل، ثم ألصقت أذني بالباب الخشبي مجددًا، ولكن تلك المرة سمعت شيئًا ما.

إنها أصوات (أليس) وجوستاف تأتيني عبر الخشب، مكتومة لكن مسموعة وبإمكاني تفسيرها: تخبره أنها لا تطيق الانتظار حتى ينتهي كل هذا، وأنها تود الحياة معه وحدهما، فيقبِّل جوستاف يدها قبلة مقززة ويلقي عليها قصيدة رومانسية ركيكة بالفرنسية. أصابني الملل وهو يسهب في تشبيهها بمختلف أنواع الورود والريحان واللافندر، شعرت بالشفقة على

زكريا، بالاستياء من تلك الحية التي تخونه في بيته بكل وقاحة، قبل أن أسمع صوتَ بابٍ ينفتح بالأعلى، فأصابني التوتر.

ابتعدت عن الباب ولم أدرِ ماذا يتوجَّب عليَّ فعله، حافي القدمين نزلت السلالم الباردة بسرعة إلى الطابق الأرضي، ومن طابق أعلى سمعت لهاثًا عاليًا ووقع أقدام ثقيل فخمنت أنه إسحاق نازلًا مما يعني أنه لا ضرر على الأغلب، ولكني من باب الاحتياط اختبأت في الفجوة الصغيرة خلف كابينة المصعد.

«عثمان ... عثمان»

هذا إسحاق ينادي عثمان، مما دفع الأخير للظهور في مدخل العمارة بعد أن ترك مصطبته الخالدة، ليقف أمام القندس البشري مستفسرًا منه عمَّا يرغب، فسأله إسحاق بحدة متوترة عن مكان بنيامين، وأجابه البغل أن بنيامين بك مع ماري هانم وهنري في قبو العمارة.

قبو العمارة المغلق!! إذن لم يسافر بنيامين كما قال هذا العِجْل، وبنيامين نفسه كذب عليَّ عندما أخبرني أن القبو مغلق ولا يدخله أحد سواه! وَسوَس لي الشيطان مرة أخرى، من مخبأي مال على أذني وهمس (ألم أقل لك؟)، ضربتني نشوة الشك الذي يتضح أنه في محله، تلك النشوة المؤذية التي تتفوَّق مرارتها على لذتها. ماذا يدبرون من خلفي ولماذا يكذبون؟ عقلي مشتعل تُمسك به نيران الحنق والغضب.

اضطررت للمكوث خلف المصعد لبعض الوقت حتى يصطحب عثمان إسحاق خارج المدخل، بينما بداخلي يتولَّد مخزون هائل من العنف، كقنبلة عنقودية، لكني بصعوبة اخترت كبته وانتظار ما ستكشف عنه الأيام القادمة، لن أنفعل ولن أواجههم لأنهم سيقابلوني بالأكاذيب، سأجاريهم فيما يفعلون بينما أراقبهم عن قرب وبتركيز.

ومن يومها أخذت أعاملهم بجفاء، أجيب أسئلتهم بالكاد ولا أتفوَّه سوى بأقل الكلام، على مضض تكلمت حتى مع بنيامين الذي كان يحضرني لليلة الغد، للمرة التاسعة راجعنا أسماء الضحايا وأماكن قتلهم وتفاصيل الخطة التي وضعناها، وحتى وأنا أسمعه بتركيز لم تفارقني فكرة الانسحاب، ففكرت في ترك كل شيء وقلب الطاولة عليهم حتى أفهم ماذا يحدث، إلا أنه لم يكن هناك وقت حقًّا، عيناي صوب إيمي وفرصتي الأخيرة، كما أن المسألة بيني وبين

السَّفَّاح قد صارت شخصية، أنا البطل وهو الضد، أنا أكتب قصتي بنفسي الآن ويجب أن تكون النهاية سعيدة، ولنؤجل المعارك الجانبية إلى أجل آخر.

قلقًا من ليلة غد وقفت في شرفتي، أحرقت ثلاث سجائر وأنا تائه في الخطوط الساحرة الواهية للغروب، ثم دقَّ باب الشقة، كان هذا هو جوستاف بصحبة زكريا في زيارة لتوديعي، يا لبجاحته! وددت لو بصقت في وجه هذا المنافق المخبول ولكني اخترت الحفاظ على ثباتي ودوري الذي أؤديه.

طلب أن أغلي له بعض الأعشاب الخاصة وأعطاني علبة نحاسية تحتوي على القليل منها، ثم جلس هو وزكريا يتسامران ويخبره عن أهمية تلك الأعشاب الخاصة في درء أشعة عطارد الضارة في منتصف الشهر حتى لا يتسنى للبناؤون الأحرار استغلال عقله، ثم انتقل في حديثه إلى النمسا وقلاعها وأنواع العطور التي تكشف لك المرأة الجيدة. جلسَا معي في الشرفة يتحدثان وينتقلان من موضوع لآخر، ثم بدأَا في تشجيعي على مسعاي القادم والجزم بأنني سأتمكن من هذا الوغد، سألني زكريا عن شعوري وعن مدى قلقي فأجبته بكل صراحة وأنا أرتشف الشاي أنني متحفظ لكني واثق، أما جوستاف فأخبرني بحركات يده المتأنقة المائعة أن هناك طاقة روحانية عالية تخرج مني، وأن قلادة الياقوت على صدره صارت أكثر برودة في وجودي مما يعني أن الكون يؤيدني.

لم أرد، تأملته مليًّا وبداخلي رغبة ملحة لصفعه صفعة تقتلع ضروسه من جذورها، ثم قلت بعد قليل وأنا أرتشف الشاي، وقد قررت أن أهديه هدية صغيرة قبل سفري: «صحيح يا جوستاف، أخبار أليس هانم إيه؟».

كان بإمكاني سماع صوت ريق جوستاف البطيء وهو يتحلب، قبل أن يقول بقناع ملامح جامد يظهر من تحته فزع طفيف ـ لو دقَّقت النظر ـ: «اسأل جوزها، هو قاعد عندك».

ـ زكريا أفندي يعرف عن الورد والريحان واللافندر؟

كاد كوب الشاي يسقط من يده، وعلى وجه زكريا رأيت نظرات عدم فهم متشككة تنتقل بيني وبين المخبول الذي تلعثم وهو يضع الكوب على الطاولة ويقول: «أظن زكريا بيحب الورد». فقال زكريا بالمزيد من التشكك وهو يمسح على صلعته: «إيه قصة الورد دي يا علاء؟».

ـ ولا حاجة، كنا بنفكر نزين مدخل العمارة بشوية ورد وريحان ... ولافندر.

وبنظرة ذات مغزى رمقت جوستاف ثم غيرت الحديث. لا أدري لماذا قلت ما قلته ولكني شعرت براحة بالغة عندما أفرغت صدري منه، إشعال حرب صغيرة داخل رأس هذا الصرصار هو عقاب بسيط عمَّا يفعله بزكريا وعمَّا يفعلوه جميعًا بي، لم أمنحه المزيد من التلميحات أو الإشارات، فقط استأذنت منهما وطردتهما بأدب متعللًا بحاجتي لبعض الوقت مع نفسي، تاركًا جوستاف شاحب كآسيوي أصيل، يهندم من بدلته في حركات متوترة بدون أن يرفع عينيه من عليَّ. حسنًا، أنا تركت كلبًا جائعًا في رأسه سيظل ينبح ليلًا ونهارًا، وهذا انتقام عادل حتى عودتي.

***

- 17-

سنة 1898 (س.م.ت)

ليلة القتل الثالثة

اجتاح جسدي توتر مزعج وأنا أقبع مكاني، مختبئًا في أحد الأزقة الخفية بحي الإبراهيمية مع هاريسون وحسن ومجموعة من فرقة كلاب الصيد، تظللنا سماء الليل بجواهرها اللامعة وتنساب إلينا أشعة القمر الكامل ملطفة من الظلمة، لكنها لم تفلح في كسر الذعر الذي اضطرب في معدتي. ناولني هاريسون قارورة الخمر المعدنية فلم أرفضها، تجرعت ما بها بلا اكتراث مراقبًا الطريق، فرأيت (حسن) يرمقني بنوع من أنواع العتاب ثم يستغفر ربه بصوت خفيض، لو كان معترضًا على شربي للخمر الآن فربما سأدق رأسه بمسدسي من فرط الغيظ، هذا ليس وقت أخلاقيات.

قال ضجرًا وهو يجول ببصره في السماء: «مش يمكن يكون ظهر لمجموعة (ب) أو (ت)؟». فأجبته وأنا أنفخ كل ما في صدري من هواء، موشكًا على الانفجار: «كنا هنسمع صوتهم». رجاءً يا عزيزي لا تتحدَّث ولا تطرح وجهات نظرك الآن، بداخلي بالفعل كمٌّ من القلق يكفي لقتل مدينة بأكملها فاخرس واتركني حتى يظهر هذا الشيطان. ثم مرَّت علينا نصف ساعة، كل دقيقة منها كانت بمثابة أبدية كاملة يضخم من أثرها الأصوات الرتيبة التي تنبثق بين الحين والآخر؛ زقزقة الصراصير الليلية هنا وصوت موجة بعيدة تهدر هناك، لكن بلا أي أثر له.

بسيجارة بثت بعض الدفء في جسدي الذي ارتجف من البرد، متوترًا هززت قدميَّ في مخبأنا الواقع بالقرب من مكان مقتل ماريا والتي خمَّن حدسي أنها الجريمة الأولى، وتبعًا لحدسي تمركز الحكمدار معي بينما تمركزت فرقتان أخريان عند مواقع قتل شحتة وسارة، لكن لم تفلح رشفات الخمر ولا أنفاس الدخان في خفض التوتر الذي ارتفع طرديًّا بمرور الوقت وأنا أراقب الشارع الخالي من أي حركة أو صوت وكأنه صورة في إطار، وزاد من انزعاجي كل تلك الحركات التي يقوم بها رجال الشرطة من حولي؛ مَن يفرك يده ومَن يتثاءب

عن عمد ومن ينقر في إيقاعات بطيئة رتيبة على أي سطح، موجهين لي رسائل صريحة تقول إنهم ملُّوا، أنا أيضًا مللت، أنا أيضًا في كليتي ثقب أحدثه الانتظار وبدأت تهرب منه ثقتي وإيماني في كل شيء، أنا أيضًا خائف. ولكننا في العناوين الصحيحة والتوقيت المضبوط، هل أسأت التفسير إذن؟

سأغرس سيفي في قلب القديس ليسبب سكتة دماغية في الرأس ...

راجع عقلي الجملة إياها مجبرًا، لو كان يقصد رأس التين فعلًا فما علاقة القلب إذن؟ أي رأس هذا وأي قديس يقصد؟ بما أن اللغز هنا على الأرجح يتحدَّث عن عنوان فربما يقصد بالقلب وسط منطقة ما، منطقة بها قديس، كما أن حرف الـ(S) المحفور على القلب قد يشير لكلمة قديس بالإنجليزية. س ... س ... ستيفانو؟ سُميت سان ستيفانو على اسم القديس إسطفانوس Saint Stephan أول شهداء المسيحية، ولكن ما دخل الرأس بالموضوع؟ مات إسطفانوس رجمًا فلم تُفصل رأسه كعادة شهداء المسيحية، ولا علاقة للقلب بالموضوع

أيضًا، كما أن سان ستيفانو منطقة بلا أهمية تُذكر سوى أن ملك النمسا فرانز يوزف مقيم هناك بفندق سان ستيفانو بعد أن تمَّ إخلاؤه خصيصًا و...!

سكتة دماغية بالطبع، إذا تعرض ملك النمسا للأذى سيؤثر هذا حتمًا على العلاقات بين مصر وأوروبا كلها، ممَّا قد يؤدي لحرب عالمية على الأرجح، وبالتأكيد سيسبب سكتة دماغية في رأس البلد، الحكومة وخديويها الذي يحكم أيضًا من قصر رأس التين!

ارتخت أصابعي، فسقطت لفافة التبغ من يدي مغروسة في الطين، داستها الأقدام التي انطلقت تجري محمومة بعد أن صِحت بهم أن السَّفَّاح في سان ستيفانو الآن، ثم أصاب الجنون الكون. انطلقت الأحصنة بفرسانها مستجيبة للسعات السياط ومن خلفها انطلقنا نجري صوب سان ستيفانو، أوركسترا من المشاعر والمشاهد والأصوات المرعبة حاصرتني من كل جانب، والشعور بالغباء يمزقني،الله وحده يعلم كم من وقت قد مرَّ وكم من فتاة قُتلت، وفي كل هذا أنا المذنب وصاحب التعليمات الخاطئة.

على حصانه سبقنا الحكمدار، وبدون أن ينظر في عينيَّ كنت أعلم أنه يوجه إليَّ اللوم مسبقًا على كل ما سيحدث، أما (حسن سلامة) فكان يجري غاضبًا شاهرًا مسدسه بجواري، أنا الذي لدغتني حالة من التِّيه وعصفت بي رياح الذعر مبعثرة كل الأوراق والاتجاهات، فتطول

الطرق وتضيق أمام ناظري، وتتحوَّل الحواري والشوارع القديمة إلى متاهات، إلى أميال لا تنتهي من الجري والتعثر في حجر الطريق بسبب الإحساس الكارثي بالخطأ الذي شقَّنِي إلى نصفين، فدعوت الله في سري ألف مرة ألا يكون الوغد قد سبقنا، ووعدته أن أكون صالحًا متقيًا بأخلاق النساك لو تحققت دعوتي، ثم وصلنا سان ستيفانو.

كيف علمت أننا وصلنا؟ كانت الإشارة واضحة، جلية في جثة شابتنا مسلوخة الوجه حمراء الشعر (سارة سكوت) التي قبعت بين ذراعي تمثال لجندي روماني******* يوتر سهمًا في قوس أمام محكمة للأجانب، والجرح المعهود على هيئة الرقم سبعة محفور على فستانها الأسود بمنطقة البطن، منه تسيل الدماء في شلال صغير إلى قاعدة التمثال متجمعًا في بقعة كبيرة على الأرض، لقد أخفقت، أخفقت بشدة.

دوَّت رصاصة غاضبة من مسدس هاريسون إلى السماء قتلت سكون الليل المنتصب حولنا ونحن نقف في رهبة أمام التمثال، نظر الحكمدار حوله يكاد يفترس أحدهم من الغيظ ثم التفت للقوات صائحًا فيهم أن ينتشروا، ودَنَت منه تجاهي نظرة متقدة بالنيران وهو ينزل من على صهوة جواده قبل أن يقود فريق البحث.

التفتُّ حولي بحثًا عن أي علامة تسعفني لكني لم أجد، بيأس انطلقت أبحث في الشوارع، أجري مع (حسن سلامة) الذي لم ينبس بحرف لكنه كان صلبًا على عكس معظمنا، يفتش في الحواري المظلمة ومداخل البيوت بجسارة، وبعد دقائق من البحث الفزع في الليل المقبض سمعت في رأسي صوتًا يهمس (هنا، يسارًا فيمينًا) فأطعته صاغرًا حتى قادتني قدماي إلى زقاق ضيق، قابلني بداخله مشهد قلب أمعائي: جثة فتاة معلقة قدماها من عارضة خشبية، بالمقلوب، وكأنها دودة تتدلى في شرنقة، بنفس الجرح المعتاد ذي الرقم سبعة، محفور وواضح، بالتأكيد هي ماريا ميخاليدس، وقبل أن آتي بردَّة فعل أو حتى أكوِّن فكرة حول ما رأيت، ضربني الصدَّاع وانقلب المشهد.

صداع قوي طعن رأسي، دقها وضربها بعنف حتى تحولت رؤيتي للون القرمزي، فأمسكت بها وترنحت صارخًا، كل هذا حدث ما أن نظرت إلى وجه الشابة المقلوبة والذي لم يُسلخ هذه المرة، بل كان سليمًا مُثبتًا في جبهته قرنين كقرون الشياطين أو التيوس، وعلى الفور تذكرتها.

ماريا هي ذات الشابة الخمرية التي زارتني في هلاوسي الأخيرة وأراحت رأسي على فخذها العاري، كانت لمحة لوجهها كفيلة لأشعر بمخي يتفتَّت، يصرخ، ركلت رؤيتها بابًا خفيًّا في رأسي، انكسر ومنه تدفَّقت سيول من مشاهد غريبة متفرقة تعبر رؤيتي، أشخاص وأماكن لم أرها من قبل لكنها كانت حية ونابضة، بصعوبة فتحت عيني محاولًا إدراك أيٍّ مما يقع حولي ولكن اختلط كل شيءٍ فصارت الهلاوس متحدة مع الواقع وذائبة فيه، في الشارع رأيت أناسًا من صنع عقلي يتمشون ويتحدثون أو يتشاجرون أسفل أعمدة الإنارة، مررت يدي أمام عيني حتى أتأكد من أن هناك ما هو حقيقي في هذا الجنون المطبق حتى جذبني (حسن) من رأسي وهزها صارخًا بكلام لم أسمعه من خلف طنين سكن أذني، حتى عادت الأصوات للظهور ببطء، مشوشة، فاستطعت سماع المأمور وهو يطلق الصفير معلنًا للقوات عن مكان القتيلة الثانية.

سألني إن كنت بخير فسقطت أرضًا، جاءته إجابتي في شكل قيءٍ تدافع من جوفي ملوثًا الأرض وسروالي، أنا أتداعى، وكأن هناك قبضة خفية تُمسك برقبتي وتعتصرها، ثم اتَّشَح بصري بالسواد، شعرت بجسدي يطفو في فضاء اللاوعي وبالفراغ من حولي يتقاذفني كما الغريق، لكني جاهدت حتى أخرج لشاطئ الإدراك ومن على الأرض قمت متحاملًا، بصعوبة عادت رؤيتي مرة أخرى وأنا أعتمد بكفيَّ على ركبتيَّ، لم يزل حفار الصداع يثقبها ثقبًا مؤلمًا لا نهائيًّا، لا أعرف ماذا يحل بي!

ثم انتشلني من غمر ألمي وانهياري أصوات ارتطام معدنية في الشارع المقابل، من شدتها وعلوها أجبرتني على الالتفات، فرأيت ثلاث رجال يرتدون أقنعة (التراجيكوميديا) ـالتي تصور وجوهًا مصمتة إما تقهقه في هستيريا أو تصرخ في عذاب أليمـ يضربون واجهة أحد المحال بعتلات ويكسرون نوافذه بهراوات ثقيلة. توقفت مصعوقًا مشتتًا بين الواقع والهلوسة، ولكني رأيت الفزع نفسه معكوسًا على وجه المأمور والشاويشية فأيقنت أنه حقيقي، وسَرَت قشعريرة في جسدي لمنظر هؤلاء الرجال ذوي الملامح المرعبة! سألهم (حسن) بصوته الرخيم عن هويتهم ثم صوَّب نحوهم مسدسه لكنهم لم يتراجعوا، بل واصلوا تهشيم وتدمير ما استطاعوا الوصول إليه من المحال والدكاكين، وقبل أن نهاجمهم ظهر آخر بقناع عابس، كان

يركب عربة تجرها الأحصنة تقطع الطريق ناحيتنا بسرعة، ثم صاح متحمسًا في جنون وألقى إلينا بما اتضح أنه إصبع ديناميت.

للخلف طار جسدي عندما انفجر الديناميت على بعد أمتار مني، ارتطم ظهري بالأرض الحجرية الصلبة في عنف وأنا أسمع أصوات الرصاص تنصب من كل صوب. هنا، في هذا المكان، وتحت هذه السماء، كان الرعب هو السيد، هو المكون لكل تفصيلة: صداعٌ حادٌّ ورصاصٌ وأقنعة وديناميت، وظلامٌ لم تفلح الأضواء في تشتيته، ولكن الأكثر رعبًا من كلِّ هذا كان جهلنا التام بهوية هؤلاء الرجال. بيديَّ قمت مستندًا على الأرض الحجرية الخشنة، بأعصاب تتحلَّل رعبًا وأنا أشاهدهم يعْدُون مبتعدين من أمام القوات التي حضرت، سألت (حسن) عنهم لاهثًا فأجابني بأنه مثلي لا يعلم مَن هؤلاء، ثم حثني على الجري ومواصلة البحث عن السَّفَّاح، السَّفَّاح! جريت معه، وبقدمين ضعيفتين وأنفاس متلاحقة رحنا نفتش ببصرنا كل ركن في سان ستيفانو، لكننا فوجئنا بهم في كل مكان.

الرجال المُقنعون هنا وهناك، منهم من ينهب دكانًا ومنهم من يكسر نافذة، يُضرمون النيران في المحال ويهربون بصناديق خشبية، هي حالة من الجنون الخالص كما لو كنت في قلب كابوس ثقيل، فالدخان واللهب يتصاعدان بوحشية من حولنا ومعهم تتصاعد أصوات انفجار الديناميت والطلقات النارية لتطيش في السماء أو تصيب الأسطح، الخيول تصهل فزعة ورجال الشرطة في كل مكان يطاردون المُقنعين، فيصطاد الرصاص بعضهم أو يصيب صناديقهم لتسقط أرضًا فتتناثر محتوياتها صارخة مصلصلة.

هويت بهراوة على رأس مُقنع كاد يهاجمني فانكسر قناعه وتداعى جسده، ورأيت حسن يشتبك في صراع بالأيدي مع أحدهم، وهاريسون يطلق رصاصة ظننتها مخطئة عندما أصابت رأس حصان من الأحصنة قبل أن يسقط براكبه متدحرِجَين أرضًا بداخل دكان مشتعل فتمسك ناره أجسادهم، إنها حرب عصابات كاملة بجوار مضجع ملك النمسا، لقد نسيناه تمامًا! وهو ما أدركه حسن الذي انسحب مع بعض رجاله على الفور وتوَّجه لفندق سان ستيفانو.

رغم الحرب الصغيرة والصداع، قاومت ألمي واصلت البحث، لا بد من الإمساك بهذا الشيطان حتى لو اعتصرني الموت بين فكيه. أين شحتة؟ أين كاسر النمط؟ لو توصَّل له قبلي

لن أسامح نفسي. تبعت الصوت الغاضب بداخلي الذي يهمس ويتفوَّه بالاتجاهات، جريت برأس شقَّها الصداع شطرين، أنحرف وأنعطف في شوارع لم أزرها من قبل لكن تعرف أقدامي أنها الطريق، أتعثَّر عدة مرات وأنا أجري، وأصوات خيول الضبطية التي تتبعني تتعالى وتتزايد.

وأمامي في الشارع المقمر ظهرت كنيسة كاثوليكية، خرج الضوء من نافذتها الزجاجية الملونة التي احتلتها رسمة لخروف صغير خلفه صليب، وجانبه وقفت العذراء مريم وتلاميذ المسيح. المسيح وأمه، الحمل والعذراء، بالتأكيد رجلنا بالداخل، أنا متيقن، وهكذا قال الرجل في صدري، في بطءٍ تقدمت، بطريقة ما أزحت صداع رأسي جانبًا وأنا أقطع حديقة الكنيسة المفتوح بابها، دخلت الكنيسة وبصري يسبقني، ضربات قلبي تتزايد، وفي أضواء الشموع والقناديل لم أرَ سوى التماثيل الكاثوليكية الساكنة، الأرائك الخشبية نائمة والمنحوتات متعلقة بالحائط في ثبات، لا حركة ولا نفس يتموَّج تحت السقف المرسوم، بدا كل شيءٍ طبيعيًّا وكأنها ليلة من الليالي العادية، حتى انتقل بصري إلى الكرسى الخشبي الأشبه بالعرش، حيث من المفترض أن يجلس القِسُّ.

بجوار العرش الخالي بالفعل كان هناك قسٌّ، لم أجد شحتة الأمهق الذي انتظرناه، بل قِسًّا راكع على الأرض، رأسه مدفون في دلو تنظيف من الخشب وينتفض جسده بحركات خفيفة، لو كان هذا ما أفكر فيه فالويل له ولي. بسرعة حملته من إبطيه وانتزعت رأسه من الدلو الخشبي، في فزع أجلسته على العرش وتأملته تحت الأضواء الشاحبة: كانت رأسه مائلة على كتفه في وَهنٍ المحتضر، بيسراه غطى جرحًا في جانب رقبته تسيل منه دماءٌ لتفيض على ردائه الأسود والرخام الأبيض أسفله. بقلب يتخبط بين ثنايا صدري تراجعت عندما رأيته، عندما لاحظت علامة السبعة المحفورة على معدته، غير كاملة، ونصف وجهه الأيسر المسلوخ ليظهر عضلاته المنغمسة في دماء طازجة، عملٌ غير مكتمل وتحفة فنية أخرى فرَّ رسامها قبل أن يضرب بفرشاته بضع ضربات أخرى ... ولكن أين شحتة؟ هل سيتضاعف عدد القتلى أم أنه استبدل القِسَّ به!

وقبل أن أهرع للبحث عن الأمهق التقى بصري ببصر الكاهن فاتسعت عيناه في رعبٍ وضرب الهواء بقدمه ضربات واهنة ضعيفة كمن يحاول التراجع يائسًا، أزاح يده من على

جرحه بقوة لا تتناسب مع حالته وأشار بسبابة مرتعشة نحو السماء ثم رشم نفسه بعلامة الصليب، ومن فمه تطايرت قطرات الدماء في سعال.

ثم دخل هاريسون ورجاله خلفي بجلبة عالية أغرقت الكنيسة بأصوات الدبيب واللهاث، انتشر بعضهم في أرجاء الكنيسة وتسمَّر آخرون أمام القس المحتضر على الكرسي، بينما اقترب منه هاريسون شاهرًا مسدسه، بيأس أمسك بمرفق القس وسأله بالإنجليزية: «أين هو يا أبت؟ أين ذهب؟».

ولكنه لم يتلقى إجابة سوى السعال وقطرات الدماء التي تطايرت على وجهه، يائسًا لم يمسحها هاريسون، بل واصل إغراق القس بأمطار من الأسئلة التي يتمنى لها إجابة: مَن هو؟ ما شكله وما هو عنوانه؟ لكن لا كلمة ولا حرف، أسلم العجوز الروح بين يدي الحكمدار، فهزَّ الأخير جسده بعنف وصاح غاضبًا: «اللعنة! أين أنت يا ابن الزواني؟!!!».

تجمدنا بعدها أمام جسد القس المذبوح لثوانٍ مرَّت بثقلٍ شديدٍ، قبل أن يكسر الجمود ركلة عنيفة من هاريسون للعرش الخشبي سقط على إثرها طربوشه، وتحت قبة الكنيسة تكررت أصداء الركلة في إحباط يوازي ما يعتمل في نفوس الواقفين، لكن تبع الأصداء صوت آخر، أدار الرؤوس إلى مصدره، جسد عريض ضخم لُثِّم وجهه بمنديل من حرير قرمزي، خرج مندفعًا من كابينة الاعترافات في الركن وكالبرق اندفع خارج الكنيسة، وقبل أن تطوله رصاصاتنا أغلق خلفه الباب الثقيل فاستقر الرصاص في الخشب. ملسوعين جرينا إلى الباب الذي لم ينفتح بعد أن أوصده اللعين من الخارج بعارضة خشبية كبيرة، اعتلى الغضب كل الوجوه وخصوصًا هاريسون الذي صاح غاضبًا هو يطلق المزيد من الرصاص على الباب، ثم يدفعه بكتفه مرتين أو ثلاث لكن بلا فائدة، فانضممت إليه ومعي كونستابل ضخم الجثة ندفع الباب الثقيل، وبعد بضع ضربات انكسر المزلاج بصوت انفجار، وعلى مصراعيه انفتح الباب كاشفًا عن فناء الكنيسة الليلي البارد، حيث لفحت وجوهنا رياح ديسمبر، لكنها كانت رياح حارة.

فمن كل مكان في الفناء تصاعد لهب برتقالي، جشع، يأكل أشجار الكنيسة وشجيراتها في نهم أجبرنا على التوقف، الوغد أضرم النار في الحديقة التي تقطع الفناء باستخدام أحد المصابيح الزيتية، فعلها وحبسنا لكنه لم يهرب، بل ظلَّ واقفًا يطالعنا بثبات، بلثامه القرمزي

وبدلته الأنيقة خلف اللهب الذي شكَّل سورًا بيننا وبينه، وكانت وقفته وقحة ثابتة رغم تموج المشهد الدَّخِن أمامي، منبع ثقته أن ألسنة اللهب المتصاعدة ستمنعنا من العبور له وتقيدنا بحبال العجز؛ لذلك ومن باب العجز أطلق البعض ما تبقى من الرصاص القليل في المسدسات نحوه، لكن كان التصويب في وسط كل هذا الدخان دربًا من دروب المستحيل.

يدفعك اليأس إلى إنكار المنطق والكفر به، حتى لو كنت رجلًا متقد الذهن مثل هاريسون باشا؛ لهذا لم أفاجأ عندما رأيت الحكمدار يخلع سترته ويلقي بها أرضًا ثم يتقدم نحو النيران ما أن رأى الوغد يستدير هاربًا، من بين أصوات اللهب المطقطق ناديته أن يتعقَّل لكنه لم يتراجع خطوة، بل قفز من فوق الشجيرات المحترقة مغطيًا وجهه بذراعيه، وكما توقع كل الواقفين الذين تابعوه يعبر النيران، أمسك اللهب بملابسه وهو يسقط مستقرًا على الأرض، فراقبناه فزعين وهو يتدحرج مرارًا في محاولة لإخماد النار التي نبتت من سرواله ... أيها الرب الرحيم! ارتعشتُ في مكاني وأنا أنقل بصري بين الحكمدار المشتعل والشيطان الذي خرج من فناء الكنيسة جريًا حتى أخذ حجمه يتضائل مبتعدًا، خلعت سترتي أنا أيضًا مصارعًا الصوت المتردد في رأسي، وبنظرة لوجوه الكونستابلات المرعوبين خَمَد حماسي وزحفت في صدري برودة الخوف، فتراجعت خطوتين للخلف ... لا غضب ولا غصة ولا شيء يملؤني سوى الخوف بمخالبه الحادة السوداء، إحساس بالضآلة تسيدني وسيطر عليَّ وأنا أقف في الفناء المحترق.

زفرت، ارتعشت يداي بردًا أو رعبًا، ومن خلف الشجيرات المتقدة قام هاريسون أخيرًا بعد أن استطاع إطفاء نيرانه، ثم ألقى نظرة مطولة على الشارع الخالي أمامنا، بالنور البرتقالي البشع لمعت تجاعيد وجهه وهو يواجهنا. حاجباه المعقودان وملامحه المتقلصة يعبران بوضوح عن كل ما حدث الليلة؛ هزيمة نكراء وإحباط وعجز.

***

تمثال (الرامي المنتصر): تم نحته على يد الفرنسي جان ليون جيروم من شهر أبريل عام ١٨٩٨ (س.م.ت) بعد رؤية رآها محافظ الإسكندرية في المنام يقوم فيها رام روماني بإلقاء سهم ناحية الشمال يفتح الطريق أمام المحروسة لتسود العالم، فحكى للخديو عباس رؤيته والذي تفاءل بها وأمر بنحت التمثال؛ ليكتشف فيما بعد أن المحافظ كان يكذب ليثير إعجاب أرملة نمساوية تعشق الميثولوجيا اليونانية. الملفت في الأمر أن المحافظ أصرَّ على ليون جيروم أن يمتلك الرامي نفس شاربه.

- 18-

كان فجرًا كئيبًا، فاحت فيه روائح الموت في شوارع الإسكندرية وتركت طعمه الكئيب في الحلوق، أُعدِمت شهيتي ونفقت تمامًا فلم آكل ولا أشرب، فقط أمضيت المتبقي من الليلة مع القوات في الحكمدارية، منكسي الرؤوس. الإنجاز الوحيد ليلتها كان نجاح (حسن سلامة) في تأمين ملك النمسا وحاشيته، وإمساكه ببعض الرجال من ذوي الأقنعة الذين اتضح انتماؤهم لعصابة (إل راجاتسو)********.

(فلورينزي ماتيو) مهاجر طلياني حلم بتكوين مافيا خاصة به بعد هجرته إلى مصر، لم تمنعه هيئته الضئيلة ولا قامته المثيرة للسخرية عن مسعاه فارتقى سلم المافيا الوظيفي من الصفر بالعمل في الرهانات والسرقات الخفيفة، ثم بمرور الوقت توحَّش وكبرت مجموعته وتحول للبلطجة والنهب، حتى صارت عصابته ذراعًا يمنى لمنتصر عناية زعيم الدعارة والمخدرات في الإسكندرية. كما فهمنا، فبناءً على عدة رسائل وصلت أعضاء (إل راجاتسو) الأيام الماضية ـ مرفقة بمبالغ مالية وثدي امرأةـ عقد معهم السَّفَّاح صفقة؛ أخبرهم بمكان وميعاد ليلة القتل القادمة حيث ستكون الشرطة منهكة مشغولة بالبحث عنه، وهي فرصة ذهبية للانتقام من الضبطية ورجالها بالإضافة إلى نهب المحال والحصول على مبلغ ضخم، مقابل أن يقوموا بنشر الفوضى وتخريب ما استطاعوا من ممتلكات من أجل تشتيت الشرطة وإرباكها، عملية منفعة متبادلة. كما أنه كان صاحب فكرة أقنعة التراجيكوميديا لبث الرعب في قلوبنا.

في تلك الليلة قررت التصرف كالرجال، قبلت المسئولية كاملة ولم أمانع تلقي كل اللوم لأني صاحب الخطة وصاحب التعليمات، ولكن حتى اللوم لم يستطيع أحد توجيهه ... حالة من الاستسلام المر، الشلل النصفي، في غرفة الاجتماعات بالحكمدارية جلسنا وقد ترامت أجسادنا المنهكة في أرجائها؛ على الكراسي والأرض والأرائك، الكل بملابسه الممزقة المتسخة التي فاحت منها روائح الدخان، والدم الذي التصق بالأجساد المتعرقة. لم يملك أحدنا القدرة على الحديث أو الشجاعة للنظر في وجوه الآخرين، بل نُكِّست الرؤوس وأغمضت الأعين في اعتراف مكتوم بالخسارة، لم يتحدَّث سوى (حسن) الذي نطق صوته

الخشن ببعض الغمغمات الممتعضة وهو يداعب مسبحته الخضراء ثم سحب مسدسه من فوق الطاولة وهمَّ بالخروج، لولا نحنحة من هاريسون أمرته بالمكوث، لم يتحدث الحكمدار ولم يطلب من حسن شيئًا، ربما أراد فقط أن يغطينا جميعًا إحساس الخزي وأن نتشارك العار كلنا، أردت أن تنشق الأرض وتبتلعني في جُبٍّ أسودَ أبدي كلما طالتني النظرات منهم؛ نظرات مشوبة بلوم، غارقة في الإحباط والكفر بالنبي الجديد الذي اتضح أنه بشر مثلهم، وهذا الشعور يمزقني، فشل لاذع يحرق خلايا المخ والجسد، حِمم بركانية تستقر في الجوف، أود أن أختفي، أن أطير مبتعدًا عن هنا أو أستيقظ كصرصار في أحد البالوعات، ولكني لم اختفي، داس الصمت عليَّ وعظم إحساس الخزي فلم أستطعِ السكوت أكثر من ذلك، قمت منتهدًا في البداية حتى التفت الجميع نحوي، ولم أقل سوى بضع كلمات: «هنمسكه، أوعدكم، هنجيب أمه».

لكن قال الضابط الإنجليزي البغيض إياه وهو يدعك عينيه في شيء من الإرهاق والسخرية: «هذا هو ما تبرع به، الكلام ... هذا هو ما يبرع به هذا الشعب». فقلت مغتاظًا وأنا أكور قبضتي: «هذا الشعب؟ هل نسيت أن السَّفَّاح إنجليزي يا حضرة الضابط؟ وعلى كل حال لقد حذرتكم المرة السابقة ولم تسمعوا، وهذه المرة أنا أيضًا من دلَّكم عليه».

ـ تقصد أنك من ضللنا ...

ـ وأين كنتم لتذهبوا من دوني؟ رأس التين يا متحذلق؟

ـ كلمة إضافية أيها المصري وسأفعل بك كما تفعل حكومتنا بالـ ...

ـ كفى!

صاح بها هاريسون في غضبٍ عارمٍ وصرخ فينا بحسمٍ ألا يتفوه أحد بعد الآن بما يقسم الفرقة بناء على جنسية أو معتقد، وقبل أن يأمرنا بالانصراف قال لي بفتور: «لقد كنت مخطئًا يا علاء أفندي، إنه قاتل مهووس من خلفية دينية كما قلنا، جريمته في الكنيسة تؤكد شكوكنا». ثم أخرج من جيب سترته ورقة مجعدة وألقى بها لي قائلًا: «لقد وجد الطب الشرعي هذه الرسالة محشورة في فم الضحية الأولى أمس، يقول فيها (العذراء ستذرف المزيد من الدموع)، إنه يقتل العذارى نكاية في تمجيد العذراء، بروتستانتي لا يحب العذراء مريم».

ها هو تأثير جديد من تأثيرات اليعسوب، أو الفراشة، أو أي حشرة عاهرة، ها هو فشل جديد يضاف لنياشين إخفاقاتي الثقيلة. عاقبت نفسي بالسجن في معمل بنيامين، حبس انفرادي بمحض إرادتي انعزالًا عن كل الهرج بالخارج، فكل الخطط انهارت وأنا أقف على أنقاضها، ليلة واحدة متبقية للإمساك به وقد ضرب بمساراته الأصلية عرض الحائط، ما العمل إذن؟ أخذت أسأل نفسي، أسكب أفكارًا بلا رابط: الرؤى والهلاوس، التغيير الذي طرأ على السَّفَّاح، كيف يفكر؟ ولماذا يقتل؟ كل سؤال هو ورم سرطاني سريع الانقسام، هو دهليز يتفرَّع لسؤالين آخرين بلا إجابة.

التهمني التفكير وانغمست في جَلْدِ الذات فلم أبرح المعمل، من أصوات العصافير بالخارج عرفت أنه النهار ومن زقزقة الصراصير علمت أن المساء قد حل، ثم عندما تمكَّن مني الضيق في ساعات الفجر الأولى استسلمت وخرجت، قررت الإقامة في أقرب لوكاندة وحدي بعيدًا عن بنيامين أو الخطط، كرهت منظر المعمل والأوراق وصارت تفاصيله كلها مقبضة لناظري.

ولكني فوجئت بمرافق ثقيل، ففي الجهة المقابلة للعمارة كان الصحفي موسى ياقوت يستند بظهره لواجهة دكان للشموع، متثائبًا يفرك عينيه، لكن دبَّ نشاط مفاجئ في جسده ما أن رآني فهرول ناحيتي بخفة الثعالب وهي تعمل على خديعة فريسة جديدة، اقترب مني بسرعة رغم الصندوق الثقيل الذي يحمله على كتفه ومنه تبرز بوضوح أكوام من الجرائد الملفوفة. قال: «سعيدة يا أخينا». فتجاهلته ولم أرد سوى بنظرة مشمئزة لعله يرحل، لكنه واصل خطواته الحثيثة خلفي وأكمل: «إيه اللي مصحيك وخري كدة؟» قلت: «عايز إيه عالصبح؟»

ـ مافيش نهارك سعيد طيب؟ مافيش بونجورنو؟

ـ إنت عرفت مكاني منين؟

ـ حبايبنا كتير في الحكمدارية ...

ـ اتفضل امشي بعد إذنك ...

وبلا ذرة كرامة تابع كلامه وهو يخرج جريدة مطوية من صندوقه ثم يلقى بها أمام دكان بعينه: «لامؤاخذة على اللي جرى النوبة اللي فاتت، أكل العيش يحب الخفية بقى». أبقيت يدي في

جيوب معطفي ولم أخرجهما للسلام، فقال بخبث بعدما ألقى التحية على بقال يفتح دكانه وطوَّح له بنسخة من الجريدة: «قلت لك قصة الوسيط دي مش داخلة نافوخي».

وقفت ملتفتًا في غضبٍ، وقبل أن أصرخ فيه قال بخفة: «بالهداوة أُمال، كلامي مظبوط وانت عارف إنه مظبوط، تعالى ناكل لقمة حلوة كدة وناخد وندي في الكلام، أنا أقول لك المعلومات الجديدة اللي عندي عن السَّفَّاح وانت تقول لي قصتك». ولا أدري لماذا انصعت له رغم علمي بكونه نصاب، ربما ليأسي الشديد أو مللي، ولكني وافقت وقررت مسايرته.

كان موسى بشكل عام سلسًا كثعبان مقنعًا كالجدات، يمشي في الشوارع موزعًا الجرائد مع سلاماته وتحياته على كل مَن في المدينة وكأنه يعرف الجميع واحدًا واحدًا باسمه وكنيته وعمله، يتقبَّل تحياتهم أو إهانتهم على حدٍّ سواء برحابة صدر وبدعابة في المقابل، أينما سار ينثر حالة من الألفة حتى ولو كان بغيضًا، وأينما وقعت أقدامه يدب نوع من الروح، حتى لو بالشجار، فيحيي ذاك ويغازل تلك ويسب رجلًا إيطاليًّا قائلًا: (فافانكولو) ثم يخبرني بهدوء أن هذا الترزي الوغد سرقه من أيام في مترين من توب قماش. أخذني إلى مطعم صغير في العطارين يبيع الفول والفلافل، وعندما جلسنا عرف نفسه مجددًا: «محسوبك موسى ياقوت، صاحب جرنال الخبر».

فقال صاحب المطعم متهكمًا وهو يرص الأطباق أمامنا: «قصدك تكية الخبر». لكن تجاهله موسى الذي غمس لقمة في صحن الفول أمامه وقال: «أصل محسوبك يهودي، فتلقاهم بيشتموا جرنالي في العلن بس في السر بيقطعوا روحهم عليه». غلبني الفضول فسألته ساخرًا: «الجرنال بتاعك ده بيتباع أصلًا؟».

ـ سيبك من الأرقام المعلنة يا أفندي كله فشنك، الأهرام جرنال الفرنساوية، المؤيد جرنال الخديوي الخصوصي، والمقطم بتاع الإنجليز. مافيش حاجة بتاعة الناس غير الخبر، وممكن جرنال الأنُس********.

ـ طب خليني أؤكد لك أن التاريخ مش هيفتكر جرنالك ده حتى.

ـ وانا مش عايزه يفتكرني ...

ـ لا يا شيخ؟

ـ يا سنيور التاريخ ده مش بتاع اللي زيي وزيك، ده بتاع المؤسسات والجماعات، إنجليز وحكومة والذي منه، يكتبوه هم ويقيفوه على مزاجهم، إنما أنا؟ أنا ذرة تراب، زيي زي باقي الناس عشايا بكمله نوم، عشان كدة بيحبوا الجرنال، عشان شبههم.

ـ ما لازم يحبوه، مش جرنال أصفر؟

ـ هو كده، الشعبي القريب من الناس يبقى اسمه أصفر، حجة البليد.

ـ مافيش أسهل من الإشاعات والفضايح، اللي بتعمله ده مافيهوش شطارة.

ـ لو على الشطارة يافندي فأنا رئيس التحرير، والمحرر، والرسام، والموزع، مافيش في جرنالي كله موظفين غيري، وبعدين يا مونبيه هي إيه الصحافة؟

مضغ لقمة كبيرة مع بعض البصل الأخضر وأكمل: «الجورنالجى مننا زيه زي الآلاتي والمونولوجست لامؤاخذة، بياخد فلوسه عشان يسليك ويقدم لك وجبة طِعمة تنسيك الهم، عناوين مملهلبة وأخبار سخنة. النفس البشرية تموت في الفضيحة، الجريجي والمصري والإنجليزي يختلفوا في كل شيء لكن يشتركوا في حب الفضيحة، إنما كشف الحقيقة والرسميات دي تخليها للبوليص».

ابتسمت مبهورًا بعض الشيء بهذا النصاب الذي يصلح بشدة لمنظومة الصحافة في الزمن لي، فقلت وأنا أشرب من الكوب النحاسي الموضوع أمامي: «هتبقى صحفي شاطر سنة ٢٠٢٠». وقهقه موسى بدون أن يفهم ما أعنيه، شخر ضاحكًا وقال بينما يفرك رغيفين ببعضهما البعض: «ألفين؟ يا مين يعيش، ده يكون اليهود لاقولهم بلد تلمهم».

ثم أخذني في حديث مرتجل عن اللا شيء وهو يلتهم الطعمية والأرغفة أمامه؛ الخديو وأسعار الأفيون وتجارة العبيد وبمبة سخسخ********، ضربهم كلهم في خلاط وانتقل بسرعة وسلاسة من موضوع لآخر حتى انتهى ومسح طبقه، ثم تحسس جيوبه بحركة مسرحية مفتعلة وقال: «يا خبر! بايني نسيت الفلوس في البيت، معلشي بقى حاسب انت النوبة دي».

بالطبع نسيت النقود يا حلنجي، قلتها لنفسي ساخرًا وأنا أحاسب صاحب المطعم، وبطرف عيني ألمح موسى الذي استغل انشغالي معه ليحشو جيب سترته ببعض أرغفة الخبز البلدي، ثم مسرعًا يفرغ الفول من طبقي الذي لم أمسه في أنصاف أرغفة معدًا شطائر، ثم يقطع

صفحة من إحدى جرائده ليلف الشطائر فيها. راقني موسى نسبيًّا رغم مكره، أو على الأقل قل نفوري ناحيته، فهو مسلي إلى حدٍّ كبيرٍ وله عقلية نصاب ذكي.

ركبنا الترام وقطعت لكل منا تذكرة بمليمين في عربة تمتلئ عن آخرها بالأفندية والخواجات المتجهين لأعمالهم، وحتى يغطي على فكرة دفعي لنقود الطعام والتذاكر ثرثر موسى قليلًا عن الخواجة البلچيكي صاحب الترامواي وعن حفلة افتتاح الخطوط الكهربائية الجديدة وواقعة الكازوزة*******، وعندما فرغت جيوبه من المواضيع الجانبية غير من نبرته للجدية وقال: «قول لي بقى، انت مين يا أخينا؟».

ـ لما تقول لي تعرف إيه عن السَّفَّاح الأول ...

ـ وانا إيش ضمنني تتكلم يا حِدق؟

ـ أنا ماضحكتش عليك في المشرحة وفهمتك إني مديرها مثلًا ...

ـ حقك يا مسيو ...

قالها بابتسامة ثم دبَّ يده في جيب سترته الداخلي، أخرج ورقة مجعدة صفراء وابتدأ يقرأ منها ما كُتب من ملحوظات: «من قيمة كام يوم السَّفَّاح بعت على القراقول خروف جوه منه جواب، مش صحيح برضه؟»

ـ صح ...

ـ العبدلله بقى ناصح ومشي ورا قصة الخروف دي لحد ما وصلت للعيل الصغير اللي جابه القراقول وطلع يجري، ابن جزار في بحري، جاله راجل إنجليزي اشترى منه الخروف واتفق معاه يجي بيته ياخده ويبعته القراقول ...

ـ والعنوان معاك؟

ـ نمرة ١٦ في فيكتوريا ...

خفق قلبي، الأمل يولد من جديد! سألته إن كان متأكد فأجابني: «معلوم، ده لطش مني باريزة بحالها عشان ينطق». ثم سكت قليلًا فلم تتحدث سوى أصوات الترام على القضبان، وبعدها قال: «دورك يا جناب الملورد». بالطبع لم أكشف له حقيقتي، لكني كنت مرتاحًا

منتعشًا بعد ما قال وشعرت أني أدين له مقابل الأمل الذي مدني به؛ لذا كنوع من ردِّ الدين أخبرته بقصة ارتجلتها عن مذكرات مفقودة وجدتها بالصدفة في إحدى محطات القطار، كتب فيها السَّفَّاح خِططًا تفصيلية لجرائمه بالموعد والمكان ولهذا أنا أعرف ما هو مقدم عليه، قصة تصلح لجرنال أصفر يبحث عن المبيعات.

ثعبان لكن بإمكاني ترويضه واستخدامه، فكرت وأنا أستمع له مبتسمًا، فلم أكن أتوقع نشوء أي نوع من الصداقة بيني وبينه على كل حال ولكنها حدثت، وكعربون على تلك الصداقة أهديته سيجارة ماركة ماتوسيان وأهداني هو عددًا من جريدته ثم رحنا نتبادل مع نعرفه عن خبايا وأسرار الليالي الماضية من جرائم، حتى أوصلني الترام للمنزل.

ودعت إياه في حال أفضل مما كنت عليه، بداخلي أمل وطاقة خُلقت من العدم دفعتني ألَّا أتكاسل وأتوجه فورًا لشقة بنيامين لإخباره بالمستجدات. طرقت باب الخواجة فلم يجب، وبدلًا منه فتحت لي امرأة خمسينية، نحيلة ومهيبة المظهر كمومياء فرعونية محنطة، ذات بشرة قمحية داكنة، ترتدي جلبابًا رثًّا يظهر من تحته جلدها الجاف المشقق، لكن في عينيها نجمتين عسليتين تلمعان بوضوح، ومن تحت غطاء رأسها برزت خيوط من الشعر الأبيض، هذه هي حِنة بكل تأكيد! أخيرًا رأيت النبية صاحبة الكرامات! استأذنت منها الدخول فأفسحت لي الطريق مصلصلة في كل خطوة تخطوها بكم هائل من الحلي المزيفة حول رقبتها أو يديها. كانت نموذجًا صارخًا معاكسًا لكل ما يمثله بنيامين من عِلم وحضارة غربية مضادة للخرافات، لكنه قِبل معيشتها في منزله بكل رضا بل وتبجيل، كم هو غريب الإنسان. دخلت الشقة خلفها سائلًا عن بنيامين فأجابتني أنه بالخارج مع زوجته وابنته.

ـ «اتفضل اجعد يا بيه».

قالتها بلهجة صعيدية وبصوت هادئ متآكل، لكنه رغم ذلك حمل في طياته وقارًا غريبًا.

سألتها بأدب: «انتي حنة؟» فأومأت إيجابًا، وبدون أن أدري وجدت الكلام يطير خارجًا من فمي: «انتي اللي قلتي إني همسك السَّفَّاح».

فرفعت حاجباها في دهشة قائلة: «سفاح إيه؟» ...

وقفت حائرًا مرتبكًا للحظات، سألتها عن النبؤة قبل أن أدرك بغباء أن هذه النسخة من حِنة لم تتنبأ بعد بشيء؛ لأن ميرتل لم تُقتل حتى الآن. إلا أنها، وبدون مقدمات، افترشت الأرض في وضع القرفصاء وقالت بابتسامة ظهر من خلفها صفًّا من الأسنان الصفراء غير المنتظمة: «معرفش جصدك إيه يا بيه ... بس ممكن أجرالك الفنجان».

أمام ابتسامتها انصعت وعلى الأرض قبالتها جلست، فكان لنظراتها القوية مع هدوء الشقة البالغ نوعٌ من أنواع السحر، كتعويذة تسبح في المكان وتسلب الإرادة لم أستطع الرفض، كما أن الفكرة نفسها أثارتني؛ لذا عندما ناولتني فنجانًا يحتوي على بعض القهوة الباردة، شربته بلا نقاش. ها هي لحظة الحقيقة آتية، ارتفعت في قلبي الطبول وفتح العالم ستارًا عن العرض، هيا احكِ لي مستقبلي أيتها النبية وأخبريني ما أنا بفاعل، أرشديني للطريق وأظهري لي الحق، فما عدت قادرًا على الإيمان بنبوتك أكثر من ذلك.

عندما انتهيت من فنجان القهوة البشع أخذته مني حِنة ومارست عملًا اعتادت عليه: أولًا أخذت ترجه برفق، ثم أفرغت بقايا البنُ على راحة يدها، وشوشتها، وبعد نفخة فيها فردت البن على الصينية كرسامة وراحت تهمس بكلمات خافتة متلاحقة، للحظات أغمضت عينيها، تأرجحت للأمام والخلف مرددة الكلمات الهامسة، ثم فتحتهما عن آخرهما فجأة. انتابني الرعب وأنا أشاهدها تعقد حاجباها البيضاوان في تعبيرٍ مقبضٍ، وتضم شفتيها الرفيعتين الشاحبتين قبل أن تسكن تمامًا كالصنم ... ما لك تصمتين يا امرأة؟!

تكلمي، بشريني، لا تتركيني للتفسير، في تعبيراتك أقرأ بوضوح كلمات أسف وبؤس!

سألتها عمَّا رأت فقالت بعد أن أشاحت بوجهها للسقف، وكأنها تحدِّث شخصًا وهميًّا بالأعلى: «هتموت».

كررتها ثلاث مرات وهي تتحدث إلى تلك الشخصية الوهمية في السقف، وكل مرة كانت بمثابة ركلة في بطني، فجأة صارت في نظري المخلوق الأكثر قبحًا في العالم، لونها الشاحب شيطاني وعيناها العسليتان بِركتان من الطين، وشعرها الأبيض خيوط من شبكة عنكبوت سام. تخيل معي أن تسمع بأذنك نبؤة موتك، من حنجرة متهتكة كتلك، ومن امرأة من المفترض أنها في منزلة الأولياء، شعور أسود بارد، بمثابة استخراج مبكر لشهادة وفاة رسمية، خاصةً أنني أتعامل مع الموت كأنه فكرة بعيدة لا تحدث في عالمي، كما يتعامل الأطفال مع

الأشباح بمنطق أنك إذا أبعدتهم عن تفكيرك فلن يكون لهم وجود، فلا تدخليه عالمي يا نبية الخراب، لا تزرعي الفكرة في رأسي عليكي اللعنات.

فزعًا قمت، لا إراديًّا ابتعدت عنها خطوتين، وبعد فاصل من التحديق فيها دون أن تنزل عينيها عن السقف استطعت انتزاع نفسي بالكاد من رمالها المتحركة، مبحوح الصوت قلت إن عليَّ الذهاب وخرجت من الشقة مسرعًا بلا التفاتة واحدة خلفي، أتنفس هواءً مخلوطًا بخوفٍ، وأبني في رأسي حصنًا من حجارة الإنكار مدعومًا بأسمنت العلم. هذه دجالة بكل تأكيد، ذلك الذي يقرأ المستقبل من نصف كوب قهوة بارد بإمكانه أن يحكم العالم في نصف ساعة بدلًا من العمل في بيوت الأغنياء والعناية بفضلاتهم، هكذا قلت لنفسي راكلًا أي فكرة حول الموت من رأسي، ولكن قلبي المذعور لم يقتنع، حاولت إقناعه لكنه رفض، فليذهب للجحيم إذن.

***

إل راجاتسو: كلمة إيطالية تعني «الولد»، وسُميت بهذا الاسم نسبة لزعيمها القزم الإيطالي، ورغم أن اسمها مُشتق من ضآلة جسده وقِصَر قامته لكنه كان رجلًا قويًّا حادَّ الطباع.

جريدة الأنُس: أُنشِئَت في شهر يوليو (س.م.ت) على يد العايقة نعمة المزين الشهيرة بـ(زبدية) عندما رفضت جريدة الأهرام منحها الأبونيه السنوي الخاص بالجريدة بسبب سمعتها السيئة، وكرد فعل غاضب أنشأت زبدية الأمية بمساعدة عاهراتها جورنال الأنس الذي حقق نجاحًا باهرًا في كل الأوساط لما احتواه من لغة بسيطة ومواضيع قريبة من رجل الشارع، بالإضافة إلى بعض الخلاعة.

بمبة سخسخ: راقصة مصرية مغمورة من مواليد محافظة قنا، اشتهرت في فبراير (س.م.ت) بعد أن أطلقت على نفسها اسم بمبة سخسخ نكاية في بمبة كشر، فذاع صيتها. اشتهرت بمبة سخسخ برقصة الوابور، وتكاثرت الشائعات حولها بكونها أخت بمبة كشر، حتى تقابل الاثنان في فرح أحد الباشوات (أغسطس س.م.ت) ونشبت بينهما مشاجرة حريمي دامية على أنغام (يا سمباتيك خالص يا مهندم) نتج عنها فقدان سخسخ لعين وكشر لصف أسنان.

واقعة الكازوزة: في حفل افتتاح خط التراموای الكهربائي (مايو- س.م.ت) شرب الجمهور كازوزة شويبس للمرة الأولى، وبعد أن حاز إعجاب الجميع بشدة أعلن وكيل الشركة تبقي آخر زجاجة، مما أسفر عن سقوط ١٦ مصابًا و٢ قتلى في معركة بالكراسي الخشبية والقباقيب، وتم تحريم المشروب تمامًا في أرجاء المحروسة.

- 19-

كانت مشاعري متشابكة مختلطة، ففي صباح واحد تلقيت خبرين متناقضين حملَا معًا اليأس ونقيضه، الخبر الأول أن موسى ياقوت كاذب ـ مجددًا ـ استغلني من أجل معرفة تفاصيل جديدة حول قضية السَّفَّاح ونشرها في جريدته، وأنه لا يوجد منزل نمرة ١٦ فيكتوريا من الأساس، مجرد كذبة ملفقة حتى يتم جزءَه من الصفقة ... يا لي من ساذج مغفل! ولكن ما منعني من الانفجار غضبًا كان ثاني الأخبار.

عديلة، الشابة المصرية التي رفضتُ ملاحقة الشيطان في أول ليلة حتى أنقذها، استفاقت أخيرًا من الغيبوبة التي سقطت فيها، وبمعجزة فتحت عينيها لكنها لم تتحدث بعد. عديلة، تلك السمراء هي ملجأي الأخير والصخرة المستوية التي قد أثبِّت عليها قدمي قبل أن تجرفني أمواج الوقت، بعد أن جرفتني بالفعل أمواج الشك التي ولدتها نبؤة حِنة الجديدة، فمنذ لقائي مع الخادمة صار مزاجي عكرًا، تحولت نظرتي لكل الموجودات إلى نظرة سوداوية مشئومة: السماء غائمة والوجوه مكفهرة والجنون مطبق من بعد هجمة السَّفَّاح الأخيرة، الطقس مثالي للموت وتحقيق نبوءة أخرى من نبوءاتها.

لم أطق الانتظار لحظة واحدة بعدما وصلتني أنباء عديلة، فتوجهت مع بنيامين في عربته ذات الخيول إلى اسبتالية الأزاريطة حيث تتلقى الشابة علاجها، رحلة قصيرة لم نتبادل خلالها أي كلمات ولا نظرات، لا أحب هذه النسخة الساذجة الأصغر من بنيامين، أو ربما لا أحب جهلها بما سيحدث، في غربتي الزمنية أفتقد بشدة ذلك النوع من الأمان الذي كانت تمدني به تجربته المسبقة للأحداث ومعرفته بكل شيء.

ما أن وصلنا، أكلت سلالم الاسبتالية البيضاء وتركت العجوز خلفي بكل قلة ذوق، كان عطشي للتخلص من عبء المهمة هو المحرك الرئيسي خلف كل تصرفاتي الآن، والكياسة صارت في آخر قائمة اهتماماتي، فلم أعبأ بنظرات الأطباء والممرضات أو أكترث حتى لشجرة عيد الميلاد الجميلة التي زينت مدخل الاسبتالية. في الممرات المتشبثة برائحة المعقمات الكحولية سرت مسرعًا، أسابق الوقت الذي يرقص رقصته المجنونة ويسابقني

بأميال، أسأل أي مخلوق عن غرفة عديلة، أطرق أبوابًا وأدخل عنابر وببصري أفحص السرائر المعدنية والمرضى النائمين أسفل توبيخ الممرضات الغاضبات.

حتى لمحت في آخر الطابق الثاني جمعًا صغيرًا تموضع أمام غرفة: طبيب، وممرضة إنجليزية نحيلة، وهاريسون باشا، بصحبة اثنين من الضباط ورسامًا. حياني الحكمدار وصافحني مصافحة إنجليزية عصبية كادت تفتت يدي في قبضته، أخبرني أن الضبطية تعمل في اللحظة الراهنة على تفتيش كل الكنائس والجمعيات الدينية التي تحمل اسم العذراء مريم، وأكد أنه رفض استجواب المريضة إلا في حضوري، ما زال العجوز يؤمن بي، وهذه المسئولية تطوّق عنقي بشدة وتصعّب من تقبلي للهزيمة. قبل أن ندخل شدد علينا الطبيب ذو المعطف الأبيض والشارب «الهيتلري» أن عديلة مجهدة بشدة ولن تستطيع الحديث إلا في أضيق الحدود، فأومأ هاريسون متفهمًا وهو يخرج غليونًا خشبي من جيبه، لكن منعه الطبيب بتهذيب قائلًا أن التدخين داخل الاسبتالية ممنوع، فاعتذر هاريسون بارتباك لا يليق بحكمدار الإسكندرية وتعلَّل بتشتت ذهنه، وفي سري عذرته.

على باب الغرفة وقفت مترددًا، يستدعي مخي معاناة ليلة القتل الأولى وتفاصيل جريمة عديلة، حتى شعرت بيد بنيامين تربت على ظهري فانتفضت، ثم دخلت الغرفة البيضاء خلف الخواجة الذي دفع بابها بعكازه لتأتينا أصوات الضابط مستجوبًا عديلة التي عاونتها الممرضة على الاعتدال في نومتها.

كانت في حال يُرثى له، جثة حية، افترشت الجروح والسحجات وجهها ونُتف بعض من شعرها الأسود الخشن من جذوره كريش دجاجة، كما اختفت مساحات مختلفة من جسدها بالشاش الطبي، وبغطاءٍ ثقيلٍ من الصوف تدثرت. وقفت بعيدًا في الركن أستمع لأسئلة الضابط لها، بأعين نصف مغلقة وإيماءات ضعيفة تجيبه الشابة فلا تتحدث إلا اليسير من الكلام وبصعوبة بالغة. يسألها كيف كان شكله، عيناه وأنفه ولون بشرته، فتجيب على تخميناته بالنفي أو الإيجاب فقط في حين يرسم الرسام بقلم من الفحم كل ما يسمع، وبين كل سؤال تقريبًا كانت تتأوه متألمة، فترسل تأوهاتها بعضًا من آلامها في عظامي ويقشعر لها جسدي.

لم يتحرك أي منا بطول الاستجواب، فقط كان هاريسون يتدخل كل بضع دقائق ليلقي بملحوظة صغيرة أو ليحاول مواساتها، أما بنيامين فكان يهز رأسه متوترًا بلا نطق، الغرفة تقف على أطرافها، تسيطر عليها حالة من الترقب وتربطها كحبل مشدود عن آخره، ولا أدري لماذا، لكني قاطعت الضابط في أثناء استجوابه، داهمني سؤال مفاجئ فسألت بدون مقدمات: «كنتي على معرفة سابقة بالسَّفَّاح قبل كده؟».

حلَّ صمت ضخم في الغرفة كسفينة عملاقة ترسي في كل أرجائها، فلم ينطق أي من الحاضرين حتى قالت عديلة بصوتها الخافت البطيء وهي تلتفت لتواجهني: «أنا ... عرفته ... من ... الح ...». وانقطع الكلام عندما وقع بصرها عليَّ، من اللامكان ضربتها صاعقة ذعر فانتفض جسدها واتسعت عيناها، في جسدها المتهالك دبت طاقة خفية، السمراء أشارت بسبابتها نحوي وصرخت كما لو لدغتها حشرة أو عضها ثعبان، قبل أن تغوص بظهرها في السرير وتشد الغطاء حولها في حركة دفاعية، ولما تعالى صراخها واستمر، سد الجميع أذنيه بينما حملقت فيها غير فاهمٍ، ومن بين الصراخ قالت: «امسكوه ... امسكوه».

صقيع مفاجئ قد حلَّ، قشعريرة باردة زحفت في جسدي، خِلْت للحظة أن صراخ عديلة الحاد سيمزق أذني أو يفتت زجاج الغرفة قبل أن أشعر بيد الحكمدار تقبض على رسغي وتسحبني خارجًا وأنا في حالة من التوهان، ثم يكتمل الكابوس بمشهد الطبيب والممرضة وهما يكتفان جسدها الهائج في محاولة للسيطرة على ذلك المس الذي أصابها، والذي انتقل للغرفة بالكامل؛ فالضابط انتفض والرسام فزع لتسقط رسمته أرضًا، وبنيامين تراجع للخلف قلقًا. نظر إليَّ الحكمدار بعصبية وتمتم بلغة عربية غير سليمة وهو يشعل غليونه برغم تحذير الطبيب: «معلش، مجنونة، أكيد بتخرف من اللي حصل لها».

ولكني لم أقتنع وبداخلي أخذ شقٌّ يتسع، يدي المرتجفة تنذرني بكارثة وشيكة وترقص رقصة محمومة مع قلبي المضطرب، لقد أشارت لي عديلة كما لو كنت نذير شؤم فماذا يعني هذا؟ النظرية في رأسي بدأت تتكون وتدرك الحقيقة، سكان العمارة هم القتلة، ووجودي في هذا الزمان يسهل من عمليات قتلهم بطريقة ما، أنا طُعم يلهي الجموع.

من خلف الباب نصف المغلق شاهدت عديلة التي غابت عن الوعي مجددًا، وبجوارها وقف الطبيب القلق مقطب الحاجبين يراقب علاماتها الحيوية، وعلى الأرض لمحت رسمة غير

مكتملة بالفحم، لنصف وجه أعرفه جيدًا، وملامح أحفظها عن ظهر قلب.

***

31/12/2023

ليلة رأس السنة مناسبة تعيسة لأنها لا تذكرني سوى بإيمي

ما زلتُ أتذكر، بالتفصيل، مقابلتي الأولى معها. أول مرة أراها فيها وأول مرة أشعر بذلك الموت المؤقت، اللذيذ، لحظة انسحبت فيها روحي خارج جسدي وشعر قلبي الصدئ بنبضة الحب العجيبة.

في حفل توقيع رواية آيريس كانت حاضرة، مشعة كشمس صغيرة ومنها تخرج حيوية غريبة تغطي على الكل، كعادتها مفرطة الحركة وكثيرة الكلام، فعرفتني بنفسها وأخبرتني أنني كاتبها المفضل، وطلبت مني التوقيع على نسختها من الرواية فحرصت على كتابة أفضل توقيع في حياتي، على الفور أسرتني تلك الكتلة من الطاقة والشعر الأحمر. أخبرتها مرتبكًا أن شعرها جميل فأجابتني ضاحكة أنني كلي جميل، ثم قدمت لي ورقة مطوية باللون السماوي كتبت بها رسالة تحتوي على نظريات وآراء حول روايتي الأخيرة (ديابلو) وكيف كان يمكن للنهاية أن تكون أفضل، زينته ببعض الرسومات الرديئة للشرح والتوضيح. أعجبت بجرأتها ووقعت في غرام هذا الجواب اليدوي، وباقتحامها السلس لحدود شهرتي، وعند قراءة أخرى للجواب وجدتها قد تركت في نهايته بريدها الإلكتروني مع ملحوظة تقول إنها لم تترك رقم هاتفها لأنها تكره مكالمات الهاتف ـ مثلي ـ وتفضل التواصل بالكتابة، وبعد سلسلة من الرسائل والمحادثات تقابلنا، ثم سرعان ما اكتشفت أنني فتحت بابًا مفاجئًا على الجنة، مكانًا مليئًا بالأشجار الظليلة وأقواس القزح.

تمتلك إيمي قدرة سحرية على جعلك تشعر بأنك في حالة جيدة دائمًا حتى لو في جنازة، فأنا لم أعرف نسختي الأفضل إلا عندما عرفتها، أو بالأحرى لا تخرج تلك النسخة إلا في وجودها، لإيمي معرفة الأغنياء وحكمة الفقراء، فلا هي جاهلة كالآخرين ولا مغيبة عن العالم الحقيقي كالأولين، عاشت في أوروبا ومع ذلك غارقة في هموم وطنها، لبست الحرير لكنها تشعر ببرد سكان العشوائيات، تزورهم وتتواصل معهم بكل ما يمكن من تقمص لأوجاعهم

ومشاعرهم، تذكرني بخالتي لكنها نسخة أفضل في كل شيء: أكثر شبابًا وجمالًا، وبالطبع ليست خالتي.

لونها المفضل هو البرتقالي، طعامها المفضل هو النودلز الكورية، تحب التنس والحيوانات وفرقة بينك فلويد، ولا أدري كيف تجاوزت كل بحار ومحيطات الأدب العالمي التي نهلت منها، واستقرت بسفينتها في بحيرة رواياتي الصغيرة، أنا الغبي الذي ضمن وجودها، الذي اعتاد المكوث في الجنة حتى تاق إلى الغوص في الوحل والتمرغ في قذارته.

كل هذا تذكرته على الأريكة الزرقاء وأنا أقلب صورها المحفوظة على هاتفي في أمان، لن تُمس ولن تُحذف على أمل عودتها، ستبقى هنا إلى الأبد كدليلٍ حقيقيٍّ على أنني بالفعل عاشرت هذا المخلوق وأن هذه الذكريات المثالية لم تكن أوهامًا من نسج خيالي، دليلٍ على أن الملائكة بالفعل موجودة. كانت تستوقفني بعض الصور الخاصة مفجرة مرارة بشعة في حلقي كدماء سعادتي المذبوحة، ولكني كنت أطيل النظر، لا تحدجني بتلك النظرة يا عزيزي أنا لست مازوخيًّا، أنا فقط أدمنت ذلك الألم الذي يصاحب رؤيتي لصورنا، كمداعبة جرح مؤلم في الجسد، على الأقل يخبرني أنني لا زلت أشعر بشيءٍ من بعد رحيلها.

من تحت ركام الكآبة الذي غطاني بعد فشل تلو الآخر لاحت في خاطري فكرة، الهاتف بين أصابعي والشجاعة المستحدثة تملأ قلبي والليلة هي ليلة رأس السنة، أنسب وقت للغفران والبدايات الجديدة، فلم لا؟ سأتصل بها، سأعتذر وأتأسف وأواجهها كالرجال كما واجهت السَّفَّاح وضبطية الإسكندرية ورجال إلـ راجاتسو، ولن يتطلب الأمر سوى ضغطة زر بسيطة، ولكنها لم تكن بسيطة ولا هينة، فأصبعي أثقل من المحيط، يحمل وزنَ خيانتي والخوف من الرفض، تلك المسافة بين اسمها وأصبعي أطول مما ركضت في حياتي، ولكنني متشجعًا ضغطت اسمها، و... ... لا شيء. حجبت إيمي رقمي عن الاتصال كما حجبت عن حياتها كل ما يخصني من قبل. هذا وقت مناسب للشعور بالغضب، وللشعور بالراحة أيضًا؛ لأنني وبالرغم من ذلك لم أتعرض لرفضها مجددًا، ما يزال احتمال قبولها إياي موجودًا، وأحيانًا يكون عدم التأكد أفضل خيار.

ليلة رأس السنة مناسبة تعيسة، وليلة رأس تلك السنة هي الأتعس على الإطلاق، الأنوار مضاءة مبهرجة في الشوارع خارجًا احتفالًا بعام جديد، ولكن هنا، كانت شقتي مظلمة

مقبضة، ينبع ظلامها من داخلي بالتحديد. منذ تلك الليلة مع عديلة لم أذق طعم السلام، طرحت شجرة الشك في صدري محصولًا جديدًا من فاكهة لاذعة مُرة، سقط ثمرها في مخي وتمخَّض عن أفكار غريبة مظلمة بدأت تراودني، أهرب منها سريعًا وأشغل نفسي بالتفكير في إيمي أو الرواية الجديدة التي لا أجالسها إلا على فترات متباعدة، ثم أتركها وأنام بعد أن يسير على رأسي الصداع، وتعبر رؤى مشوشة رأسي.

ليلة رأس السنة مناسبة تعيسة باردة، وليلة رأس تلك السنة لها طقس ثلجي أكثر من مناسب للبرودة التي سيطرت على علاقاتي ببنيامين وكل سكان العمارة: أقل الكلام هو ما أتفوَّه به، وردود أفعالي تجاههم ميتة، بعد عودتي من (س.م.ت) أصيب بنيامين بذعرٍ حقيقيٍّ عندما علم بما حدث في الليلة الثالثة والتغيير الذي طرأ على نمط السَّفَّاح، سألته عن الخلفية الدينية فأجاب أنه لا يعرف عنها شيئًا، ولما أخبرته بأعراض الأحلام والهلاوس التي بدأت تأتيني بكثرة قال إنها من الأعراض الجانبية النادرة للسفر الزمني.

أما باقي السكان فخيَّم عليهم وجوم تامٌّ، فقط كان إسحاق الوحيد الذي بدا سعيدًا مرتاحًا بعد أن سمع قصتي، بغرابة شديدة لم تفارق الابتسامة البلهاء وجهه على الرغم من بعض محاولاته لكبتها. أنا متيقن الآن أنه لا يوجد سر، بل حفنة من الأسرار، جثة مدفونة تعفنت وفاحت روائح عفنها، ولن أهدأ إلا عندما أنبش خلفها وأستخرجها.

في ليلة رأس السنة كان السكون وكان الصمت، أهل العمارة نائمون ـ أو هكذا يدعون ـ عدا زكريا الذي كان في المخبز، فنزلت لأشرب قهوتي معه برفقة الزبائن الذين يأتون ويذهبون احتفالًا بالعام الجديد، تحدثنا في أمور سطحية للغاية تملؤها الضحكات الخفيفة، كان السكندري يشعر بمسئولية تجاهي وتجاه معاناته فأراد أن يخفِّف عني بأبسط الأدوات، فنجان قهوة وكوروسون بالزبد، ثم غنى معي أغنية عتيقة للعام الجديد تبعها بقهقهة من قهقهاته المرحة، ولكنه لم يفلح، أنا ميت من الداخل ولم يكن هناك من شيء على وجه الأرض بإمكانه أن يريحني سوى الحقيقة. قبل انتصاف الليل اعتذر مني لأنه سيغلق المحل، فساعدته وودعته لأني بحاجة لبداية العام الجديد على البحر، فقال بحزنٍ حقيقي وهو يضم شفتيه:

«يا بختك يا علاء، على الأقل بتخرج وتشم هوا، احنا ممنوع نخرجوا من العمارة من أول يوم، عارف؟ أنا اتوحشت البحر أكتر من أي شيء، اتوحشت البحر والشمس وزوجتي و...».

ـ زوجتك؟

وكأن أحدهم قد سكب جردلًا من ألوان الدهان على وجهه، تلوَّن بلونٍ أو اثنين واصطبغت أذناه بالأحمر القاني ثم قال متصنع قهقهته: «قصدي مفتقد المشي مع أليس ... على البحر يعني».

حتى أنت يا زكريا؟ قلتها لنفسي في غضبٍ جمٍّ خرج على هيئة ابتسامة ساخرة، ساعدته صامتًا على إنزال البوابة الخارجية للمحل، وبدون أن أبادله نظرة واحدة أشعلت سيجارة وابتعدت خارج فناء العمارة، تعصف بي وبصبري أعاصير من غضب جاهدت لكتمها.

خطوتي القادمة واضحة أمامي وضوح القمر في سماء منتصف الليل، بلا تفكير أعلم أنني سأبحث في القبو، حتمًا سأجد هناك الحقيقة أو بعضًا من آثارها.

بعد تمشية في الشوارع بطول أنفاس السيجارة ـالتي دهستها تحت قدمي عندما فرغت منهاـ عدت بهدوء للعمارة متسللًا تحت غطاء ضوضاء الاحتفالات وأغاني العام الجديد التي تنبعث من كل مكان، أثناء دخولي شعرت بجسد عثمان النائم ينتبه على مصطبته، ألقيت عليه السلام فلم يرد مدعيًا النوم ولكني علمت أنه يراقبني من بين أعين شبه مغلقة، شعرت بنظراته تلتصق بجسدي مثل العِتَّة، حسنًا يا أدنى درجات السلم التطوري، سأمثل أنا أيضًا صعودي لشقتي.

توقف بي المصعد في الدور الرابع، فتحت باب شقتي وأغلقته مجددًا بصوت حرصت أن يكون مسموعًا لأي من المستيقظين، وعلى السلالم نزلت بهدوء. الدرجة بعد الدرجة والدور تلو الآخر، أحسب أنفاسي وأكتمها زاحفًا بخطوات بطيئة حتى بلغت باب القبو، يمينًا ويسارًا صوَّبت نظرات قلقة من أعلى كتفي، قبل أن أدفع الباب الحديدي الأسود فينفتح في مفاجأة سارة. من الداخل قابلني ظلام عميق، تحسَّست طريقي عبره ونزلت درجات سلم لا أراه، بالتدريج تكيفت عيناي مع السواد بالأسفل واستعارت بعضًا من الضوء الشحيح القادم من فرجة الباب لترسم به تفاصيل واهية للمكان لم أقنع بها، نافذ الصبر أخرجت قداحة من جيب قميصي وبدأت في اكتشاف القبو على ضوء لهبها الخافت؛ كراسي خشبية، أرفف تحمل

لوحات و قوارير ، طاولة مستديرة عليها بقايا شموع ذائبة و طعام لم ينتهي ، أوراق وصور فوتوغرافية للضحايا و رسومات لأماكن رأيت معظمها من قبل: استبتالية الأزاريطة ، جرائم المنشية الثلاثة، والمسرح الروماني.

لفت نظري على الطاولة إقرار يدوي مكتوب باللغة العربية، أمسكته وقربته من اللهب ثم بدأت في قراءة الكلمات بأعين القداحة: هذا إقرار مكتوب بيد إسحاق أفندي، يعلن فيه تنازله عن الكمبيالات الخاصة بالخواجة بنيامين وأنه لم يعد يدين له بشيء، بنيامين المليونير مدين لإسحاق؟ هذا غريب لأقصى حد، أقصى مما ظننت أن حدود هذا اللغز تمتد.

على الأرض تحتي سمعت صوت زجاج يتفتت بالتزامن مع خطواتي، قربت هالة الضوء منه فوجدت شظايا زجاجية متناثرة وبقعَ دماء جافة على الأرض، وكأن شجارًا أو معركة قد دارَا هنا، فحرصت أن تكون خطواتي مدروسة أكثر وأنا أدور حول المائدة فاحصًا أوراقها بسرعة لعلي أجد دليلًا يقودني، حتى وجدت خطابًا آخر بالفرنسية وبخط بنيامين، كان خطابًا لم يكتمل بعد، انحنيت فوق ورقته ومشيت ببصري على سطورها:

«عزيزي أنا ... أكتب إليك هذا الخطاب العاجل بعد التحول غير الطبيعي الذي طرأ على مجرى الأحداث، حساباتي لم تكن لتخطئ أبدًا ولكن يبدو أن ما فعله علاء في الليلة الأولى بإنقاذ عديلة قد ألقى بظلاله على سير الأحداث المتبقية، لكن لا تقلق، ما زال هناك أمل، كما أخبرتك في الخطابات الماضية فالليلة الأخيرة تحتوي على أهم ...».

وتوقف الخطاب هنا.

لم تسعفني كلماته المنقوصة بل زادتني حيرة وقتلت نظريتي الجديدة، فتخبطت مرتبكًا في الظلام وتعثرت حتى كدت أسقط أحد الكراسي ، هنا قررت الاكتفاء والخروج قبل أن يكشفوا أمري، أكره أن أخرج في بحثي بأسئلة أكثر من الإجابات ولكن على الأقل عرفت أين سيكون بحثي القادم، السر يكمن في جوابات بنيامين لنفسه.

في طريقي للخروج فوجئت بقطة من قطط ماري على عتبة باب القبو، وكأنها تنتظرني، تبتسم في براءة قنبلة موقوتة تعد عدًّا تنازليًّا حتى تنفجر في مواء يجذب عثمان وينسف كل خططي، حاولت تجاوزها بلطف، لكنها بلا مقدمات أخذت تموء بإصرار لم أجد أمامه بُدًّا من التقاطها على الفور حتى تسكت، فخربشتني، عندها أطبقت يدي على رقبتها البيضاء

غزيرة الشعر، خنقتها ومنعت عنها أسباب الحياة بلا أسباب منطقية، وكأن شخصًا آخر لبس يدي وتحكم فيَّ، تحوَّل غضبي وإحباطي من سكان العمارة لشحنة قاتلة عمياء، وبصعوبة بالغة جاهدت لأرخي يدي من حول رقبتها قبل أن تلفظ أنفاسها الأخير، فابتعدت مسرعة عندما أفلتُّها أرضًا، وهو ما أدى الغرض.

غاضبًا عدت أدراجي، فكرت أن أطرق الأبواب وأطلب اجتماعًا طارئًا بالسكان، أصرخ خلاله في وجوههم وأصارحهم بما أعرفه حتى ينكشف كل شيء، ولكني لم أكن أمتلك ما يكفي من المعلومات والأدلة، مجرد قطعة هنا وقطعة هناك من صورة كبيرة لا أعرف كيف يبدو إطارها، وهو ما سيسهل كذبهم عليَّ ، كما أن المواجهة تتطلب جذوة من اللهب لم أكن أملكها، فأنا أوازن دائمًا كل شيء بمنطقية وأضع حدودًا لما يمكن أن تصل له الأمور قبل أن أواجه، والمواجهة لا تتطلب حدودًا، المواجهة سقوط حر كنت أهابه دومًا حتى ولو معي كل الحق ... أفضل الاكتشاف بنفسي.

غريبة هي الطريقة التي تلاحظ بها الناس بعد أن تكرههم، كيف تصير أصغر تفاصيلهم مثيرة للتقزز والسخرية كما لو أبصرت بعد عمى، فهكذا أصبحت أرى بنيامين: قامته القصيرة وشاربه الغبي وحركات يده المجنونة، هل لاحظت من قبل تلك الطريقة المستفزة التي يقطع بها جُمله وكلماته؟ هكذا صارت كل مقابلة تجمعني به مؤخرًا ... مؤتمرًا لتضخيم عيوبه، واستماعًا صامتًا ممتعضًا لمحاولاته التمثيلية هو وسكان تلك العمارة الملعونة.

صباح اليوم التالي لاكتشافي القبو زارني برفقة إسحاق، بعصاه العاجية دقَّ على أرض شقتي في مرح معلنًا أنني سأعود هذه المرة مع إسحاق أفندي لأن لديه مهمة ليؤديها، وأنني سأعود بخطاب جديد لبنيامين (س.م.ت)، وهو ما أثلج صدري قليلًا. إمعانًا في الجفاء كنت قد قابلتهم بملابسي الداخلية التي لم أكلِّف نفسي عناء ارتداء سواها، فجلست على الأريكة بعد أن دعوتهم للجلوس وبسماجة استفسرت عن طبيعة مهمة إسحاق، الذي تعرَّق كالعادة وتأتأ ناظرًا لبنيامين، فقال الأخير بهدوء: «إسحاق أفندي عنده مأمورية خصوصي تبعي، هحتاج خبرته في دفاتر التجارة».

تجارة يا ابن النصابة، تقوَّس طرف شفتي في سخرية سرعان ما أخفيتها. حسنًا، تجارة أو زيارة لأطلانطس، على كل حال أنا أنتظر العودة أكثر منكم لأفتش في جواباتك القديمة،

هززت رأسي في موافقة فسألني بنيامين بما أشعر حيال المهمة بعد كل ما رأيت، أمطرني بكلمات لطيفة عن شجاعتي وعن المكافأة التي تنتظرني، فأجبته مقتضبًا أنني لا أشعر بشيء. لا لم أعد الحمار الذي يطارد جزرتك أيها العجوز، تمثيليتك الهابطة تدنو من نهايتها وسأفهم ما يدور خلف ظهري عمَّا قريب.

وعندما تكون قريبًا بالفعل من الحقيقة يعرف قلبك هذا ويشعر به، يعرف المسار الصحيح عندما تكون أقدامك فوقه، والآن كان يهمس خافقًا في صدري، غاضبًا لكن متحمسًا، سمعته يقول لي أننا على بعُد خطوات من اكتشاف كل شيء.

***

- 20-

سنة 1899 (س.م.ت)

صار الصداع أمرًا معتادًا، نزيلًا دائمًا في رأسي، حجز مع كثرة السفريات الزمنية غرفة خاصة لا يتركها إلا شحيحًا، حتى أن عدم الصداع صار هو الحدث النادر الذي يعبر بين الحين والآخر. هذه المرة وصلت بصحبة إسحاق، مترنحًا خرجت من الكابينة التي اتسعت لنا بالكاد، كالعادة تحفظ أقدامي طريقها عبر المعمل حتى المقعد الوثير الذي أرتاح عليه لحين تعبر غيمة الدوار، وبجانبي وقف إسحاق، كومة من الشحم المتعرق ترتجف تعبًا وحيرةً، وترتجف كذبًا أيضًا.

مغمض العينين أخرجت سيجارة من جيب قميصي وأشعلتها، سألني إسحاق عن الأعراض وإلى متى ستستمر فدعكت صدغي وأجبته غير مبالٍ والسيجارة في فمي أنه قد جرَّب هذا السفر من قبل ويعرف كل شيء، لا داعي لفتح مجالات من الحديث عديم الفائدة، وبعد دقائق قليلة تقيَّأ، بصوت متحشرجٍ مبتلٍّ كصوت صرصار يُدعَس، مما أجبرني على الخروج من المعمل بحثًا عن بعض الهواء الخالي من رائحة قيئه، دخنت في الطرقة أمام المعمل وأنا أتأمل إفريز السلم الأسود الممتد بشكل لولبي إلى أسفل، تتبعته ببصري، برأس خال من كل شيء عدا الصداع وفكرة واحدة تدور مثل هذا الإفريز: جوابات بنيامين ... لديَّ هاجس مقلق يأكلني من أن يكون قد أحرقهم أو دمرهم.

بدأت أصابعي تزحف على جيب سترتي الداخلي، تقاوم الرغبة الملحة في إخراج خطاب بنيامين الجديد وقراءته، فعملت على تفريغ كل ما استطعت من فضول في أنفاس السيجارة الصاعد دخانها للأدوار العليا، ولكني استسلمت وأخرجته أخيرًا، لم تطعِ أصابعي الأوامر. قلبته بينها ببطء، تحسست بإبهامي الختم القرمزي الخشن، في يدي صندوق بندورا سهل الفتح، وبحركة واحدة قد أُخرج من هذا الظرف البُني شياطين وأرواح مظلمة، ولكن لا، سيكون انتصارًا ناقصًا بل وربما قد ينقلب إلى كارثة، وأنا الآن أعي أن الأسرار ثمار، إذا قطفتها قبل أوانها ستكون فاسدة، اتركها حتى تتساقط من نفسها على رأسك كنيوتن، بفعل الجاذبية.

خرج إسحاق من الداخل يمسح ركن فمه بالمنديل القماشي ومنه تفوح رائحة القيء والعرق، اعتذر لي عمَّا حدث وقال لاهثًا أنه يحتاج للراحة بشدة، فأخبرته أنه لا بأس إذا أراد مشاركتي النوم في المعمل حتى الصباح. نار الفضول تحرق، تأكل، ترفع حرارتي كالجحيم، ولكن كان عليَّ تحملها لليلة واحدة فقط، فتجاهلتها بصعوبة وقبلت أن تمضي هذه الليلة أيضًا بلا أجوبة، وبجوار إسحاق استلقيت على السرير الصغير، لم أعترض ولم أتأفف، ولم أنم أيضًا، حافظ جسدي بداخله على تلك الحماسة التي تسبق اكتشاف الأسرار، وأخيرًا في الصباح جاء بنيامين لكنه حمل معه المزيد من التأخير.

أخبرني في حماس أننا اليوم على موعد للقاء واحد من ألمع العقول البشرية في التاريخ الحديث، أن (تشيزري لومبروزو) مؤسس علم الجريمة قد حضر بنفسه إلى الإسكندرية بناء على طلب خاص من البلاط الملكي الإنجليزي لمتابعة سلسلة جرائم السَّفَّاح، وهو ما أثار غضبي قليلًا لما سينتج عنه من تأخير يوم إضافي في الكشف عن السر، ولكن علَّ الجانب الإيجابي قد يفيدني ذلك اللومبروزو في القبض على جائزتي.

في الطريق لمقابلة الطبيب الإيطالي كان بنيامين يدخّن غليونه في شرود والعربة تهتز على الحصى فيهتز معها جسدي يمينًا ويسارًا، وكانت النوافذ تعرض مشاهد جميلةً؛ سماءً رماديةً بديعةً ملطخةً بالسحب، وأشجارًا طويلة تتمايل بخفة مع الرياح، وبحرًا واسعًا أبديًّا، لكني لم أهتم كثيرًا، حتى لو رقص لي توماس أديسون في الشارع (على واحدة ونص) ومن خلفه مجلس حكماء بقيادة أرسطو ونيرون وشجرة الدر يطبلون له على مقام نهاوند لن أهتم كثيرًا، مجال رؤيتي الآن ضيق ومُركز، يحدُّه الفضول من جانب والغضب من جانب.

قال بنيامين وهو يتابع المشهد من النافذة: «حدايق المنتزه ... بناها الخديوي من سبع سنين». المنتزه، كان منظرها مختلفًا عمَّا أعرفه، أوسع وأكبر وأكثر خضارًا، وسطها راحت تتبختر عربتنا وخيولها، وفي آخر طريقها لمحت قصرًا آخر غير القصر الشهير المعروف حاليًا بلونه القشدي وتصميمه الذي لم أستسيغه يومًا، قصرًا أصغر وأبسط في التصميم لكنه ملكي بحق، يغطي القرميد سطحه ويفصل بينه وبين البحر أمتار قليلة.

توقفت العربة أمام بوابة القصر بعدما منعنا عسكري بزي القوات الملكية من التقدم أكثر، فأشهر له بنيامين من النافذة تصريحًا يحمل ختم الخديو عباس حلمي شخصيًّا أجبره على

إفساح الطريق وفتح البوابة في انكماش نسبي. سبقني بنيامين نزولًا من العربة يستند على عكازه العاجي وتبعته وأنا أسوي من وضع سترتي، ما ل عليَّ قائلًا: «مولانا الخديوي كان قاعد هنا بعد زيارة فرانز يوزف يتابع موقف السَّفَّاح، لكنه ساب القصر ورجع سرايا عابدين لما عرف بوصول لومبروزو، القضية بقيت عالمية».

قادنا إلى الداخل خادم أصلع أسمر البشرة عبر بهو عالٍ ازدان بخشب البلوط واللوحات الأصلية وشعارات العائلة الخديوية، والكثير من التماثيل النصفية، وتدثرت أرضه بسجادٍ وثيرٍ كتم أصوات خطواتنا الملهوفة. بعد نقرتين على باب المكتب أتانا صوتٌ عميقٌ من الداخل يأذن بالدخول، ففتح الخادم الباب ووقف مكانه حيث تنتهي حدود صلاحياته، ودخلت أنا ورفيقي إلى مكتبٍ فخمٍ يكسو الخشب كلَّ تفاصيله، حيث وجدنا بالداخل هاريسون ومصطفى فهمي باشا رئيس النظار ومترجمًا إيطاليًّا أشقرَ الشارب أسودَ الشعر، ذا وجه صلبٍ.

ومن زجاج نافذة ملونة برسمة لسيدة عارية تستحم في غابة، تساقطت أشعة الضوء المخلوطة بألوان النافذة على وجه رجلنا المنشود في تأثيرٍ مسرحيٍّ وكأن الكون يشير إليه بإصبع. كان ممتلئ الجسم أشيب الشعر، له لحية صغيرة تتدلَّى من ذقنه أشبه بلحية ماعز، يرتدي ربطة عنق على طراز (اسكوت) المميز ومنظارًا دائريًّا داكنًا، وبشكل عام ذكرني منظره بالوجه المميز لأحد مطاعم وجبات الدجاج السريعة الشهيرة. واضعًا قدمًا على الأخرى حيث كان يجلس، مستغرقًا في قراءة ملف مكدَّس الأوراق، فلم يرفع عينه إلينا ونحن نصافح مضيفينا واحدًا تلو الآخر.

قدمني هاريسون لهم بصفات متعددة: وسيط روحاني ذو موهبة استثنائية، وأحد أعمدة القضية، وواحد من شهودها، لكني استشعرت الفتور في ملامح رئيس النظار وفي مصافحته غير المقتنعة، أنا أيضًا لم أكن لأقتنع لو قدَّم لي أحدهم وسيطًا روحانيًّا ليساعدني في حل قضية أمن قومي بكل صراحة. أما لومبروزو فظلت عينه مدفونة في الملف، يزم فقط شفتيه بين الحين والآخر في استحسانٍ أو فهمٍ، ولا يلقِ بالًا لحديثنا الذي لا يفهم منه شيئًا، ثم قال هاريسون باشا بالإنجليزية وهو يصب بعضًا من البراندي من زجاجة فخمة في كأس استقر بعدها بين بنصره وأوسطه:

ـ دكتور لومبروزو قد حضر بنفسه ليساعدنا بمجهوداته العظيمة، فهو مؤسس ما يطلق عليه «علم الجريمة» وصاحب نظريات شهيرة مثل الرجل المجرم******** والأناناسة القاتلة******** ...

ـ الرجل المجرم؟

سألت باهتمام منعني من الجلوس، وبدون أن يرفع لومبروزو عينيه عن الأوراق أجاب بإيطالية متغطرسة لم أفهم منها حرفًا قبل أن يحوِّل المترجم كلامه للإنجليزية كالآلة:

ـ المجرم يولد مجرمًا، يخرج من رحم أمه قاتلًا ويلتقم ثديها وهو لص، المجرم مجرم حتى قبل أن يتعلم التفكير والكلام.

ثم توقف عن الكلام وبالتبعية توقف المترجم معه، فلم يُسمع في المكان سوى أصوات تقليبه لصفحات الملف. سكت الإيطالي للحظات صبَّ فيها هاريسون بعض البراندي لرئيس الوزراء فتجرعه في عصبية، ثم عاود الكلام:

ـ من خلال عملي مع آلاف المجرمين اكتشفت تشاركهم لمجموعة من الصفات البيولوجية، مواصفات شكلية معينة لا تخطئها عين مدربة، حتى أنه يمكننا إذا حصرناها وفحصناها بدقة أن نعرف المجرم من نظرة عين. ما أقدمه للعلم هو هدية لن تتكرر، طريق يختصر علينا آلاف الجرائم والجثث، أنت لن تحتاج لدليل حتى تعرف أن الماثل أمامك مجرم، ستعرفه من قبل حتى أن يرتكب جرائمه.

ثم أغلق الملف، لم أعرف إن كان يدعي الغموض وغرابة الأطوار أم أن هذا هو طبعه فعلًا، فقام يشيح بيده في حركات رصينة وهو يدور في دوائر صغيرة:

ـ الأنف المسطح، نظرات الصقر الحادة، الرأس الكبيرة مع الجسد الضئيل، الشفاة المكتنزة، تستمر القائمة وتتوالى للعديد من الصفات. القاعدة بسيطة ولكنها خرجت بعد جهد ضخم ودراسة متمحصة: إذا امتلك الفرد خمسة أو أكثر من تلك الصفات الجسدية صار خاضعًا للنمط الإجرامي التام، وإذا امتلك ثلاثة فقط فهو يخضع للنمط الإجرامي الناقص، وأقل من ثلاثة لا يمكن اعتباره مجرمًا.

هذا كلام مجنون تمامًا، دربًا من الحمق البدائي، ولكن كان لطريقة لومبروزو الواثقة تأثير نافذ أجبرني على متابعته والتركيز في نبرة صوته، راقبه الجميع باهتمامٍ ظهر بشدة على كفي هاريسون المتلامسي الأصابع، وكأس الخمر المعلق في الهواء بيد مصطفى باشا، وشفاه بنيامين المضمومتين، ثم التفت العالِم إليَّ، من تحت منظاره الداكن رمقني بنظرة ضيقة، اقترب على إثرها أكثر وتفوَّه بكلام متلاحق وصلني معناه متأخرًا عندما تحدث المترجم:

ـ أنت مثلًا، عظام جبهتك العالية ...

في أثناء حديثه وضع يده السمينة على جبهتي، ضغط بإبهامه وسبابته على صدغي وهو يكمل: «حاجباك الكثيفان، صدرك العريض وخط فكك الحاد ... يمكنني أن أستخرج ستة أو سبعة صفات بدون جهد، أنت خاضع للنمط الإجرامي الكامل، أنت مجرم كما يقول الكتاب».

بعنف أبعدت يده الموضوعة على صدغي ودفعته بعيدًا ليسقط أرضًا كالعِجل، وبصدمة حدَّقتُ فيه وأنا أتراجع للخلف، بالتأكيد هذه تخاريف عفى عليها الزمن، ولكنني في حياتي كلها لم أشعر بالتهديد مثلما أشعرتني تلك الغرفة التي ضاقت عليَّ جدرانها فجأة عندما صوبوا جميعًا نظراتهم تجاهي، شعرت أنني عريان، مطالب بالتبرير والدفاع عن ردة فعلي العنيفة التي أكدت كلامه في ثوانٍ، لكني لم آتي سوى بالكلمات الواهية: أنت مخبول.

قام لومبروزو من على الأرض بهدوء، يعدِّل من سترته وهو يغمغم بما بالتأكيد سيكون معناه (ألم أقل لكم؟). تلعثمت وأنا أنظر في وجوههم، وخرج مني الكلام ساذجًا غير مرتبٍ بينما انتصب التوتر في المكتب كما يقشعر الجسد، ثم حلَّ صمتٌ باردٌ مُحرجٌ، تمدد في الغرفة وانتشر بينما وقفت أنا في مركزها يعلو صدري ويهبط، في غابات أفكاري أجري بحثًا عن تفسير مناسب لردة فعلي فلا أجد سوى ظلال، حتى قال هاريسون باشا بتأني وهو يقترب مني: «هناك سوء تفاهم بالتأكيد، علاء أفندي ليس مجرمًا».

ـ لومبروزو بفتور (على لسان المترجم): لقد رأيتم بأنفسكم، أنا لم أقل إنه غير شريف، ولكن المجرم يولد مجرمًا. قد تغطيه طبقات من التمدن والتربية، لكن في داخله تظل البذرة الفاسدة كامنة في انتظار من ينبش عنها، في انتظار نور الشمس وبعض الماء.

ـ هاريسون: ولكن يا سيدي، أنا رجل أعيش وأقتات من غريزتي التي لم تخذلني يومًا، هي التي قادتني طوال أربعة وثلاثين عامًا في سكوتلانديارد، وغريزتي تعلم أنه رجل صالح.

ـ لومبروزو: هذا علم.

ـ هاريسون: لكل قاعدة شواذ.

قاطعهم رئيس الوزراء الذي وضع كأسه بحدة على سطح المائدة وقال موجهًا كلامه للجميع: «إحنا مش جايين نكشف عن حالة الأفندي يا أساتذة، الوضع غاية في الصعوبة، مولانا مكلفني أراقب الوضع شخصيًّا، مافيش وقت يضيع يا هاريسون باشا» وبهدوء أجابه هاريسون بينما أخذ المترجم يشرح للومبروزو ما قيل: «لا تقلق فهمي باشا، هذه القضية خارج حدود السياسة وأتعامل معاها كمسألة شخصية، أنا لا تهمني مشاكل الخديوي واللورد كرومر، أنا رجل قانون».

بادله مصطفى باشا نظرة طويلة محملة بمعاني لم أفهمها إلا عندما أخبرني بنيامين لاحقًا كيف كان المندوب السامي البريطاني (كرومر) على خلاف حاد مع الخديوي عباس حلمي الذي مال لصفوف الشعب واعتبر نفسه خديوي وطني وثوري على عكس أجداده؛ لذا يتحيَّن كرومر كل فرصة للإطاحة به، ناهيك عن أن غياب الأمان كان حجة بريطانيا الدائمة للبقاء في مصر، ووجود سفَّاح كهذا دليل على أن مصر بلد مراهق غير آمن يحتاج لوصي يرعاه مثل المملكة، ولهذا فإن بذل الحكمدار جهودًا طائلة ليمسك بالسَّفَّاح كان يبدو كخدعة أو فكرة غير منطقية.

ثم تحدَّث هاريسون مجددًا رغم كل تلك الشكوك، وقال مصافحًا مصطفى فهمي بيديه وعيناه: «هذه كلمة شرف ... شرفي». وانصبَّ التركيز مجددًا على لومبروزو الذي أصبح عدوي منذ اللحظة الأولى، كان يجلس مداعبًا ذقن الماعز خاصته وهو يرمقني بمعزل عن الحوارات الجانبية التي لا يفهمها، فقال هاريسون راجعًا بالحديث إلى القضية:

ـ وأين يقع مجرمنا هذا من تصنيفاتك يا أستاذ لومبروزو؟ كيف تصنف قاتلًا مجنونًا يظن أنه مرسل من السماء ومؤيد من المسيح لينتقم من العذراء؟

قال لومبروزو ومن بعده المترجم:

« بحسب قراءتي للأوراق والأحداث، هذا السَّفَّاح هو من النوع العاطفي أو السيكوباتي ... المجرمين عمومًا ينقسمون إلى ستة أنواع رئيسية: مجرم بالفطرة، مجرم بالصدفة، سيكوباتي،

سياسي، عاطفي، ومجرم صرعي».

أخذ يعدهم على أصابعه وهو يشرح كل نوع على حِدَةٍ، في حين شعرت بنفسي أبتعد بعيدًا عن المكان والغرفة، وبأفكاري تنسحب إلى مناطق أخرى فتحها لي العالِم الإيطالي، وكأن لمسته الباردة المستفزة على صدغي قد نقرت بابًا قديمًا، أخذت أفكر فيما قاله مرارًا وأعيده على مسامعي بصوت المترجم الأشقر، أتذكَّر دفعي له أرضًا فأشعر بالندم يمضغني ثم يبصقني، لكن الجزء الأسوأ كان نظراتهم وقتها، ما زلت أشعر بها مطبوعة على جسدي كنظرات جمهور فقرة مثيرة في السيرك، حتى أنهم كادوا يصفقون ويلقون بعملاتهم المعدنية في قبعة العالِم عندما تحققت نظريته في الحال، هذا هو ما تشعر به فئران التجارب في صناديقها بكل تأكيد.

ورغم ضيقي الشديد تفاجأت أن الجميع نسي الحادثة في دقائق وكأنها لم تكن، بما فيهم العالِم الإيطالي نفسه الذي راح يتناقش معهم ـ والكأس بيده ـ عن أفضل الطرق لحصر البحث عن السَّفَّاح والإمساك به سريعًا، ولكن ظلَّ الشعور بالإهانة يلازمني ويتبعني في كل مكان يومها: نام عند قدمي في المكتب وجلس على سطح العربة في طريق العودة، وظلل رأسي وأنا أتمشى في شوارع الإسكندرية القديمة.

الإسكندرية القديمة، ليلها برَّاق ومُبهر، ساحر للجميع ما عداي بعد كل ما طالني فيه من رعبٍ ودماءٍ، بلا وجهة رحت أقطع الشوارع والحواري، كحشرة أطاردت أنوار الكلوبات وواجهات المسارح المضيئة الموشكة على بدء سهرات جديدة، أهيم خلف أي ما يصدر عنه ضوء في كنف هذه الغربة المضاعفة ... غربة ... بالفعل. فالوجوه القديمة التي كانت تبهرني صارت غير مألوفة بشكلٍ موحشٍ، والتفاصيل؟ قاتمة مكتومة ... الترام والطرابيش والأحصنة ... الفنانين المتجولين وملمعيي الأحذية، كل التفاصيل التي كانت تبهرني صارت فاترة ...

في مقهى يدعى كلوب محمد علي جلست ، دوَّنت وشربت وراقبت الناس، النبلاء والشحاذين، اندمجت في قصص مومسات في الشارع يخطفن زبائنهن بطرق بدائية رخيصة، ومكارية الحمير الذين يتشاجرون على الزبائن، لم أعرف لماذا لم أتوجه لمعمل بنيامين على الفور للبحث عن الجوابات، ربما كان السبب هو خوف دفين، خوف من المعرفة. لكن في

نهاية المطاف عدت أدراجي، شبه مغيب عن الوعي وجدت نفسي فجأة أمام العمارة فألقيت التحية بآلية على عثمان وأخذت المصعد حتى الطابق الأخير، تأكدت مرتين من خلو المعمل من أي كائن حي، وبدأت في البحث.

***

الرجل المجرم: نظرية حقيقية أتى بها عالم النفس الإيطالي تشيزري لومبروزو عام ١٨٧٦م.
الأناناسة القاتلة: نظرية غير حقيقية أتى بها عالم النفس الإيطالي تشيزري لومبروزو عام ١٨٩٨ (س.م.ت).

- 21-

يدي ترتجف، يكسوها عرق غزير حتى أنه لطَّخ الجوابات بين أصابعي. في صدري كنت أسمع بوضوح دقات قلبي، تضرب بإيقاع متسارع يكاد يخلع الضلوع من مكانها، أتردد لثانيتين قبل أن أضع الجوابات الثلاثة برفق على السرير الصغير وآخذ نفسًا عميقًا، لحسن الحظ وجدتها بعد بحثٍ مضنٍ في الخزنة الحديدية الثقيلة التي يحتفظ فيها بنيامين بأوراق التجارب العلمية. على طرف السرير جلست احترامًا لوقار اللحظة ورهبتها، لم أفتح الخطابات على الفور ولكن تركت الفرصة لوظائفي للفوران والتسارع وأنا أرتب الخطابات حسب التواريخ المدونة عليها، ببطء أمسكت بالجواب الأول، ثم فردته وبدأت أقرأ:

الخطاب الأول

«عزيزي أنا ...

أتمنى لك كالعادة الصحة والسلام في كل مكان وزمان، وأما بعد ...

أكتب إليك هذا الخطاب الغريب والمظلم، الأغرب الذي قد تتلقاه يومًا، لأخبرك أن لعبتنا الزمنية قد ارتدت علينا، كما كنتَ تخشى دائمًا.

أحدثك من خطٍّ زمني آخر، في سنة 2023، آسفًا أخبرك أنك الآن في خط زمني ميت ينتهي بنهاية شهر مارس من العام 1899، فأنا ـ في هذا الشهر ـ اضطررت للعودة إلى نقطة معينة من شهر يناير من العام 1898 وتغيير المسار الزمني، ومعه تغيَّر كل شيء، من أجل محاولة فاشلة لإنقاذ ميرتل.

نعم، ميرتل ابنتك حبيبتك على وشك أن تُقتل ضمن سلسلة جرائم شنيعة، تمَّت على يد سفَّاح إنجليزي لا نعرف عنه سوى أنه دخل المحروسة مستقلًّا سفينة تدعى سيسيلي، زهرة حياتك ستذُبح بأبشع الطرق كما النعاج.

هل أنا معتوه؟ لن أنكر، لكنك ستتفهم دوافعي عندما أخبرك أنني فعلتها لما لم نستطع القبض على هذا الوغد والانتقام منه، كان قد هرب للأبد دون فرصة حتى للقصاص؛ لهذا، يائسًا حاولت استخدام المعلومة الوحيدة التي نعرفها عنه، أنه دخل مصر على متن سيسيلي،

وقررت العودة زمنيًّا وتغيير مسار السفينة لترسو في إيطاليا، فأمنعه من دخول مصر أصلًا. ولكن لسوء الحظ ماتت ميرتل بالكوليرا في الخط الزمني الجديد.

تمالك أعصابك عندما أخبرك أن قاتل ميرتل هو الشاب الذي يسلمك الجواب بنفسه، لكنه لا يعلم أنه القاتل ولا يتذكَّر أي شيء في الواقع، عمليًّا هو أتى من المستقبل والماضي معًا، وهذه قصة غزيرة التفاصيل أغرب من الخيال. أعلم أن كل هذه الأخبار الحزينة أكثر من استيعابك ومن قدرتك على التلقي، ولكني أعدك بشرح مفصل في الخطابات المقبلة، حيث سأبعث لك معه بالمزيد.

اِقبل اعتذاري، اِبق قويًّا، وأشدد عليك ضرورة معاملته بصورة طبيعية تمامًا، فهو مسالم وغير عنيف على الإطلاق، وهو جزء مهم من خطة إنقاذ ميرتل من هذا السَّفَّاح ... من نفسه.

تحياتي ودموعي ب.هـ»

الخطاب الثاني

«عزيزي أنا ...

سامحني على الارتباك الذي أصبتك به، أدين لك بالعديد من التفسيرات التي لم يسعفني الوقت في الخطاب الماضي لذكرها؛ لذا فها أنا الآن أحاول تفسير تلك القصة الغريبة لك.

تبدأ القصة من بعد مقتل ميرتل المؤسف، حيث خضت مع الضبطية سلسلة من الأحداث القاتمة للبحث عن هذا الوغد والانتقام منه، حتى توصلنا لمكانه في النهاية وانخرطنا خلفه في مطاردة طويلة مثيرة هرب في نهايتها إلى معملي، بطريقة ما كان الشيطان يعرف كابينة السفر الزمني أو على الأقل يعرف أن بها ميزة ستساعده على الهرب، فاختبأ بها، لكنه أحدث كارثة ...

بتأثير جهله، وعوامل المفاجأة، وعدم الاستعداد، عملت الآلة لكن بدون أن يحدد بها وجهة زمنية، فأخذته إلى رحلة بلا نهاية، نفاه الزمن خارجه، لفظه خارج الوقت وكأنه يسقط سقوطًا أبديًّا في فراغٍ لا قرارَ له، عبث نهر الزمن به وبجسده فكانت النتيجة عكسية، وبدلًا من أن يسافر في الزمن سافر الزمن فيه، فأخذ سنه يصغر في ذلك النفي الزمني العشوائي خارجه حتى عاد طفلًا ابن سنتين.

كما أخبرتك، وجدتني في موقفٍ شديد اليأس والغضب، فميرتل ماتت وهذا الوغد فلت من بين أصابعي إلى اللامكان، ودون أن أشفي غليلي منه، كنت على وشك الانتحار. من هنا قررت تنفيذ خطتي الحمقاء؛ فكرت أنني إذا عدت بالزمن ومنعت سفينته من دخول مصر ستعيش ميرتل، كما أن الخط الزمني الجديد الناتج عن تغيير التاريخ سيلتقط هذا الشيطان من سقوطه الأبدي خارج الزمن، فأعثر عليه وأنتقم منه، ولكن لسخرية القدر ماتت ميرتل في الخط الزمني الجديد، كما ماتت كل الشابات اللواتي قتلهن السَّفَّاح من قبل أيضًا، وكأن الزمن يهزأ بي وينهرني بحزمٍ عن التلاعب به.

في النهاية لم يكن أمامي ملجأ سوى خطة أخيرة: العثور على هذا الشيطان والانتقام منه عن طريق إرساله لإنقاذ ميرتل الموجودة في خطك الزمني، تتبعت أثره لأجد أن الزمن قد لفظه إلى العام 1988 بعد نشوء الخط الزمني الجديد، طفلًا صغيرًا ابن عامين وجده أحد المارة في أرض خالية بالإسكندرية فسلَّمه إلى ملجأ أيتام، ومن الملجأ تبنته زوجة عاقر متقدمة في السن مع زوجها.

إلى هنا ينتهي خطابي، أَرْسِل لي أسئلتك مع علاء وسأشرح لك خطتي في الخطاب القادم وأجيبك عمَّا تريد.

أُرسِل لك تحياتي ودموعي ...

ب.هـ"

الخطاب الثالث

«عزيزي أنا ...

لا تقلق، كل شيء محسوب ومرتَّب، أنا أعلم كم أنت مرتبك وخائف بعد الاضطرابات الأخيرة، ولكني أعمل على احتواء أثر اليعسوب وحساب التغييرات، وصلتني أسئلتك حول الخطابات الماضية وسأجيبك هنا عن كل شيء ...

أنا لم أسافر وحيدًا، عندما قررت تغيير الماضي والزمن جمعت أكبر قدر ممكن من أهالي الشابات اللائي قتلهن السَّفَّاح بجانب ميرتل، بالطبع لم يقتنع أغلبهم بخطتي ولا بمفهوم السفر الزمني ولكني نجحت في إقناع بعض منهم بالسفر معي إلى الماضي، حيث هناك فرصة

لإنقاذ بناتهن عندما نمنع دخوله، وكتبت لكل منهم إيصال أمانة بمبلغ ضخم يتجاوز النصف مليون إسترليني في حالة لم أفي بوعدي وننقذ الشابات، عالِمِين أن نسخهم من الماضي الذي سيعودون إليه ستتحلَّل وتختفي، ولكن كما أخبرتك، في النهاية كل الشابات قد مُتن جميعًا مجددًا.

عندما فشلت خطتنا الأصلية قفزنا بالعمارة كلها للمستقبل للعام 2023 لتنفيذ الخطة البديلة حيث استطعت تحديد مكان علاء ... السَّفَّاح بهويته الجديدة، قررنا استقطابه ثم استخدامه لكي ينقذ بناتنا عن طريق إعادته للماضي داخل الخط الزمني الميت، حيث أنت موجود وحيث ميرتل ما تزال حية؛ لأنه الوحيد الذي بإمكانه إيقاف نفسه، فهو يعلم كيف يفكر وكيف سيمنع نفسه من قتل الشابات، وفي رأسه قد يعثر على ذكريات من ماضيه تسهِّل عليه المهمة.

أقنعته أن حِنة الخادمة هي قديسة صاحبة كرامات وأنها تنبأت بخلاصنا من السَّفَّاح على يده، لم يكن أمامي سوى الكذب حتى يقبل دخول المهمة بثقة، أخبرته أيضًا أن السكان جميعًا هم أهالي ميرتل وأنهم أتوا معي للمساندة، بينما هم هنا للانتقام لبناتهم، ومن أجل فرصة أخرى قد يتمكَّن فيها من إيقاف النسخة القاتلة منه، راضين أن يعودوا للعيش مع ذويهم للمدة المتبقية من الخط الزمني، حتى مارس المقبل.

أما عن سؤالك كيف استطعنا تنفيذ كل تلك الخطط في المستقبل دون إثارة الشكوك ... كان ذلك صعبًا للغاية، ولكني عملت بجهد وسافرت للمستقبل عدة مرات لأدرس كل شيء، كما دربت عثمان وأهالي البنات على كل طرق التنويم المغناطيسي من أجل إبعاد الغرباء، وتسلحنا كلنا بالثوم والملابس السوداء حتى لا تؤثر فينا وسائل التنويم المزروعة في العمارة، كما أنها تسلب علاء بعض الإرادة والتركيز أيضًا حتى لا يهرب أو يثور، ومن أجل خداعه أيضًا أعددنا شجرة عائلة وهمية تسمح لنا بالبقاء معًا في العمارة، نتقابل في القبو بعيدًا عن أعينه، نخطط ونرتِّب.

مصدر قلقي الوحيد هو أن علاء بدأ يشك، سكان العمارة لا يتخذون احتياطاتهم حوله مما يسرب له بعض التفاصيل، هو شخص ساذج ومسالم على كل حال لكني لا أضمن ردة فعله إذا علم، خصوصًا أن هلاوس من حياته السابقة تزوره باستمرار بسبب أسفاره، وكلما تعرَّض

لتفاصيل من حياته الأولى في زياراته الزمنية أتته رؤى أوضح من ذكرياتها في هيئة صداع، قد تكشف له الحقيقة؛ لذا حاولِ دائمًا ألا تثير شكوكه، وأن تشتته كلما واتاه هذا الصداع.

تحياتي لك ...

أنا، علاء مدبولي، سفَّاح وقاتل لاثنتي عشرة شابة، ومغتصب وآكل لحوم بشر، بل قد أكون چاك السَّفَّاح بنفسه.

***

- 22-

هرب الخطاب الأخير من بين أصابعي المرتجفة ... شعرت بالدماء تنسحب من رأسي، بحالة من الموت المؤقت تغطيني؛ فلا أنفاس تدخل ولا أنفاس تخرج، توقَّف قلبي عن النبض نهائيًّا لثوانٍ. كان عقلي يسقط سقوطًا حرًّا بسرعة الضوء، فجأة صار العالم معتمًا، ضيقًا، ثقيلًا، أشعر بذرات الهواء تضغط على كل شبر من جسدي، والكون من حولي يضيق كأنشوطة، رأسي ستنفجر في أي لحظة، عبثًا حاولت الوقوف فسقطت أرضًا، أعصابي محلولة تمامًا وكأن السوس قد أكلها ... مَن أنا؟ هل كل هذا حقيقي؟

نعم، هو حقيقي تمامًا كالعرق البارد المتكثف على جبيني وكالغصة الشائكة في حلقي، حقيقي وكنت أعرفه طوال الوقت، بطريقة ما كنت أعرف أن كل ما أنا عليه ما هو إلا قشرة هزيلة مدفون تحتها جذور عميقة ومتاهات لم تطأها قدماي.

الفزع يهاجمني بضراوة، بصعوبة أجاهد لألتقط نَفَسي أو لأتذكر مَن أنا ... من أنا؟؟

أنا شاهد رخامي لامع لقبر نتن، أنا واجهة، مجرد واجهة جذابة لمستودع يضم أقذر القمامة، ظاهري حديقة خضراء وداخلي مستوطن للديدان والعقارب، أشعر بالتّيه، كذرة رمال جافة في عاصفة لا أصل لي ولا مكان، من صُلبِ مَن أتيتُ وأي رحمٍ حملني؟ في أي ليلة ملعونة بلا قمر خرجت للعالم أصرخ باكيًا؟

بصعوبة بالغة وقفت، تلاعب الغثيان بي وتطوَّحت بين أمواجه فكدت أتقيَّأ، رأسي خالية من كل شيء ووعيي غائبٌ، فلم أشعر بنفسي وأنا أقفز داخل الكابينة الزمنية لاهثًا، بفكرة واحدة فقط تتردد في صحراء رأسي؛ العودة لزمني، بآلية تامة ضبطت القرص المعدني كما يفعل بنيامين، ثم أغلقت الباب خلفي بلا استيعاب، مغمورًا في العرق والصدمة.

تكة ... ضوء ودوران ... ثم وصلت.

دفعت باب الكابينة الخشبي فسقطت على الأرض راكعًا، تقيَّأت حتى فرغ كل ما في جوفي، بجسدٍ لوَّثه القيء والعرق البارد قمت متجهًا لباب المعمل، نصف ميت ونصف مقتول، لم أعرف إلى أين أذهب ولكني متأكد أني لن أبقى هنا في هذا الوكر، فدخلت شقتي وأخذت

منها الهاتف والمحفظة ومفاتيح السيارة، ثم نزلت على السلالم حافي القدمين دون أن أغلق حتى باب الشقة ... إلى الشارع خرجت، مرتبكًا ... فزعًا، فقدت شعوري تمامًا بالوقت فلم أستطع تحديد الساعة أو تخمينها، ولكنه كان ليلًا، وقتًا مناسب للهلع والأزمات الوجودية. اثنان وثلاثون عامًا من السراب، جوائز وروايات ومؤتمرات ضخمة، ذكريات سعيدة وليال حالمة وإيمي، كلها وهم مبني على باطل، مسرحية ضخمة أعيشها، ولكن مَن أخدع؟

أسفلت الشارع البارد يقابل قدميَّ العاريتين في صرامة، رياح الشتوية الغاضبة تلطم جسدي العارق في قسوة، كالمجاذيب أهيم على وجهي بلا اتجاه محدد وفي عيني نظرة متسعة لا تَرى ... لا إحساس سوى الألم، طعنة خفية بطيئة تشقُّ صدري، فوضعت يمناي على موقعها في ضعف، ثم انهرت جالسًا على أحد الأرصفة، انفجرت في بكاء لم أستطع السيطرة عليه، ولم أحاول، كالأطفال أخذت أنشج وأبكي، بشفاه ترتجف ودموع لا تنتهي، لم أبالِ بنظرات المارة وأبواق السيارات، أبكي تحت السماء السوداء الحزينة وبين أضواء المدينة المتلاحقة، انتحب بأعلى صوتٍ ودون اعتبار لسمعتي المرموقة، فعلى كل حال هذا ليس أنا، أنا لست كاتبَ روايات بوليسية، أنا سفَّاح، قاتلٌ ومغتصبٌ.

بكُمِّ قميصي مسحت خيط المخاط السائل من أنفي وأنا أرتجف، حاولت المشي مجددًا، بخطوات تائهة وصلت لأحد الشواطئ الرملية المهجورة، وعلى الرمال أنهرت، تمرغت منخرطًا في نوبة جديدة من بكاءٍ مرير عندما أدركت كل شيء بصورة أشمل، عندما شعرت في قلبي بألمٍ لا يحتمل، ثم نمت، حتى الصباح نمت.

***

كانت نومة بائسة تلك التي نمتها على الشاطئ.

استيقظت بعدها لأجد حبيبات الرمال الخشنة متناثرة في شعري وعلى وجهي، ونسيم الفجر البارد يخترق عظامي ويثلج جسدي الذي لا يلتحف سوى الحزن والخزي. جلست قليلًا أمام البحر، في كآبة أراقب أمواجه التي تنكسر تدريجيًّا في هدوءٍ وبلا عقلٍ، بلا كرامةٍ، تُولَد في لحظة وتموت في أخرى بلا ماضي تخجل منه أو مستقبل تقلق بشأنه، كم هي محظوظة! كم وددت أن أكون موجة منهم ... أموت قبل أن أعيش، ولا أشعر بشيءٍ من الأساس.

استعدت بعضًا من رزانتي التي فقدتها بالأمس فآلمتني جزئيًّا فكرة البكاء على الملأ والانهيار في الشارع، لملمت شتاتي سريعًا وفوجئت بالهاتف والمحفظة في جيبي فتوجهت لأقرب بنسيون قابلني دون اختيار، حجزت غرفة متواضعة لم أكترث للمنظر الذي تطل عليه، بل في الواقع أردت أكثر غرفهم انعزالًا، أو ربما حتى كهفًا صغيرًا في باطن الأرض يبعدني عن الجميع ويبعد الجميع عني، وفي الكهف الصغير بالطابق الثاني استلقيت على سرير رديء من معدنٍ صدئ، لساعات كان شرخ بطول السقف الأصفر هو كل ما أرى، مستغرقًا في ذكريات خيالية أصنعها لنفسي، خلفيات سوداء أكتبها كما أفعل مع المارة الذين لا أعرفهم في الشارع، فللمفارقة أنا أيضًا لا أعرفني، أنا مجرد نزيل في جسد سكنه آخر قبلي، أم أن هذا الآخر هو أنا؟ رأسي ستنفجر.

شعور الغربة قاتل، تضخَّم بشدة فصار كظلٍّ يغطي الغرفة، أردت أن أهرب منه ولكن إلى أين؟ العالم على اتساعه لا يحتوي على مكان لي، وكلما فكرت في مدى كبره ضاق بي وبصدري، فحتى جسدي هذا لم يكن ملكي، حتى أنفاسي أنا استأجرها من آخر، أريد أن أختفي حتى يختفي كل هذا الألم المتغلغل، أريد بيتًا حقيقيًّا أهرب إليه، أريد حقيقة واحدة في هذا العالم الذي ضفرته الأكاذيب.

على ذكر البيت ظهرت صورة سناء بشعرها الأبيض القصير ومنظارها الطبي، مسحة من الماء البارد بلَّلَت هذا الجحيم في أعماقي، فالتقطت هاتفي من على الخزانة الصغيرة، اتصلت برقمها آملًا في مكالمة قصيرة رغم أنها على الأرجح مشغولة الآن في جمعية أو نادٍ، صافرة، صافرتين وثلاث، ومع كل صافرة ألم صغير يدق بقعة معينة في صدري، حتى سمعت صوتها المبحوح يقول بالنغمة المميزة:

ـ إزيك يا مضروب ...

ـ إزيك يا خالتو ...

ـ كده تختفي بالأسابيع وتقول عدوا لي؟

ـ مش قصدي خالص والله ... مشغول شوية ...

ـ مال صوتك يا واد؟

اخترت الصمت بعدما فشلت في إيجاد ردٍّ مناسب، فأتاني صوتها قلقًا: «علاء ... مالك يا حبيبي؟».

ـ أنا تعبان جدًّا يا خالتو ...

ـ ما تنطق طيب مالك!

عاجزًا عن الكلام لم أنجح في الاختيار بين الكذب أو قول أقرب شيء للحقيقة، فسمعت صوتها وقد بدأ يتخلله غضب حقيقي: «أنت لو مانطقتش مالك دلوقتي أنا هلبس وآجي لك إسكندرية!». وبالغصة في حلقي أجبتها: «هو أنا وِحِش؟»

ـ كل ده عشان البت إياها؟

لم أرد ...

ـ بقول لك إيه يا واد انت، أنا فاض بيَّا من البت دي خلاص ومن اللي بتعمله، وديني وأيماني لا مكلماها دلوقتي ومهزقاها.

ـ لا يا خالتو إوعي ت ...

انتهت المكالمة، حاولت الاتصال بها مجددًا ولكن كان هاتفها مشغولًا، سبق السيف العزل وعلى الأرجح سقطت فأس خالتي في رأس إيمي، فألقيت الهاتف على السرير وبداخلي جزء ارتاح لوقوع الكارثة؛ لأن حجر أخيرًا سُيلقى في بركة إيمي وليحدث ما يحدث، لكن سريعًا عاودتني المرارة عندما تذكرت أزمة هويتي التي انسحقت تحت وزن الحقيقة.

أسأل نفسي مَن أنا كل بضع دقائق، مؤلف؟ سفَّاح؟ احتمال ثالث لا أعرفه؟ في الغرفة الصغيرة مضى الوقت مبهمًا مخلوطًا ببعضه، أمامي كان تليفزيون رديئًا يعرض فيلمًا لا أتابعه، وهناك وجبة صغيرة من البنسيون بها بعض الخبز والبيض والمربى ركنتها ولم أستطع أن ألمسها، أشعلت سجائر عديمة الطعم أمام النافذة الصغيرة وتهت في اللون الرمادي المسكوب في السماء مفكرًا في خطوتي القادمة، في ترك كل شيءٍ والهرب، ربما الانعزال في الجبال بعيدًا عن مفاهيم الماضي والحاضر والمستقبل، راودتني رغبة سوداوية في حرق كل شيء خاص بي وتدميره، ولكن رياح معاكسة ضعيفة همست بداخلي أن لا ذنب لي في ماضٍ لا أذكره ولستُ مسئولًا عنه، فمَن أنا إذن؟ أو بالأحرى ما حقيقة الإنسان؟ أهو ماضيه؟ أم هو

حاضره؟ أليس ما يحدد أي منا هو مكان ميلاده وأهله وحالهم؟ أم ما يختاره بعد كل ذلك بحُر إرادته؟ لا أعلم، كل شيء فقد معناه برهة واحدة وصار العدم هو المعنى الوحيد، لا غاية الآن ولا سبيل لأمشيه، تناولت قرصًا من الحبوب المسكنة وبدأت في تفريغ زحام أفكاري على ورق مذكرة استعرتها من صاحب البنسيون. أعرف جيدًا أن علاجي في الورقة والقلم، ستظل الكتابة هي رئتي الحقيقية سواء كنت ملكًا أو سفَّاحًا أو جزارًا، كتبت كلمات غير مترابطة، تقيءٌ عقليٌّ خزين سنوات وحياتين، وبين الحين والآخر كانت تعبر أمام ذهني صور من ذكريات باهتة متآكلة الأطراف كصور ألبوم قديم، أو أرى صورًا من ذكريات حديثة ملونة ما زلت أحتفظ بشيء من طعمها، يتصارعان على السيادة في حقول هويتي، وعندما أرهقني الصراع هربت إلى الذكرى الأقوى التي أمتلكها، والشيء الوحيد الذي ما زال يحتفظ بمعنى:

كانت تجلس أمامي وعلى وجهها خطوط سائلة من اللون الأسود، بالدموع والكحل تكتب قصة خيانتي لها، ما زال صوت بكائها يتردَّد في أذني ممزقًا نياط قلبي وكلَّ دفاعاتي الواهية ... يومها، تركت إيمي تبكي كثيرًا لعلها تهدأ، أو يخرج غضبها مع دموعها، لم أهتم كثيرًا بنظرات المحيطين بنا من زبائن المقهى، حاولت أن أبرِّر، أن أكذب أو ألوي الحقائق وأستخدم كل حيلة ممكنة في كتاب استرجاع المرأة الغاضبة، لكني تهت تحت تأثير الدموع ولم أنجح في صياغة جملة واحدة مقنعة، كطفلة صغيرة استمرت في البكاء والنشيج ببراءة تهدم أي حجر لاحترام الذات بداخلي. قلت وأنا أدفع إليها بكوب القهوة المثلجة: «صدقيني هي اللي طبت عليَّا هناك من نفسها أنا ماطلبتش حاجة، دي كدابة».

بكاء.

«طبيعي هضعف شوية، إنتي عارفة داليا يعني، بس وحياتك عندي ماعملتش حاجة».

كاذب، وأحلف بحياتها كذبًا، وهي تعلم أنني أكذب، يهوذا أنا وكانت صديقتها داليا ثلاثين من الفضة الرخيصة التي لمعت في عيني تحت بريق الغرور وضوء الشهرة، علاقة جانبية تنعش ثبات العلاقة مع إيمي وملل العِشرة الذي يتخللها، خمس ليال من الجنس والسُّكر والسَّهر في (رأس شيطان)، يا لك من وغدٍ ... بأنانية دمرتها، بأقدامك سحقت أجنحتها ونثرت رماد الخيانة في عينها التي كانت ترى العالم ملونًا.

حاولت الأمساك بيدها لقول كلام لن أستطيع صياغته بلساني، لكن سحَبَت يدها الصغيرة بحركة لن أنساها، سحبتها بضعف استحال لعنف نسبي وهي تفلتها مني معلنة ضمنيًّا أنها قد طردتني من جنتها للأبد، بداخلي كنت أعلم أننا انتهينا، هذا البكاء الحار الذي خنق كلماتها، تلك الرجفة في صوتها وجسدها الصغير، كل هذا منعني من الصمود والكذب أكثر، وكساني شعورًا تامًّا بالحقارة.

أعتدت أن أناديها بأنها روحي، ولم أكن أعلم أنها روحي بالفعل إلا عندما غادرتني، اختفت إيمي من حياتي وتركتها بلا رجعة وقطعت كل أثر لعلاقتها بي، وسحبت معها كل لونٍ وطعمٍ ونغمةٍ في هذا العالم.

في الغرفة المتواضعة رأيتها مجددًا واستعدت المشهد أمام عيني، بكاء وكحل وأكاذيب ورجفة، إحساس عارم بالحقارة يكتنفني في كل مرة تزورني ذكرى وداع إيمي. ربما هي على حق، ربما كانت محقة لتركي وساندتها عناية إلهية ما لتكشف لها قمة الجبل الجليدي، هل تركتيني لأني خائن؟ يا لكِ من ساذجة، أنا سفَّاح ومغتصب وآكل لحوم بشرية أيضًا، أنا حيوان برمائي خبيث، أنا؟

أنا أحبك، أنا راهب بتول في معبدك، مريد ينتظر عودتك وقد تراكمت عليه النذور في انتظارك، ولكني أتوق لسدادها، صدقيني.

***

- 23-

هي حلوة مثل الربيع بعد شتاء طويل، مثل أشعة شمس دافئة تتسلَّل من نافذتي، هي عناق طويل بعد العودة للمنزل. هي إيمي، التي جلست أمامي الآن في مفاجأة كادت تخلع فكي من مكانه، في البداية لم أصدق عيني وأعزيت المشهد إلى الهلاوس التي تصيبني مؤخرًا، لكني أمسكت برسغي فوجدته طبيعيًّا من لحمٍ ودمٍ، لم أكن أحلم، هذه إيمي أمامي بنفسها وجسدها، لم تزل رقيقة وبرتقالية كعهدي بها، فقط شعرها البرتقالي كان مقصوصًا في علامة واضحة على التغيير، أو الرغبة فيه.

حدث كل شيء في الصباح الباكر بعد ليلة كئيبة بغرفة البنسيون أنهكتني فيها أزمة الهوية، عندما فوجئت بخالتي ـ بقامتها القصيرة ـ على عتبة الغرفة حاملة حقيبة تحوي ثيابًا وحذاءً، دون حتى أن تعلم أنني حافي القدمين. بلا مقدمات أو صباح الخير أزاحتني جانبًا وهي تشكو من هيئتي الرثة ونومي حتى هذه الساعة المتأخرة، ثم أخذتني لدورة المياه الصغيرة الملحقة بالغرفة متجاهلة أسئلتي الداهشة، بالطبع تذمَّرت من لحيتي النابتة وهي تقف بجواري حتى غسلَت وجهي وحلقتها، ثم مشطت لي شعري وهي تحكي لي عن كمٍّ المصائب في حياتها التي لم تكن تنقصني، كعادتها تعنفني بحب، تضرب رأسي بيد بينما تربت عليها بالأخرى.

ثم ألقت بقنبلتها عندما أخبرتني أن إيمي بالأسفل تنتظرني، وأنها أحضرتها رغمًا عنها، بالطبع تفككت أوصالي لما سمعت الخبر ولكنها لم تمنحني فرصة للقلق أو التوتر، حاولت التراجع في فزعٍ والتعلل بأي حجة فسحبتني من ذراعي خارج الغرفة وتوقفت في الطرقة المكسوة بالسجاد لتقول ملوحة بسبابتها الشهيرة: «بص بقى أنا جيبتها لك لحد عندك، انشف كدة مش عايزة خيابة، مانتش ناقص إيد ولا رجل، وإيمان ماهياش السفيرة عزيزة يعني، أنا عارفة إنك بتتنيل تحبها بس ماتسيبهاش تجيبك وتوديك كدا، إنت كاتب كبير ومحترم، وأنا ماكرهش في حياتي قد دلع ومياصة البنات».

ابتسمتُ لها رغمًا عني، فهي دائمًا ما تقف في صفي وتتغاضى عن شناعاتي، وفي عينيها أنا الملاك والنبي دائمًا مهما اقترفت من إثمٍ. منحتني كلماتها البسيطة عزيمة للمواجهة، إيمانها الكبير شيَّد جزءًا بسيطًا من الحطام بالداخل، وكيف لا أؤمن بنفسي بعد كل ما يتكبده

شخص مثلها من أجلي، بكل حبٍّ وبذلٍ، ودون أن تشعرني أنني عبء حقيقي؟ هذا الإيمان كفيل ببناء بلاد بأكملها وليس مجرد ثقة شخص محطم.

غير مستوعب بعد لما يحدث كانت حبيبتي أمامي، تجلس على بعُد سنتيمترات، يفصل بيننا طاولة دائرية صغيرة وآلاف الأمتار من الجفاء، ولكن كل الأفكار السلبية تبددت عندما رأيتها، وكيف ألا تنقشع الغيوم في وجود شمسي؟ فمجرد رؤية إيمي قادرة على تهدئة العواصف وطرد الظلمة، لم أستطع انتزاع عيني من عليها وفي بلاهة سكتُّ، لم أجد ما يقال من بين جبال الكلمات والموضوعات التي تراكمت على مدار عمر عشته بدونها، سكتُّ لبرهة ثم قلت أخيرًا: «وحشتيني».

بالطبع لم ترد، شعرت بغباءٍ أمام وجهها المصمت الخالي من التعبيرات، ولكني لم أستطع كتمان كل هذا الاشتياق، أخيرًا قالت بنفس الملامح الخالية من أي تعبير: ـ طنط جابتني بالعافية زي ما انت شايف، في إيه؟

ـ أنا مش كويس خالص، نفسيتي زي الزفت ...

ـ تمام.

ـ عارف إنك متضايقة ومش طايقاني.

لم تجب، فواصلت كلامي دون تفكير ودون حساب: ـ أنا قذر وغلطان، بس والله ندمان جدًّا أبعد مما تتخيلي. لو شايفة كلامي متوقع ومحفوظ هطلب منك بس تبصيلي.

نظرت إليَّ، التقت عينانا، نفس السحر القديم القادر على تحريك الجبال وعكس دوران الأرض، اشتعلت جذوة صغيرة بداخلي عندما لمحت البريق السماوي في عينيها، هي تصغي، أو بمعنى أصح هي تريد أن تصغي، فأكملت متشجعًا: ـ مش معترض على قرارك عشان معاكي حق، بس عارفة؟ أنا بجد متبهدل من بعد ما سبتيني، بنام في الضلمة بالساعات، بعيط زي العيال، مش قادر ولا عايز اعمل حاجة غير إنك ترجعي، يا ايمان الدنيا مابقاش ليها لازمة من بعدك، كل حاجة وقفت مكانها وفكرة الموت بقت مقبولة عشان ارتاح من الإحساس اللي بياكل فيا ده.

في ثنايا الصمت قرأت اهتمامًا طفيفًا على وجهها، ثم شعرت بالمسافة بيننا تتقلص قليلًا، هل لان قلبكِ أخيرًا أم أخدع أنا نفسي بسراب العطشان في الصحراء؟ واصلت قائلًا: «لو اللي عملتيه ده كان عقاب على خيانتي فأنا بحاسب نفسي عليها كل يوم وبتعذب كأنها أول مرة، ولو عملتيه عشان كرهتيني فأحب اقولك إنى بقيت بكره نفسي أكتر من أي حد».

ربما هو الصدق في نبرة صوتي، ربما هو الضعف البادي على ملامحي، لا أدري، لكن شيئًا ما غيَّر كلماتي العادية الضعيفة قد حركها، فقالت رغم ملامحها الجامدة: «لو فاكرني هتبسط وأنا بسمع الكلام ده you are totally wrong، صحيح انت كسرتني وبسببك نظرتي لحاجات كتير اتغيرت بس ماقدرش أكرهك ومش هعرف أكرهك، اللي بيننا كبير وكتير أوي أكبر من إني أهده مهما حاولت، لكن أنا مكسورة كسر صعب جدًّا أي حاجة تعالجه».

ـ هو أنا وِحش؟ أستاهل أموت؟

ـ ليه بتقول كده؟

ـ جاوبيني ...

- you are a good person يا علاء، regardless اللي عملته معايا بس انت جواك حاجات جميلة كتير خصوصًا اللي كنت بشوفه في الملجأ مع الولاد الصغيرة ...

انت علمتني حاجات كتيرة وشاركتني حاجات أكتر خلت جزء منك جوايا.

دقَّ قلبي فرحًا وكاد يتمنطق ويرقص، رغمًا عني ابتسمت ابتسامة بسيطة ثم سألتها: «بتقولي كده عشان صعبان عليكي؟». فقالت ببرود: «لأ ... أنا ماصعبتش عليك وانت بتعمل اللي عملته، بس انت عارف إني مابسيبش مشاعري تأثر على أحكامي».

ـ إيمان أنا عرفت حاجات وحشة أوي عني، عن أهلي الحقيقيين ...

ـ حاجات إيه؟

ـ أنا جاي من ... أصول إجرامية ...

ـ وإيه المشكلة؟

ـ إني ممكن أكون زي أهلي، أكون مجرم زيهم ...

ـ بص، أنا ماعرفش تفاصيل ومش مهتمة اعرف، بس أيًا كان اللي عرفته.

ماتسيبهوش يلعب في دماغك، لو كل مجرم خلف مجرم كانت البشرية انقرضت من زمان.

ـ فيه مجرمين كتير خلفوا سفَّاحين برضه.

ـ علاء انت أكيد مش ملاك، بس انت برضه مش شيطان ... أنا عارفة بقول إيه كويس.

كلماتها البسيطة تلك، رغم عاديتها، كانت بمثابة قبلة حياة لي، فإيمي هي بوصلتي والميزان الذهبي، من تراه سيئًا يكون بالفعل أبشع خلق الله ومن تراه صالحًا فهو من الأولياء الصالحين، ورغم ما ارتكبته في حقها من جُرم ما زالت ترى أنني أبعد ما أكون عن الشيطان، أخيرًا شعرت بعنقي يتحرر من ذلك الثقل الذي طوَّقه، فقلت ودفقة مفاجئة من الحرية تغزوني: ـ حلو شعرك، مع إني كنت بحبه في الأول أكتر ...

ـ معلش بقى Nothing stays the same

ـ فعلًا ... كبرتي يا إيمي.

ـ سُنة الحياة.

صمت.

ـ سامحتيني؟

ـ لسه بدري على حاجة زي دي ...

ـ تفتكري ممكن نرجع تاني في يوم من الأيام؟

ـ ماعرفش ...

ـ يعني فيه أمل ...

ـ ماقولتش كده. أنا في transition phase دلوقتي، لسه بتعرَّف على نفسي من الأول، ومش عارفة لما أخرج منها هكون عاملة إزاي.

ـ شكرًا إنك جيتي ...

ـ كده كده إسكندرية كانت وحشاني.

ـ إسكندرية جميلة ...

ـ غريبة، ماكنتش بتحبها ...

ـ مش انتي لسه قايلة nothing stays the same؟

ـ وده لحسن الحظ.

ـ إيمي، أنا آسف مرة كمان.

ـ مش وقته الكلام ده، أهم حاجة تخلي بالك من نفسك.

ـ صدقيني أنا مش كويس خالص، بس لما شُفتك بقيت أحسن بكتير ...

ـ طب الحمد لله.

ـ هتمشي؟

ـ المفروض، هتغدى مع طنط ونمشي ...

ـ معلش على الإرهاب اللي خالتو عملتهولك، طبعًا جرجرتك من إيدك وكتفتك في العربية ...

ـ بتحبك أوي على فكرة، كانت هتدبحني لو ماكنتش جيت.

دنت مني نظرة خاطفة لخالتي، وشعرت بامتنان كاسح وأنا أراقبها؛ كانت تجلس على طاولة في الركن ممسكة بجهاز التابلت وتلعب عليه لعبة ما كطفلة عجوز، ومن النافذة تنساب أشعة الشمس على وجهها وعلى كوب النعناع أمامها فتضع لها هالة طبيعية تشبه هالات القديسين، لولاها يعلم الله وحده أين كنت سأكون.

ودعت إيمي بلباقة وشكرتها مجددًا، وقبل أن تذهب مع خالتي أخذتني الأخيرة في ركن المطعم وقالت بصوت خافت: «ها يا مضروب عملت إيه؟»

ـ اتكلمنا

ـ إيه اتكلمنا دي؟ بقى أنا سايقة كل ده وجاية من آخر بلاد الله عشان تقول لي اتكلمنا؟

ـ أنا أحسن يا خالتو بجد، ربنا مايحرمنيش منك.

ـ بس يا عبيط، قول لي بقى مالك؟ معاكش فلوس؟

ـ معايا ...

ـ انت كداب يا ولا، إمسك خد دول.

ثم مدت يدها في حقيبتها الجلدية الصغيرة ودسَّت في كفي بعض الأوراق النقدية. فقلت فجأة عندما رغب جزء أخير مني في تأكيد ما قالته إيمي: «خالتو هو أنا وِحش؟».

ـ هو إيه السؤال ده؟ انت اتجننت يا علاء؟

ـ انتي عارفة، أنا يتيم ومش عارف مين أهلي. مش يمكن أكون اتولدت من أب وأم مجرمين مثلًا؟

ـ وإيه المشكلة يعني؟ حتى لو أهلك كانوا قتالين قتلى إلإنت مالك؟ البني آدم مننا يابني هو الحاجات اللي بيختارها، وماحدش بيختار أهله.

ـ إنتِ تعرفي حاجة؟

ـ حاجة زي إيه؟

ـ عني يعني، جيت منين مثلًا ...

ـ أنا عايزة أفهم بس ليه الأسئلة الغريبة دي؟

تردَّدتُ قليلًا ثم بلعت ريقي ومعه ابتلعت الحقيقة، وقلت ماطًّا شفتيَّ: «عادي، مرة واحدة كدة حسيت بأزمة هوية، حبيت اعرف أنا أصلي إيه بالظبط».

ـ يا حبيبي ده شيطان مش أكتر ...

ـ برضه احكي لي كل اللي تعرفيه، أنا محتاج أسمع ...

ـ ما انت عارف أن أبوك وأمك خدوك من الملجأ عندي ...

ـ وإيه تاني؟

ـ كل اللي اعرفه يا حبيبي إن فيه ناس ولاد حلال لاقوك في أرض فاضية هنا في إسكندرية وانت عيل صغير، اتنقلت من بيت لبيت ومن ملجأ لملجأ ل حدما جيت عندي ... بقى هو ده اللي مضايقك وملغبط حالك بالشكل ده؟

ـ يعني ... آه

بالطبع لم أصارحها بأكثر من ذلك، فقط طبعت قبلة على رأسها ومازحتها ثم ودعتها بعناقٍ حارٍّ طويلٍ. وعلى الرصيف أمام الفندق وقفت أتابع سيارتها الزرقاء تبتعد بإيمي وجزءًا من روحي، تاركة إياي في حالٍ أفضل بالتأكيد، أكاد أرقص في الشارع وأعانق المارة، فإيمي تراني شخصًا صالحًا وهو ما ينهي محاكمتي ويدق المطرقة معلنًا البراءة. إيمي تركت بابها شبه موصد، ولكنه لم يكن يكن موصدًا بالكامل، مما يعني أن الأمل ما زال قائمًا، والعالم لم ينتهي بعد.

هي دافئة مثل الأمل، بعد سقطة كبرى ...

هي غروب وردي، يملأ الأفق ويتسلَّل إلى الروح ... هي قهوة وسجائر... هي أغنية لم أملَّ منها ...

هي إيمي، كعادتها تنتشلني من أقصى الأماكن ظلمة وتخرجني للنور.

***

- 24-

إحساس جديد كان يتدفق في العروق، شعور بين الغضب والحماس ملأني بعد أن تقيأت بقايا اليأس بعيدًا، عرفت هدفي ورأيته واضحًا؛ لن أهرب من العمارة ولا أترك المهمة، ما زلت أنا بطل القصة وهذا القاتل عدوي، حتى ولو كان أنا، هذا السَّفَّاح ببساطة هو الجزء الأسود بداخلي الذي أهرب منه، لكن حان الوقت لأستدير وأواجهه، أصارعه وأذبحه وأنتصر لهويتي الحقيقية، هذا ما يجب عليَّ فعله ... خائف؟ لا، فقط مترقب لمواجهة شياطيني.

في ساعات الغروب الأخيرة رحت أتمشى على الكورنيش بخفة، شعرت بالسلام يغمرني من كل اتجاه، محمولًا على أجنحة هواء البحر البارد المعبأ بالرذاذ، يعانقني ويتلاعب بشعري. رأسي صافٍ ورائقٌ بعد أن سحَبَت إيمي دون عناء أي أثر للعكارة منه، أشعر وكأنني أرتدي جسدًا جديدًا، هذا الجلد يبدو أكثر راحة وكأنه صار مقاسي أخيرًا، وقدماي تخطوان خطوات أكثر اتزانًا، وكل هذا بسبب إيمي، دائمًا هي إيمي. جلست على أحد المقاهي القديمة، شربت العناب البارد وأخذت أرتِّب كل الخطوط المتداخلة فأتى الناتج أفضل ممَّا أملت.

نعم ليست لديَّ خطة ولكن في قلبي هدفًا مشتعلًا يقودني، رسم لي العمارة ومائدة عشاء واجتماع مع السكان، سمعت أصوات الملاعق والسكاكين مع نغمات التشيللو الصادرة من الجرامافون، هذا هو ما يجب حدوثه، وبالفعل تحققت رؤيتي في خلال ساعات، عدت إلى العمارة تحت دهشة من عثمان الذي انتفض من على مصطبته لما لمحني وطار على بنيامين لإخباره، إلا أنه وجدني على باب الأخير راسمًا أسمج ابتسامة في تاريخ الابتسامات السمجة، أخبر سيده أن على جميع السكان الاجتماع الثامنة مساءً في شقته لمناقشة أمر مهم. لم أجب عن أي سؤال من أسئلة أين كنت وماذا حدث حتى لا أرضي فضوله، فقط نزلت إلى شقتي، اغتسلت وأعددت طبقًا به بعض الفاكهة النصف صالحة للأكل وفنجانًا من الإلهام البني ثم عانقتني الآلة الكاتبة وأخذت أكتب.

لسبب لا أعلمه أردت أن أبدو في أفضل صورة وأن أفرض عليهم كل ما أستطيع من سطوة، فارتديت قميصًا نظيفًا وغسلت أسناني وتعمدت التأخير عن موعدي ربع ساعة عالمًا أنني سأجدهم جميعًا حاضرين حول السفرة في انتظاري، يهزون أرجلهم ويقرضون أناملهم دون أن

يقربَ أيٌّ منهم حساءه، وهو ما وجدته بالضبط عندما دخلت وسحبت الكرسي على رأس المائدة. كان الجميع حاضرًا بالفعل، الأجواء مشدودة تمامًا كما خيمة جيدة الإعداد والصمت هو الطبق الرئيسي على السفرة، والتجهم هو العنوان المخطوط على الوجوه.

رغم الشموع المضاءة ورائحة الزعتر الذكية ومقطوعة (الفصول الأربعة) لفيفالدي التي تصدر عن الجرامافون كان العشاء مختلفًا تمامًا عن عشائي الأول معهم، بسبب حالة الترقب التي تغطي كل شيء حتى تكاد تقطع الأعصاب. بمرحٍ ألقيت عليهم تحية سريعة لم أنتظر ردها، وبوقاحة بدأت في تقطيع شريحة اللحم أمامي متجاهلًا وجودهم، حتى تنحنح بنيامين وقال وهو يبرم شاربه: «خير يا علاء أفندي؟». فلم أجبه بسرعة، بل مضغت وبلعت واستطعمت وقلَّبت النظر في وجوههم المجعدة، ثم قلت: «خير ... كل خير».

ـ بنيامين: عوَّقت كده ليه؟

ـ بعد ما خلصت سفري افتكرت إن ورايا موعد مهم في القاهرة ماكنش ينفع يستنى، بس جايب لكم أخبار حلوة.

ـ بنيامين: اتفضل.

ـ يسعدني أبلغكم أن المهمة نجحت.

ـ بنيامين: تقصد إيه!!؟

ـ الليلة الرابعة جات فجأة، السَّفَّاح اتحرك بدري.

ـ زكريا: وعملت إيه!

ـ مالحقش يقتل ميرتل، بس قتل البنات التانية.

ـ إلينور ماتت!

صرخت بها (أليس) وانتفض جسدها الضئيل كله، لكنها سرعان ما أدركت خطأها الفادح، فغطَّت فمها بيد ترتجف ونظرت بخجلٍ لوجوه زملائها الذين تجمدوا بأغلال الصدمة، ثم قال بنيامين الذي لم يستطع تمالك نفسه حتى أن يده المرتعشة أفلتت الغليون فوقع فوق السفرة: «ميرتل عايشة؟ ميرتل عايشة؟ صحيح الكلام ده يا علاء أفندي؟».

فقد الرجل السيطرة على قناع التعقل الذي يغطي ملامحه وصارعت عضلات وجهه بعضها البعض بين نصف يحاول التمالك وآخر تفلت منه أنصاف الابتسامات، أما الباقيون فامتقعت وجوههم واسودت وتبادلوا نظرات ذات مغزى لم يصاحبها حرف، فسألتهم بمرحٍ وأنا ألوك ملعقة من الأرز: «مش فرحانين يعني؟ ده احنا حتى لحقناها منه بالعافية، المرة دي كان عنيف جدًّا وشوَّه باقي البنات بطريقة بشعة، ماقدرتش استحمل المنظر».

هناك عاصفة ستقوم الآن، شعرت بها آتية لا ريب رغم الهدوء المطبق الذي سبقها، ها هي تتجمع في الأطراف المتصلبة والحركة المتجمدة للحاضرين الذين بدأوا في الأكل على مضض عندما سألتهم متصنعًا الاندهاش: «لماذا لا يأكل أحد سواي من هذا اللحم الممتاز». ثم تنحنح جوستاف، سألني معقود الحاجبين وهو يلعب بملعقته بعصبية بين أصابعه: «وباقي بنات، ولا واحدة منهم عايش؟». فهززت رأسي في بساطة ورفعت كتفيَّ لأعلى قائلًا: «للأسف لأ، أنا بلغت البوليس... نصيحة بنيامين إن باقي البنات مش مهمين، وإننا نركز القوات كلها على جريمة ميرتل».

وأخيرًا قامت العاصفة التي أطاحت بالعشاء وبالمائدة عندما حلَّ الصيف في مقطوعة فيفالدي، فلسع سوط الهستيريا ماري التي صاحت بأعلى صوتها وهي تطعن السفرة بسكينها: «بنيامين أيها المخادع القذر! كل هذا كان من أجل ابنتك». ثم بدأ بناءهم الشامخ بالتفكك والانهيار، فكانت الدموع الغزيرة هي ردة الفعل الحاضرة من (أليس)، وتركت الصدمة بصمتها على وجه زكريا الذاهل، كما وقف جوستاف في مكانه متحفزًا وكأنه ينتوي شيئًا ما.

أما نجمة الاستعراض بكل تأكيد كانت ماري التي استمرت في الصياح بوحشية لم أرها عليها من قبل، فأخذت تصدر الاتهامات والسباب في حق بنيامين الذي بدا مُشتَّتًا عندما أدرك أن قاربه الكبير قد ثُقب بالفعل، وقبل أن يهمَّ بالاعتراض عليَّ وتكذيبي صاح فيه جوستاف بالفرنسية زاعقًا: «كنت أعلمُ منذ البداية أنك لا تكترث لأمرنا، من يدخل من الباب بقدمه اليسرى بالتأكيد رجل خبيث النوايا».

سأكون كاذبًا لو قلت إنني لم أستمتع بالعرض حقًّا ـ رغم أن جزءًا مني تعاطف مع بكاء (أليس) ودموعها المتساقطة ـ فرؤيتهم ينهلون من نفس البئر السام كانت مريحة ومرضية إلى حدٍّ كبيرٍ، للمرة الأولى أرى بنيامين خائفًا ومشتَّتًا بشكلٍ حقيقي، بلا تمثيل، فجأة وجد نفسه

عالقًا من سترته بين يدي جوستاف المهووس الذي تطاير من عينه ما هو أسخن من الشرر، فنظر إليَّ باحثًا عن حليف لما فَقَدَتِ الكلمات طريقها لفمه، لكني انتظرت قليلًا حتى تشبَعَ عيناي من لوحة الحرب الأهلية المرسومة أمامي، ثم ضربت بسنِّ السكين ضربتين على حرف الطبق الخزفي مصدرًا رنينًا عاليًا أجبرهم على الالتفات إليَّ، وقلت: «اتطمنوا، ماحدش مات، أنا بس عرفت اللي بتعملوه من ورايا، عرفت كل حاجة».

ثم هدأ كل شيء، أفلت جوستاف بنيامين بالتصوير البطيء وعاد الكل لمكانه بملامح غارقة في الخزي وعدم التصديق، يلملمون شتات كرامتهم، فرأيت بنيامين يسوّي من سترته بأيدي ترتعش و(أليس) تهدهد وهي تمسح دموعها بكُمِّ فستانها، بينما وجهت أنا نظرة مُحبطة إلى زكريا، وقلت ملوحًا بالسكين في هدوء: «ماكنش له لزوم كل التمثيلية دي، كان ممكن تيجوا تقتلوني على طول». ولعمري لم أرَ عارًا مُجسَّمًا وظاهرًا مثل الذي اكتنف بنيامين وزكريا الآن.

ـ ماظنش إني آذيت حد فيكم، بالعكس ... أنا فتحت لكِ المخبز يا أليس انتِ وزكريا، وكنت بعلِّم إسحاق وأساعد جوستاف، وخاطرت بنفسي مية مرة عشان بناتكم، بس طبعًا مهما عملت كنتم هتفضلوا تتعاملوا معايا على إني هو، ما البني آدمين مابيعرفوش يشوفوا غير الوساخة.

بالطبع لم ينطق أي منهم، فكان السكوت ثقيلًا وجاثمًا على كل التفاصيل حتى أن الطقطقة الخافتة للهب الشموع كانت عالية بشكل مزعج، هل هو الندم ما أراه أمامي في سكوتهم؟ بنيامين كان الوحيد الذي همَّ بالتحدُّث مرتين لكنه سكت، فتكلَّمت مجددًا قائلًا: «أنا مش هنا عشان أحاسبكم، أنا بس بقول لكم إني هكمِّل وأثبت لنفسي إني مش الشخص ده وإني حد تاني غيره. وعشان ماحدش من بناتكم يستاهل يموت موتة زي دي».

برأس مُنكَّسة مستوعبة للهزيمة تحدَّث بنيامين: «مانتاش هتفهم النار اللي جوه كل واحد فينا بعد ما بنته ماتت بأبشع طريقة ممكنة وحرمتها انتهكت، أنت حولت حياتي لجحيم أبدي كئيب، عمرك ما هتفهم».

ـ بس أنا مش هو ...

ـ قول الكلام ده لروحك بعد ما بنتك الوحيدة تتقتل وتُغتصب، وشوف هتقتنع ولا لا.

ـ لو أنا كنت شخص سيئ كنت أذيتكم فعلًا أول ما عرفت الحقيقة، كان ممكن مارجعش خالص.

ـ انتي إزاي ليكي عين اتكلمي أصلًا!!

صرخت بها ماري وهي تشير بسبابتها ناحيتي، بعينين متسعتين في جنونٍ وجسدٍ متصلبٍ تشنجت كل عضلة فيه، انفجرت كلغم ضُرب بمطرقة، كأسد حبيس أُطلق سراحه، تحررت مشاعرها دفعة واحدة بعد ما كانت كامنة طوال الفترة الماضية، الآن وقد صار الغطاء مكشوفًا ها هي تنفجر على هيئة دموع وصراخ، لتتناثر شظايا غضبها في كل مكان. بشكلٍ عشوائي اتجهت للبندقية المعلقة على حائط بنيامين وسحبتها، ثم صوَّبت فوهتها نحوي، باحترافية جندي مخضرم لقَّمتها، وعلى صدري شعرت بهوة الموت الباردة، المجوفة. رأيت عينيها حادتين كعينا طائر جارح سُرقت أفراخه من عشِّه، كانت على استعداد لأكلي حيًّا وتمزيق لحمي بأسنانها، صارخة في وجهي بهستيريا بكل صفات الخيانة والخسة: حقير، ملعون، ابن زنا، شيطان.

ساد الذعر في الشقة وانكمش الجميع متراجعين، حتى أمسكت يد زكريا السمينة بفوهة البندقية وقال بلطف: « اخزي الشيطان يا ماري، بلاش نبوظ كل شيء دلوقتي ... إحنا ماشوفناش من علاء غير كل خير».

ولكن حتى لو اجتمع أرسطو وأفلاطون وكانط لما استطاع أي منهم إقناعها بأني شخص آخر غير قاتل ابنتها، بأن جسدي هذا مجرد رداء للإيجار أو غرفة فندق تغيَّر نزيلها، سأظلُّ نفس الشيطان في عينيها ولا أستطيع لومها في ذلك للأسف، ورغم أني داخليًّا كنت أرتجف خوفًا من نظراتها الحمراء وصراخها وفوهة البندقية، لكن تكلَّم الصوت العاقل في رأسي وقلت بهدوء خانتني فيه مشاعري، فهرب بعض الدمع الصادق:

«أنا مُقدِّر اللي بتمري بيه وعارف إنه أصعب من إنه يتداوى بشوية كلام، لكني رجعت لكم أهو عشان تدوني فرصة بجد أساعدكم وأساعد نفسي، فرصة أنقذ بناتكم وأثبت لنفسي إني مش شيطان».

كان الكلام يخرج من فمي بلا حواجز ولا مكابح ويعرف طريقه جيدًا متفاديًا المطبات والحفر، مما أظهر تأثيرًا واضحًا على الوجوه وملطفًا إياها قليلًا، وبالأخص على ماري التي

ارتخى جسدها وانزلت البندقية ببطء، بيد ترتعش وشفاه متذبذبة يسيل منها اللعاب.

جلست أراقبهم يتحولون ويتراقصون حول مختلف درجات المشاعر الموجودة في نطاق المحسوسات، فتراجعت ماري من الغضب لنوع من الاقتناع الحزين ثم انفجرت في البكاء، انزلقت (أليس) من الصدمة إلى مساحة من التعاطف المرتبك وهي تحتضن ماري، بينما وقف زكريا مكانه في خانة العار اليهوذي، وظلَّ جوستاف جامدًا غاضبًا كدأبه حتى لو أمطرت السماء رحمة. الوحيد الذي لم أستطع تبيُّن مشاعره وما يُكنُّه لي هو بنيامين، فكان يفرك غليونه بين أصابعه ببطء ويبرم شاربه الأبيض بتأنٍ لكن بلا تعبيرات أو تغييرات، ثم تكلَّم أخيرًا بعمليته المعهودة وقال: «نقدر نساعدك إزاي؟».

وكان هذا عهدًا جديدًا في عمارة ميرتل وفي علاقاتي بسكانها التي عادت كلها إلى المربع رقم صفر، كالغرباء حديثي التعارف، لكننا اتفقنا ضمنيًّا على تجاوز ما حدث من أجل المصلحة العامة، ولأن الوقت لم يعد في صالح أي منَّا. بعدما جنيت الحقيقة اختلف كل شيء، حتى النوم على أريكتي الزرقاء اختلف، فصرت أنام نومًا هادئًا خاليًا من الكوابيس والهلاوس، أستلقي مبتسمًا وأتأمل نقوش السقف مُفكرًا في مقابلتي مع إيمي، جلدها الرقيق في قبضتي عندما تصافحنا ورائحتها السُّكرية التي ما تزال تحوم حولي كالفراشات.

هل كان حديثنا ما أردت؟ راجعت الكلام أكثر من مرة وأعدت تشغيل شريط المقابلة في رأسي، فصلت الكلام ووزنته كلمة بكلمة وقسمته إلى مقاطع، بل وأعطيت كل مقطع درجة على ميزان السلبية والإيجاب، وكانت النتيجة مقبولة إلى حدٍّ كبيرٍ، مِمَّا كان يدغدغ خلايا عقلي ويساعدها على النعاس بسلاسة.

مرتاحًا أمضيت الأيام التالية في التفتيش بين أوراق وأدلة القضية من جديد لكن بنظرة مختلفة هذه المرة، وكأني أراجع مذكراتي، أحاول الغوص في تفاصيل القضايا ومعايشتها لكن كقاتل، أشم الأوراق ببطءٍ وأمرر الأدلة على وجهي حتى يثير فيَّ الملمسُ أو الرائحةُ ذكرى ما مدفونةً أو متواريةً، ولكن كل ما حصلت عليه كان لمحات مشوشة طغى عليها اللون الأسود، هي نفس النتيجة: لا شيء ... ثم أتى الدور على السكان لمساعدتي، في اجتماعات صغيرة جلستُ مع كلٍّ منهم على حِدَةٍ حيث حكوا لي عن صلة قرابتهم الحقيقية بالضحايا وببعضهم البعض.

حدثني زكريا مع كوبٍ من الينسون والكثير من الخجل عن علاقته الحقيقية بأليس التي اقتصرت على شراكة مخبز (سوكر إيميال- السكر والعسل) في الإسكندرية، وأن بطريقة ما قُتلت ابنة كلٍّ منهما في الليلة الأخيرة من سلسلة الجرائم، وبالنظر لمعرفتهما الوطيدة ببعضهما البعض قرَّر بنيامين أن يأخذا دور الزوجين حتى تصير الحبكة مقنعة، كما حكى لي عن إسحاق شقيق «شحتة الجدر» ضحية الليلة الثالثة، الطفرة والنشاذ في سيمفونية السَّفَّاح، وأنه الوحيد المحظوظ منهم عندما نجى شحتة هذه المرة وقُتل القس بدلًا منه، ولهذا عاد إسحاق لخطه الزمني.

وبسيجارة المجنون في فمه أخبرني جوستاف عن قصته، حكى بين غابات نظريات المؤامرة الملتوية عن أخته العزيزة (ماجي) التي ماتت في الليلة الأولى وكيف أنه واصل المهمة فقط من أجل (أليس) التي وقع في غرامها من أول نظرة، بالطبع مع الكثير من تعبيرات الغزل التي انقرضت منذ القرن السابع عشر، أما ماري فحكت لي تاريخها الصادم وهي تداعب قطة من قططها على كتفها، أخبرتني أنها كانت جاسوسة إنجليزية تعيش في الإسكندرية برفقة ابنتها الوحيدة (فيونا) ضحية جرائم الليلة الثانية. قالت لي كم كانت -ماري- صارمة ومحترفة، وكيف حصلت على تدريب خاص من المخابرات البريطانية لتعمل من أتيليه الخياطة الخاص بها مع عملاء آخرين على خطة طويلة الأمد لخلخلة الأمن في مصر حتى يبقى الاحتلال فيها أطول وقت ممكن، وكيف انكسرت ومزقها الندم عندما قُتلت ابنتها؛ لأنها كانت سببًا غير مباشرٍ في مقتلها بما كانت تفعله بالبلد «فلتذهب المملكة للجحيم لكن تعود فيونا» كما قالت.

رغم ذلك كانت تصر وتكرر مرارًا على نعتي بالمجرم، كل كلمة قالتها ووجهتها لي كانت إتهامًا صريحًا بالقتل ومحاولة لإثارة أي شعور بالذنب، ولكني لم أنفعل أو أتفاعل معها، فقط استمعت في تعاطفٍ وتفهُّم. أما جلستي مع هنري كانت هي الأكأب على الإطلاق، شحيح الكلام كان، لم يتحدَّث إلاَّ مجيبًا عن أسئلتي، وعلى وجهه ترك الانهيار آثار أقدام واضحة للعيان، حدثني عن أوليفيا ابنته التي ماتت في ثاني الليالي وعن زوجته التي انتحرت على إثر مقتلها، عن حياته التي تحولت لبقايا ذابلة من بعدهما، لكنه قنع بها في انتظار النهاية، فلم

أمتلك سوى الاعتذار مرات ومرات بين كل سكتة في كلامه، وكان يقابلني بالمزيد من الصمت المتفهم، الجريح.

الجلسة الأخيرة كانت مع بنيامين الذي زارني في شقتي، أتاني مُحمَّلًا بالتبغ والكبرياء، وتبارينا في الصمتِ وقلة التعبيرات، ولكلٍّ مِنَّا أسبابه بالطبع، حول الطاولة الصغيرة في الشرفة جلسنا، وبعد التحية والسلام تظاهر كلٌّ مِنَّا بانشغاله في تدخين غليون أو سيجارة مُركزًا بصره في أي مكان عدا وجه الآخر، حتى تحدَّث هو قائلًا كم كان يكرهني في البداية وكم كان يودُّ لو اقتلع رأسي بيده، وأنه حتى الآن، برغم كل ما رآه مني من أفعال طيبة وعلامات حسن نية، لم يزل بيننا بحار من الدماء العذراء النقية، ثم حكى لي القصة الحقيقية التي لم تختلف كثيرًا عَمَّا قاله سلفًا، فقط انتقى الأكاذيب من بينها ومحصها وألقاها في نار الصراحة؛ فعلى سبيل المثال أخبرني أن حِنَّة كانت مجرد خادمة أَحبَّت سيدتها وساندتها طوال رحلة العقم حتى انفتح رحمها، ولا تجيد سوى قراءة الفنجان والكف وكل ما لا يحتاج دراسة اللغات للقراءة.

عندها تذكَّرت ما قرأته في الخطاب وحزن قلبي قليلًا، فنبؤة حنة كانت وقودًا دفعني للاستمرار في هذه المهمة وأضفى عليها سحرًا وثقة، ولكن على كل حال تغير دافعي، لا حِنَّة ولا سفرية زمنية مجانية ولا أي شيء سوى الانتصار لنفسي على نفسي، سألته عن خطته الأصلية وعمَّا كان ينوي فعله بي فأجابني مشيحًا ببصره بعيدًا أن الخطة ببساطة كانت أن أنقذ الفتيات ثم تقضي كل نسخة من نسخي على الأخرى، أن أقودهم إلى نسختي القديمة؛ لأنني الوحيد القادر على التفكير مثلي بعد أن فشلت كل محاولات الشرطة والخبراء في التنبؤ بخطواتي أو تفسيرها. سألته:

ـ ليه اللف والدوران ده؟ ليه ماخلتش ميرتل والبنات يسافروا بعيد وخلاص؟

ـ ماكنشي يجوز أعبث بأثر اليعسوب للدرجة دي تاني، كل حساباتي كانت بتقول إن الحل الوحيد مع الشيطان ده إنه يتقتل، نشيل الخطر من جذوره بدون ما نسيب له فرصة تاني.

ـ أنا هرجع النهاردة هناك، بعد شوية.

نطقتهَا عالمًا أنني سأخطف انتباه بنيامين الذي اعتدل في جلسته على الفور متصلب العنق معقود الحاجبين، ثم أكملت حديثي قائلًا: «أنا ماكدبتش لما قلت الليلة الرابعة هتبقى قبل

ميعادها، صحيح ماعنديش دليل لكن عندي إحساس قوي جدًّا إن ده هايحصل، من ساعة ما عرفت إن ... إن أنا هو، وأنا بحاول دايمًا أحط نفسي مكانه، وأنا حاسس إنه قرب، إنه مستعجل».

وكان هذا الكلام حقيقيًّا، فقد بدأ يراودني شعور موتر يقول إن هناك كارثة تقترب وتزحف عكس عقارب الوقت، هو يريد أن ينتهي من هذا بأسرع وقت لأنه تطوَّر لأكثر مِمَّا توقَّع، هو يلعب لعبة أكبر منه ومن قدراته التي يعي حدودها جيدًا ويريد أن ينتهي منها وهو في موقع المنتصر.

***

- 25-

سنة 1899 (س.م.ت)

فقط عندما اعتقدت أن كل شيء سيتحسن، حلَّت الكارثة الجديدة: أين ذهبت ميرتل؟ أي أرض انشقت لتخفيها؟

ها أنا ذا أقف في منتصف المعمل حائرًا، يغطي نحيب بنيامين على أفكاري ويفرق شملها، يطحنني العجز أمام نواح العجوز الذي يتساءل عن مكان ابنته ويلعن اليوم الذي قابلني فيه، وبأسئلة مجدفة يصبُّ جامَّ غضبه طاعنًا في الذات الإلهية. لَمَّا لم أقوَ على استيعاب كل هذا جلست على أحد الكراسي الخشبية، بين يدي دفنت جبهتي محاولًا عزل نفسي عن التوتر ومراجعة فُتات المعلومات التي أعطاني إياها بنيامين الأصلي، لم يكن من المفترض أن تختفي ميرتل أبدًا، ولكن هذا بالتأكيد جزء من سلسلة التغييرات التي حدثت بسبب أثر اليعسوب.

هل ماتت؟ هل قتلها الوغد قبل موعدها؟ والسؤال الأهم والألعن، هل رآني وعرفني في آخر ليلة؟ الويل لي كل الويل إذن. لم تتحمل أعصابي كل هذا النحيب والنكد فتركت الخواجة الباكي وبدون كلام غادرت معمله، يظللني الإحباط بأجنحته كما رُخٍّ عملاق، والتوهان يلفني ويعرقل قدميَّ وأنا أخرج من العمارة، حتى السماء بالخارج كانت ضبابية كئيبة وكأنها تتآمر معهم ضدي.

أخذتني قدماي للسير بالأحياء القديمة وسط نظرات العامة المستنكرة للأفندي عاري الرأس الذي يجوب الشوارع بلا طربوش، في الأزقة الباردة سرت أركل الحصى وعقلي يركض في دهاليزه بحثًا عن تفسير لما حدث، ما الذي حدث؟ لا تفسير، تسرَّب المنطق من بين يدي مثل الرمال ونبتت الفوضى في كل مكان. يائسًا رحت أحاول تقمص چاك علَّني أمسك بذكرى أو خاطرة من تلك التي دارت بين جدران هذا الجسد من قبل، ولكني كلما كنت أقترب من تقمُّص حالته لا أطول سوى أطياف تختفي سريعًا.

مع هبوط الليل خطفت أبصاري حركة الشوارع المتبدلة بين العائدين من أعمالهم والباحثين عن سهرة في أحد الكلوبات أو المسارح، فأفكر مغتاظًا: ربما هو أحدهم، ربما كان الرجل الذي مر بجواري منذ قليل أو آخر يجلس الآن في دفء حانة من الحانات أمامي، يتجرَّع النبيذ وهو يراقب ضحية من ضحاياه اللاتي أعجز عن معرفة لماذا وكيف يختارهن، ولكني على الأقل متأكد أن هناك نمطًا ما، هذه غرفة من الغرف القليلة في عقله التي نتشاركها معًا. هو يتبع الأنماط سواء على تفاصيل صغيرة أو بمقياس كبير، وهذا هو المفتاح، من أين أبدأ إذن؟

التنقيب في الذكريات السحيقة المخزنة داخل رأسي هو الحل الواضح أمامي، حاولت مرتين، لكن التركيز في ليل الإسكندرية المتروبوليتانية درب من المستحيل، حيث كان الشارع يسبح داخل أمواج من أصوات متلاطمة منعتني من تكوين فكرة واحدة كاملة؛ موسيقى عالية وأحاديث مارة وصياح أصحاب الأماكن الترفيهية الداعين للزبائن، لكني جاهدت، بالتدريج أغمضت عيني وغُصْت في أفكاري فازداد التركيز وخفتت الأصوات، حتى كُتمت فجأة.

كالغطس في ماء بارد شعرت وأنا انغمس أكثر، ومضت في عقلي صور متسارعة لم أرها من قبل: أرجوحة وحفل راقص وشعر أحمر، ذكريات عاشها هذا الجسد سابقًا وما زال يحتفظ بها مطبوعة في مكان ما، لا تحتاج سوى بعض الحفر والمجهود حتى تظهر كاملة. مغمض العينين استندت بظهري على واجهة أحد المحال في محاولة للتوحُّد مع أحد تلك المشاهد العابرة وتثبيت واحد منها، حتى تراءت لي غرفة، ببطء.

غرفة قديمة باردة ذات أثاث متهالك، ما أن تكونت صورتها في رأسي حتى شعرت بالرطوبة تزحف على جلدي وببعض الكآبة تركبني، ثم بدأ الصداع في التسلل لرأسي فلم أركله جانبًا بل رحبت به وعانقته كصديقٍ حتى يحكي لي أكثر، بينما التفاصيل آخذة في الوضوح: بعين عقلي رأيت الشقوق تملأ الجدران، وأكوام من اللوحات غير المكتملة متناثرة هنا وهناك، زجاجات خمر فارغة وسكاكين حادة على طاولة، ورائحة عطر رخيص تفوح في أنفي لتحمل معها إحساسًا بالغضب، كما ترامت لمسامعي من قلب الرؤية أصوات ضحكات صاخبة لا تتصف إلا بالفحش.

كلما مرَّ المزيد من الوقت كلما كنت أتمكن من أخذ نظرة أوضح للغرفة فتصيبني أحاسيس بعدم الراحة، بالإضافة إلى الصداع المؤلم الذي يتصاعد مع زيادة التفاصيل ولكنه يزيد من وضوح الرؤية. الغرف الشخصية مقر أعمق الأسرار لكن هذه الغرفة تحتوي على ما هو أشنع، فهناك وجوه بشرية مسلوخة معلقة على قوائم كالأقنعة و... فجأة شعرت بقبضة دقيقة تمسك بكتفي لتنتشلني من الرؤية وتخرجني من حوضها البارد، كانت تلك سيدة عجوز قصيرة تحدجني بنظرات قلقة وتسأل: «انت بخير يابني؟».

وددت أن أصرخ في وجهها أنني «لست بخير أبدًا أيتها الشمطاء» لكني على مضض أخبرتها أنني بخير وتركتها مبتعدًا، رغم تبديد الرؤية وضياع إجابة أخرى لكنها على الأقل أضاءت لي بقعة جديدة على خريطة بحثي، غرفة شخصية أخرى بالتأكيد ستحتوي على سر أحتاجه، بسرعة نهبت الطريق حتى العمارة لا يشغل بالي سوى ما قد تحتويه غرفة ميرتل بين طوق نجاة وخيبة أمل، العقبة الوحيدة لمعرفة ذلك هي إقناع بنيامين بتفتيش الغرفة.

في مكتبه كان يجلس مُنكَّس الرأس، يهزها يمينًا ويسارًا بين الحين والآخر وكأنه يعترض على فكرة ما تتردد في ذهنه، عرضت عليه أن يفتح لي الغرفة فقابل طلبي بعاصفة من الغضب التي سرعان ما خمدت في كآبة وبلا مبرر، فمد يده داخل جيب سترته وأعطاني سلسلة المفاتيح بلا كلام، بنيامين انكسر أمام القدر، بنيامين صار حفنة غبار في مَهبِّ الزمن بعد أن كان سيده وسلطانه.

بلا تردد التهمت المسافة من المعمل حتى غرفة ميرتل، أو بالأحرى باب غرفتها، فلم أدخل فورًا بل وقفت أمام الباب لبعض الوقت في خشوع، أنت على أعتاب الحقيقة، اِخلع نعلك فالمكان طاهر، هكذا فكرت وأنا أتحسس بأصابعي بابها الخشبي الأبيض ذا النقوش الكيوبيدية وأغصان الكرمة على جانبيه، ثم أخذت شهيقًا وفتحت الباب في رفق، ودخلت.

كانت غرفة وردية اللون كما توقعتها، غطَّى جدرانها ورق حائط رقيق لأزهار بيضاء تتواصل بشكلٍ رأسي، وفي الركن انتصب سرير نحاسي ذو قوائم طويلة يتألق في أضواء الشموع، كما كانت هناك أيضًا خزانة ملابس، مكتبة ومائدة فضية استوت عليها أدوات حياكة ومشاريع من الخيوط التي لم تكتمل بعد.

غرفة نظيفة بطريقة تبعث على الحنق، مُرتبة بطريقة سمجة تقول (لن تجد شيئًا هنا)، ولكن لا، أنا أثق بقراري تلك المرة، وقلبي يشجعني ضاخًا في جسدي دماء اليقين؛ لذا ببطء وعلى أطراف أصابعي تفحصت الغرفة خوفًا من تلويث متعلقات هذا الملاك الذي ينضح كل ما له بالبراءة، في المكتبة بحثت، فحصت الخزانة وتحت السرير فلم أجد سوى المزيد من الترتيب والنظافة، عن ماذا أبحث أصلًا؟ عن أي شيء يدل على مكانها:

تذكرة سفر، خطاب تعلن فيه عصيانها أو حتى قصيدة مقطوعة من كتاب تتحدث عن الانتحار، فكرت وأنا أجثو على ركبتي؛ أين كنت لأخبئ أحد متعلقاتي الخاصة كمراهقة ساذجة في نهاية القرن التاسع عشر؟

تحت الوسادة مددت يدي فقوبلت بتصفيق حاد من الجمهور الوهمي في رأسي، أمسكت بالجسم الصلب البارد الذي أخرجته لأجد دليلًا كلاسيكيًّا خفق له قلبي خفقتين إضافيتين:

مفكرة مخملية بلون أسود. كُتب عليها بماء الذهب وباللغة الإنجليزية (مذكراتي)، هنا تكمن ملائكة ميرتل وشياطينها، هذا هو صندوقها الأسود، برفق فتحت المذكرات بعد أن جلست على السرير، قربتها من ضوء شمعة ثم أخذتُ جولة أولى سريعة بين الصفحات آكلًا بعيني التفاصيل والكلمات، ثم في الجولة الثانية بحثت بتمهُّل في التواريخ المكتوبة أعلى كل صفحة، بدأت من الأقدم للأحدث حتى توقفت عند صفحة تحمل تاريخ 12/4/1898، رُسم على حواشيها بعض زخرفات بالحبر لورود وطيور خطف منظرها عيني فبدأت بالقراءة:

« اليوم قابلت حبَّ حياتي ...

ما هو الحب يا مفكرتي العزيزة؟ لا أعرف حقًّا، تحكي عنه الروايات كلامًا عذبًا لكنه خيالي، وتقول فرجينيا صديقتي إنه مجرد بوابة محترمة لممارسة الجنس، صحيح أنا لم أجربه، ولكني أراه يوميًّا، متجسدًا في نظرات أبي وأمي لبعضهما البعض على مائدة الفطور، وفي أوقات فرحهم وحزنهم، نيران أبدية متجددة لا تنطفئ ولا تتأثر برياح الحياة وعواصفها.

اليوم في حفل چولي حصلت على نيراني الخاصة، وأوقد أحدهم جذوتي التي لم تعرف لهب الحب منذ ولدت في القفص الذهبي، الذي صاغه لي بنيامين وكلودين بعد تجربتهما المريرة مع العقر ... رجلٌ نبيلٌ، رجلٌ بحقٍّ، قوي الوجه ورجولي البنية، ومع ذلك فهو فنان رقيق ... رماني بتلك النظرة فاشتعل جسدي بالحرائق، سألني عن اِسمي ولثَّم يدي ثم تسامرنا قليلًا

حتى كِدت أفقد وعيي خجلًا وفرحًا، لم أعرف اسمه بعد يا مفكرتي العزيزة ولكنه أخبرني أننا سنتقابل مجددًا.

اليوم قابلتُ حبَّ حياتي وأنا أسعد مخلوقات الكون»

ابتسمت وأنا أقرأ كلام المراهقين الساذج الذي لا يختلف في أي قرن ولا زمان، ثم واصلت تصفُّح المذكرات مجددًا حتى لمحت عيناي الاسم الملعون، اسمي الأصلي، فتجمَّدَت في عروقي الدماء وبدأت في القراءة على مهل:

«چاك هو اسمه، هو اسم الرجل الأنبل في العالم ...

اليوم قابلته مجددًا، أخبرني أنني أبدو كزهرة السَّوسن في فستاني الأرجواني فسرى برقٌ حلو في أوصالي، ثم أهداني وردة وصورة زيتية رسمها لي من الذاكرة، فنان بحق!.

لا أنكر يا مفكرتي أنني كنت خائفة، بل ارتعدت في فستاني من أن يكتشف أبي أنني لم أذهب لمدرس الحياكة، وأنني أجوب شوارع الإسكندرية المبهرة بصحبة چاك ... ولكن الساعتين اللتين قضيتهما معه كانتا الأفضل على الإطلاق في عمري القصير.

ساعتان تكلمنا فيهما وشربنا الشاي ورقصنا في كلوب صغير، ساعتان فقدت فيهما قدرتي على تمييز المكان والزمان فاختلط الصباح معي بالمساء، وتحولت جدران المقهى لبيت صغير صنعته في عقلي.

اليوم تدفقت في قلبي شتى أنواع الأحاسيس بين حب وإثارة وخوف، اليوم جربت الحياة الحقيقية لأول مرة».

ميرتل تحب چاك! كان هذا اكتشافًا من شأنه تغيير اللعبة تمامًا! وعلى الفور بدأت رؤيتي تتضح ويخرج بعض الغبار من مجالها راسمًا الصورة الصحيحة؛ إذن فچاك دونچوان متعدد العلاقات، يستدرج ضحاياه في فخِّ الحبِّ ثم يقتلهن لسبب ما، تفسير منقوص ولكنه مبدئي وعلى الطريق الصحيح.

صفحة تلو الأخرى أخذت أقرأ خواطر ميرتل التي تهيم حبًّا في قاتلها وتحكي ذكريات معدودة جمعتهما دون علم بشر: مقابلات في شاطئ بعيد أو حفل تنكري، لقاءات شهدت غرقها أكثر فأكثر في رماله المتحركة، فتسهب في الحديث بين الصفحات عن العوامل

المشتركة بينهما كعشق الفن والرسم وعلوم الفلك، وكيف كان يهديها لوحات خاصة وكتبًا عن الحياكة والتنجيم، يبدو أن هذا الوغد يعرف جيدًا كيف يتعامل مع النساء.

ورغم شعوري بذنب متزايد وأنا أتبحر أكثر فأكثر في أسرار ميرتل لكني واصلت القراءة، فاقتحام خصوصيتها كان إجراء لا بد منه كألم استخراج الرصاصة من الجسد، سامحيني يا عزيزتي أنا أحاول إنقاذك هنا. وفي النهاية وصلت لآخر الصفحات، صفحة تناثرت عليها البقع الجافة المميزة لقطرات دموع جفت، بصعوبة بين بقع الحبر الباهتة قرأتها:

«الفراق يكويني ويحرق جوفي، صار العالم كومة رماد منذ أن تركني چاك، نبذتك يا مفكرتي ونبذت المأكل والمشرب والتنفُّس، كل ما أريده هو أن أنام فلا أستيقظ سوى في تابوت، فالموت يبدو مهربًا جيدًا عندما يُكسر فؤادُك.

ممزقة أنا بين الانصياع لرغبات حبيبي وبين احترام والدي* وخوفي عليهما، موضوعة بين مِطرقة وسِندان، والعذاب هو مصيري في كلتا الحالتين، فإذا نفذت كلام جاك وهربت معه سينفطر فؤاد أبي وقد تموت أمي من الحسرة، وهو ما لن أُقدم عليه أبدًا، وإذا لم أهرب معه سيتركني أعيش وحيدة للأبد، في هذا العذاب المؤلم المُسمى بالحياة ... صَدَقوا حين قالوا إن الحياة لا تعطي إلا لتَمْنَع.

لا أملك إلا أن أصلي حتى يغيّرِ چاك رأيه، فقلبي مثقل بالأحزان وفي داخلي حسرة العالم».

تاريخ هذه الصفحة كان منذ ثلاثة أيام، والعديد قد يحدث في ثلاثة أيام، بل إن نصف العالم خُلق في ثلاثة أيام، ولكني أعلم يقينًا أن ميرتل لم تغيّرِ موقفها في ثلاثة أيام، المذكرات تقول إنها لم تهرب بصحبته، فهل اختطفها إذن؟ هذا مستبعد ... الاحتمالات كثيرة تتساقط على رأسي مثل قطرات المطر، ميرتل اختفت قبل موعد مقتلها ببضع ليال وهو ما قد يعني نجاة مفاجئة أو هلاكًا محقَّقًا، وأيًّا كانت الحقيقة لا يمكنني أن أضع إصبعي تحت ضرس الاحتمالات.

كم أمقت ذلك اليعسوب اللعين وتأثيره المبالغ فيه، فهو يعبث بكل شيء ويتلاعب بي منذ اليوم الأول، كم أرغب في الإمساك به بين أصابعي لأمزقه تمزيقًا، أريد حقًّا ـ وليس مجازًا ـ أن أقتل ذلك اليعسوب النجس، ولم لا؟

أضاءت الفكرة في عقلي بلمعان فلاش الكاميرا حتى كادت تعمي خلاياه، اليعسوب يلهو بنا والزمن يعبث بكل ما هو مخطط له، فلماذا لا نتلاعب نحن به؟ وافقني الشيطان الذي ضرب الفكرة في رأسي وأومأ متحمسًا، طويت صفحات المفكرة وككرة متحمسة من المطاط أخذت أجوب غرفة ميرتل، في يدي طرف خيط وفي عقلي تتبلور خطة، لا أعرف كيف سأصيغها ولكني أرى لمحات من الطريق ... العين بالعين والسن بالسن، واليعسوب يعبث بي، لأصطاده في شباكي إذن.

***

- 26-

(كل خطة ناجحة هي خطة حمقاء في البداية)

هكذا افتتحت مرافعتي أمام فرقة كلاب الصيد بمقر الحكمدارية، محاولًا تلخيص الخطة وتزيينها ببعض الجمل المنمقة حتى تفلح في إثارة اهتمامهم، ولكن أيضًا (كل خطة حمقاء هي حمقاء في البداية). كيف فاتني هذا؟

كانت محاولة خائبة، شعرت فور منها بنظراتهم المحبطة تلدغني من كل صوب وتخبرني بأكثر الطرق تهذيبًا أنني أحمق، ثم صدرت عن الضابط الإنجليزي إياه ضحكة خافتة مكتومة كانت بمثابة الإذن حتى يبدي الجميع آراءهم في خطتي بصوت مسموع:

(عبث) و(فلسفة فارغة) و(حمق تام)، كانت تلك أبسط الكلمات التي طالت أذني، في حين هزَّ (حسن سلامة) رأسه وفرك عينيه محبطًا ثم ترك الغرفة من أجل صلاة الظهر، وفي الركن لمحت لومبروزو ينفث دخان غليون كسول بلا ملامح، بصحبة مترجمه الأشقر الذي أخذ يصيغ كلامي بإيطالية.

تملكني شعور بالغباء عندما ساد الهرج، قلبت نظري في الوجوه ضامًّا شفتيَّ لكني من بين التعبيرات الساخرة رأيت هاريسون وهو يداعب ذقنه في بطء، وفي عينيه الزرقاوين لمحت نظرة تجاوزت جدران الغرفة وأبعد منها، حاجباه المعقودان يخبراني أن الفكرة بطريقة ما لعقت جزءًا من أجزاء مخه، ثم قال بالإنجليزية وبصوته الهاديء الذي أجبر الجميع على السكوت: «أخبرني أكثر، كيف ستتمكن من ذلك؟».

بحماس اتجهت لخريطة الإسكندرية الكبيرة المعلقة على الحائط، وقبل أن ألتفت لأواجه كلاب الصيد أخذت نفسًا عميقًا وأنا أزن الكلام في رأسي أولًا حتى لا أتطرق للجوانب المتعلقة بالسفر الزمني، ثم قلت بالإنجليزية من أجل عيون لومبروزو ومترجمه:

«من الواضح أن سفاحنا العزيز استعراضي يحب نيل المديح والثناء، كل هذا واضح في خطاباته وطرقه، وأن الشهرة التي يتلقاها تمده بنوع من أنواع القيمة يفتقدها في حياته

العادية؛ لهذا أنا متأكد أنه إذا شعر ببساط الشهرة يُسحب من تحت أقدامه سيُقدم على فعلة حمقاء تكشفه أو على الأقل تكشف جزءًا واضحًا من نمط تفكيره» ...

ـ هاريسون: هممم، وكيف ستسحب هذا البساط من تحته؟

ـ بسفَّاحٍ جديدٍ ...

ـ سيد علاء هل أنت في وعيك؟

ـ أنت لا تعرف كم أنا متيقظ الآن ...

ـ أخبرني ماذا تعني إذن.

ـ نختلق سفَّاحًا جديدًا جرائمه أكثر إبهارًا ورعبًا، ونجعله حديث الساعة والصحف والبلد ...

سكن الجميع، توقفت الأجساد عن الحركة المتململة وتصلَّبت الأعناق، تحولت الخطة في نظرهم من مكانة الحمق الأبله إلى مكانة الحمق الجذاب، فسأل هاريسون وقد استدار بكامل جسده ليواجهني: «ثم؟»

ـ ثم يُجن جنونه، يخرج عن المضمار الذي حدَّده لنفسه سلفًا كي يتجاوز التوقعات.

عندما يتألق ممثل ثانوي على المسرح ويخطف الأضواء تجد بطل المسرحية قد أخذ في المبالغة والافتعال حتى يثبت للجميع أنه الأفضل، فيفسد الدور.

كان هذا جيدًا، خرج الكلام أفضل بكثير مِمَّا توقعت فرأيتهم يتبادلون النظرات الصامتة فيما يعرف بنظرة الـ (ما رأيك؟)، بطرف عيني لمحت هزات رأس خفيفة تصدر عن لومبروزو الذي توقَّف عن التدخين للحظات، هذا السَّمين يكره الاعتراف بأن هناك عبقريًّا آخر هنا سواه ويقاوِم أن يصفِّق لي في انبهار، ولكن الحقيقة أنني أنا نفسي لم أكن أعلم إن كانت خطتي بالفعل جيدة أم كومة من الهراء، فالحماس اللعين يدحض المنطق ويبني في رأسي عوالم بلا قوانين أو حدود، سألني (حسن سلامة) الذي أخذ يبرم شاربه في علامة على التفكير، ومتجاهلًا كعادته قاعدة الكلام بالإنجليزية في الاجتماعات: «ودي هتعملها إزاي إن شاء الله؟»

ـ الموضوع ليس صعبًا، بإمكاننا العمل على تصميم للسَّفَّاح الآن شريطة أن يكون مبهرًا ومتطرفًا، ثم ننشر آثاره في كل مكان بالإسكندرية ونملي على الصحف شائعاتنا الخاصة.

ـ هاريسون: أنت تريد أن تثير المزيد من الفزع والرعب بين المواطنين!

ـ وهو ما نحتاجه بالضبط، عندما يشعر هذا الذئب أننا مشغولون بآخر غيره سيغضب، سيتخلَّى عن احتياطاته أو جزءٍ منها.

هنا سمعت جُملة بالإيطالية تخرج من حنجرة سمينة متغطرسة، ثم تبعها الصوت الإنجليزي الملازم لها قائلًا: «يعجبني هذا، فأنت تتحدَّث وكأنك تعايش الشخصية، وكأنك مقرَّب منه». أصبت يا لومبروزو الغبرة، هو ليس مقرب مني فحسب بل هو أنا، في يوم من الأيام سكنني وتشاركنا نفس الفص الصدغي.

ـ أكمل هاريسون: ربما سيستفز هذا نزعته الدينية المجنونة أيضًا، إنه يقتل تحت لواء ديني بين المسيح والعذراء والقديسين، بالتأكيد سيشعر بالغيرة عندما نهمل كل تلك الأسباب العليا ونلتفت لآخر.

وافقته بشدة ـ وإن لم أكن قد فكرت في هذا أصلًا ـ فكلامه يؤيد خطتي على كل حال، وعلى غير المتوقع ألقى هاريسون قنبلة في الاجتماع عندما أبدى موافقة مبدئية شريطة أن أطلعه على مسودة كاملة من الخطة وتفاصيلها وتصميم السَّفَّاح، هذا رجل عبقرى ذو حسٍّ بوليسي مميز؛ لأنه وافق على خطتي بالطبع. سريعًا أمرني بتكوين فرقة من ثلاثة ضباط بالإضافة إليَّ أنا وحسن ولومبروزو، ولكني استأذنته في جلب ضيف آخر خاص ليساعدنا، فوافق على مضض رغم رفضه التام في البداية؛ لأن هذا الضيف كان الثعبان موسى ياقوت، والذي بالرغم من كل خباثته وأكاذيبه رأيته قطعة أساسية في الخطة، مفصلة على مقاسها تمامًا.

وما أن أُبلغ بالخبر، أتانا موسى بسرعة الحيات، ودخل الحكمدارية يتبختر بصندوقه الخشبي المحمول الذي كان أقرب لحقيبة الحاوي شكلًا ومضمونًا؛ فاحتوى على صحف وأوراق وأقلام، وعدسات مكبرة وأسطوانات أغاني، وعلب تبغ وكاميرا ضخمة وطعام.

استقبله الجميع في الحكمدارية بازدراء لكنه كان بشوشًا لم تفارق ابتسامة الثعالب وجهه، يمشي كعادته موزعًا سلاماته وتحياته ونكاته على كل من هبَّ ودبَّ، لا يصدِّق أنه أصبح جزءًا من فرقة كلاب الصيد، وأنا أيضًا لم أكن لأصدق ولكن دور الصحافة في الخطة كان محوريًّا.

في البداية اجتمع هاريسون معه على انفراد اجتماع خرج منه ـ موسى ـ شاحب الوجه ممتقعًا بعدما صاح فيه حكمدار الإسكندرية وهدده أن تسريب معلومة واحدة خارج هذه الغرفة لن يعني نهاية جريدته فحسب، بل نهايته هو شخصيًّا وبأيدي هاريسون، ثم اجتمعت فرقتنا الصغيرة وعرَّف موسى نفسه على الجميع بخليط من اللغات؛ (هاللو) للإنجليز و(يا مرحب) لحسن سلامة و(تشاو يا سينيور) للومبروزو، وبدأنا العمل.

اقترحت عليهم تصورًا سرعان ما قوبل بالاستحسان: سفاح منتصف الليل، لقب مبتذل لكن فعال ككل ما يقترن اسمه بالثانية عشر مساءً فينال منها سحر الغموض، وهو لقب كنت استخدمته في روايتي الأولى (أكيليس)، هراء تام لكنه أعجب المراهقين، وبعد مباريات كلامية طويلة من الاقتراحات السيكوباتية كنا أبطالها أنا و لومبروزو وموسى توصلنا إلى تصميم عام للسَّفَّاح، حيث تبارينا في إضافة التفاصيل الشيطانية في كيمياء واضحة ظهرت بين ثلاثتنا وانعكست على الأعين المصدومة والأفواه المفغورة لباقي أعضاء المجموعة. وكان التصميم كما يلي:

1ـ السَّفَّاح ذكرٌ إيطالي الجنسية، قوي البنية ...

2ـ سفَّاح منتصف الليل يستهدف رجال البوليس، يقتل عائلاتهم بأكملها عند الساعة الثانية عشر.

3ـ يرسم بدماء ضحاياه على جدران الإسكندرية رموزًا ورسائل مرعبة ...

4ـ يرتدي السَّفَّاح قناعًا على هيئة رأس خنزير، في البداية اقترحت قناعًا من جلود ضحاياه ولكن كاد المترجم أن يفقد وعيه ...

5ـ للسَّفَّاح وشمُ هلب سفينة ضخم على ذراعه، تفصيلة بلا معنى أصرَّ لومبروزو على إقحامها حتى رضخنا لعناده الطفولي في النهاية.

كان هذا هو التصميم العام مع بعض التفاصيل الإضافية التي أخذنا في وضعها طيلة الليلة، نكتب ونمسح ونكشط ونرسم وسط نظرات الفريق الخائفة القلقة على صحة ثلاثتنا العقلية، حتى اكتمل أخيرًا التصميم النهائي أسفل سحابة من الدخان دلَّت مكوناتها على تفرد المجموعة وغرابتها، خليط من أدخنة السجائر والغليون ولفافات التبغ الرخيصة، في أجواء فوضوية متعبة تناثرت فيها فناجين الشاي الفارغة وبقايا الطعام وأغاني حنفي البامبينو******** التي أصر موسى على تشغيلها قائلًا والسيجارة في فمه: عشان المزاج ... أُمال.

أما (حسن سلامة) فساعدنا أيضًا، في البداية شارك على استحياء، قالت نظراته المركزة الذكية أنه يرغب في مشاركتنا هذا الجنون الذي يخالف مبادئه، فكان يهم بالكلام ثم سرعان ما يسكت، يرفع طرف ثم يخمد، حتى ترك مسبحته وشاركنا أخيرًا جنوننا، وبنهاية الجلسة كان مشمر الأكمام غارقًا في عرق التفكير والحماس. ابتسمتُ وأنا أشاهد مجهوداته الخجولة التي رأيت فيها رغبة صادقة للمساعدة والتعب من أجل شعبه حتى لو اضطر للحظات أن ينزل لقاع الجنون ويخلع ثوب التحفظ والتدين، هذا رجل سأنام آمنًا في وسط غابة إذا علمت أنه يحرسني.

قبيل مطلع الفجر تركت المكتب يدوي بشخير الرجال النائمين على الكراسي الخشبية وطرقت باب هاريسون، ففوجئت به مستيقظًا يأمرني بالدخول، وجدته واقفًا بجوار نافذة كبيرة تطل على البحر الأسود الليلي حيث لا بداية ولا نهاية، وبدون أن يلتفت لي لوَّح بيد تمسك بكأس نبيذ بما معناه أن أتحدَّث، فأخبرته بما توصلنا إليه. أومأ الرجل مستحسنًا ثم زفر في تعبٍ واضحٍ وهو يحك جبهته، سألته محاولًا تلطيف الأجواء: «أتحب منظر البحر؟». فأجابني دون أن يلتفت، بصوتٍ مكتومٍ خرج في شكل غمغمة: «وكأنني أملك خيارًا آخر سوى أن أحبه ... هو في كل مكان هنا».

ـ لا تبدو لي كشخصٍ ساحلي على كل حال ...

ـ ولدت في بلدٍ زراعيٍّ محاطًا بالغابات وكلاب الصيد والأرانب البرية، ولكني أتأقلم دائمًا.

ـ التأقلم ... هذا سر شجاعتك الجلية في تلك الأيام السوداء على ما أظن.

استدار مواجهًا إياي وقال:

ـ بالعكس، أنا أخاف ... هذه الأيام يدق الخوف بابي كساعي بريد دؤوب.

ـ بالنسبة لإنجليزي، أنت عاطفي جدًّا يا سيد هاريسون ...

ـ اعتاد أبي أن يخبرني بالأمر ذاته.

ـ هل أنت قلق؟

ـ لا أخفيك سرًّا هذا من أصعب أوقات حياتي، سفاح طليق وحكومات متناحرة، وابنة تريد الطلاق من زوجها ...

ـ بيني وبينك لا أرى سببًا وجيهًا للقلق سوى موضوع ابنتك ...

ـ أنا أفهم ما ترمي إليه يا سيد علاء، أمن هذه المدينة قضيتي بعيدًا عن صراع الديكة السياسي، بعيدًا عن مؤخرة اللورد كرومر نفسه، هي مسألة شرف، كما أني أعد هذا البلد وطني الآن.

صمتنا قليلًا، جلس خلف مكتبه يعبث بفتاحة خطابات فضية وعلى وجهه ابتسامة محبطة فقلت له: «سنمسك به ...»

ـ سنمسك به بالطبع، ولكن بأي ثمن؟

ـ أعدك أن هذا لن يطول ...

ـ لا تعد بأمور لا تستطيع الوفاء بها يا مستر علاء.

ـ يمكنك أن تثق بي لمرة أخيرة، مرة أخيرة لن تضر.

بعينيه الزرقاوين العميقتين نظر في عيني مليًّا، فحصني ككلب بوليسي متمرس تلتقط أنفه رائحة الكذب، فأجفلت قليلًا للفكرة عندما تخيلته يستطيع شمَّ جيناتي الإجرامية لو ركزَّ قليلًا، ولكن مطَّ شفتيه وأخبرني أنه يصدقني، يكاد يقتنع بأن هذه المرة مختلفة فقط إذا حصل في يده على ضمان ما دي ملموس يستطيع غلق قبضته حوله، فلم أجد أفضل من مصافحة قوية أمنحها له، لغته الأقرب والأكثر تأثيرًا، دون كلام.

وفي ساعات الصباح الأولى بدأنا تنفيذ الخطة تحت غطاء من السرية التامة، فانتشر عدد من ا لكونستابلات المتنكر ين ينثرون شائعات حول السَّفَّاح الجديد بين أصح اب ا لمحال و حلاقين الص حة وفي الم واخير وال مقاهي، بين ما اصط حب أحد الض باط موس ى ياقوت للمشرحة حيث قا ما بتشويه عدد من الجثث وتصويرها، ثم نشر موسى الصور في الصفحة الأولى من جريدة الخبر مرفقة ببيان للشرطة ومقالة مكتوبة بعناية عن الجريمة الأولى لسفَّاح منتصف الليل الذي قتل عائلة ضابط شجاع يدعى (إبراهيم الزيات) ـ نقلناه مع أسرته للقاهرة على متن قطار خاص في سرية ـ وعلى واجهة قراقول العصافرة كتبنا بدماء الدجاج رسالة بالإيطالية تحذر أهالي الإسكندرية من العائلة القادمة.

وسرعان ما ظهرت النتائج الإيجابية في مجتمع الإسكندرية الذي صار طبق (بيتري) ووسطًا صالحًا لنمو ا لشائعات، فبات ا لسَّفَّاح ا لجديد حديث ا لألسنة، و راح ا لكل يغذي ا لشائعة بتفاصيل من وحي خيا له بدا يةً من روا د المقاهي وحتى ربا ت البيوت والخادمات، تسرَّب الخوف في الشوارع والأزقة، وصار قراقول العصافرة مزارًا كأضرحة الأولياء يتفحصه المارة من م صريين و أجانب ي تعوذون با لله أ و ي رسمون ع لامة ا لصليب أ مام ا لرسالة ا لدامية، لم يستغرق الأ مر سو ى نصف يوم حتى نقلت كبرى ا لصحف البيان من جريدة موسى التي حققت مبيعات خيا لية، وبعد ثلا ثة أيا م ضربنا ضربتنا الثانية: مقتل مأمور قسم القناصل الإنجليزي وذبح أطفاله الخمس، ممَّا هزَّ الإسكندرية تمامًا على إثر الجرأة الفجة في الاعتداء على ضابط إنجليزي.

مساء ا ليوم الثالث وفي و اقعة جديد ة من نوعها نظمت ضبطية الإسكندرية مؤتمرًا عاجلًا للأهالي أمام الحكمدارية يرأسه محافظ الإسكندرية وهاريسون باشا، وهي فكرة الأخير الذي كان متأكدًا من حضور سفاحنا العزيز وسط الحشد. خلف المنصة المُعدة للمؤتمر وقفت في الكو واليس الخفية أهز قد ميَّ وأ قضم أظافري، متوترًا أر اقب الشارع الذي ا متلأ عن آخره بالجمهور ا لمغمغم و أصواته ا لمتداخلة، و برغم إ ضاءة ا لمكان ا لقوية ب أنوار ا لكلوبات لم أستطع تبين وجه يشبهني، وجه چاك.

شعرت بيد قوية تربت على كتفي فألتفت مذعورًا، كان هذا لومبروزو بمنظاره الداكن، يقول بإنجليزية رديئة: «خطة جيدة، لنأمل أن تؤتي ثمارها» فابتسمت مرتبكًا، ثم راقبت الحوار

الدائر على المنصة الخشبية: خطاب تعزية من المحافظ الممشوق ذي الشارب الأبيض الحكيم، يعقد يديه خلف ظهره ويطمئن الحضور عن كون السَّفَّاح الجديد حدث جانبي بسيط جمع حوله الشائعات مثل كرة الجليد فظهر أكبر من حجمه.

إلا أن هاريسون قاطعه ... في البداية اختلفوا بهدوء ثم تطور الاختلاف إلى نقاش حاد بين محافظ يدعي تفاهة الخطر وحكمدار يشدد على هوله، حتى تصاعد خلافهم فجأة واحتد بل كاد يصل للسباب، فانفعل هاريسون بشدة واحمر وجهه، ومال على الجمهور زاعقًا بمصرية رديئة وهو يرفع مسدسه الفضي في الهواء: «أنا مش مسئول عن كلام ده! سفَّاح نص الليل أخطر ألف مرة من سفاح شابات، سفاح شابات زمنه انتهى». ثم التفت إلى المحافظ في غمرة انفعاله، وقال موجهًا المسدس نحوه في تحدٍّ: «أنت مسئول عن أي مصيبة تحصل» مما أضرم في الحشد مائة شهقة وصرخة وهمهمة.

وفورًا ترك هاريسون المنصة ووجهه يشتعل بأقصى أمارات الغضب والثورة، منضمًا إليَّ أنا والفريق الواقف في الكواليس، قابلته بابتسامة واسعة معقود الساعدين وقلت:

«ممثل بارع». فقال بعد أن محى من على وجهه أي أثر لتعبير غاضب، بل إنه حتى ابتسم: «أستطيع أن أفاجئك، ولكن يبدو أن الأمر اختلط على محمود المسكين، للحظات صدَّق الأمر ونسي أننا نمثل».

نزع الطربوش عن صلعته وجفف عرقها بمنديل سُكري اللون مراقبًا معي الجزء المتبقي من خطاب المحافظ، حيث يلقي الجمهور أسئلة قلقة عن السَّفَّاح الجديد، ثم بلا مقدمات اختفت أصوات المؤتمر من حولي، كأغنية تنتهي أخذت تتلاشى وتخفت، كأن وسادة خيالية أحاطت بأذنيَّ فعزلتني عن كل ما حولي، فقط لسعات الرياح الباردة هي كل ما شعرت به مع الصداع الذي حلَّ، جاء يمد قدمًا ثقيلة مؤلمة داخل رأسي ومعه صفير استاتيكي، بُهتت الرؤية أمام ناظري متحولة لنقاط طافية من الضوء، ثم تبدلت بأخرى زُرعت في رأسي زرعًا بين ثنايا الصداع:

صورة لشابة حمراء الشعر شعرت معها بكمٍّ هائلٍ من الحقد والغليان، والضعف، في فستان بلون القشدة أخذت تبتعد عني متبرمة، كنا واقفين في بستان ربيعي تغطيه الزهور الصفراء، ومع ذلك كان المشهد لسبب ما كئيبًا، التفتت إليَّ مصوبة سبابة بيضاء رفيعة وقالت بلكنة

أيرلندية خالصة: «ابتعد عني يا چاك، يكفيني ما أصابني من تحت رأسك من مصائب، ابتعد عني».

كيف تجرؤ على إخباري بالابتعاد عنها؟ كيف تكون بهذا الجحود؟ والسؤال الأهم، مَن هذه الشابة أصلًا؟ قلت: «أودري ... أنا أحبك صدقيني، أعدك أن أتصرف».

ـ حتى لو كنت تهيم بي عشقًا أنا لم أعد أحتمل، أتعرض بسببك لسخرية يومية من الجميع، صديقاتي يتهامسن عليَّ هازئين، ويلقي والدي على مسامعي سيولًا من التوبيخ متى رآني. أرجوك افهم، أنت لا تناسبني، نحن لسنا مصنوعين لبعضنا البعض.

مع كل كلمة من كلماتها يفيض الحقد والضعف في عروقي فأشعر معهما بيأس حار، وكأنني مسدس بلا رصاص أو قنبلة مبتلة الفتيل، أود أن ألف يداي حول رقبتها المرمرية النحيفة وأعانقها، ولا أتركها إلا مائلة على صدرها، خرجت مني الكلمات ضعيفة، يائسة:

«لا تتركيني» ثم أمسكت برسغها في وَهنٍ لكنها أفلتته في الحال وصرخت قائلة: «ابتعد عني، ألا تفهم؟ أنت عار عليَّ يا چاك، أنت عار»

دُفعة واحدة اختفت الرؤية وكأني انتُشلت من تحت الماء، من حولي عاد ليل العصافرة البارد ليطوقني ومعه أصوات صراخ من كل صوب أجبرتني على فتح عيني، لأفاجأ بنور برتقالي يسطع على الوجوه والأسطح، مصدره نيران كثيفة أُضرمت في الفيلا المهجورة المقابلة للحكمدارية، التي ابتلعها اللهب بشراسة وتصاعد منها مجبرًا الجمهور على التكدس على الجانب الآخر من الطريق في فوضى، وفي النافذة المشتعلة لمحت شيئًا.

الظلال السوداء لثلاثة من النسوة يجلسن داخل الفيلا، وسط اللهب، في وضعية غريبة وكأنهن مقيدات بكراسي، مما أسقط قلبي أرضًا، هذه هي النهاية، قد تكون ميرتل بالداخل، بل قد تكون تفحمت بالفعل، ومعها تفحمت روحي.

***

حنفي البامبينو: مطرب شعبي من الأرياف بزغ نجمه في العام ١٨٩٨ (س.م.ت) عندما قرَّر بيع كل ممتلكاته من المواشي من أجل تحقيق حلمه بالغناء وإنتاج أغنية، بالفعل حققت أغنية (بكل ممنونية) نجاحًا ساحقًا ونقلته إلى مصاف المطربين الكبار، سُمي بالبامبينو لأن طبقة صوته كانت ناعمة بدرجة تشبه أصوات الأطفال، ولأنه اشتهر بإدخال الكلمات الطليانية في أغانيه.

- 27-

متجاهلًا صرخات رجال الضبطية المحذرة ركضت للفيلا، بلا وعي مني ركلت الباب ودخلت المبنى المشتعل ألهث وأسعل من الدخان الأسود، وبعيني أبحث عن ثلاث جثث متفحمة ... أين ميرتل المقتولة؟ أين فرصتي الأخيرة التي ضاعت وتفحمت؟

هناك لمحتها، في غرفة المعيشة البعيدة رأيت ظل شعرها الأسود ثم باقي جسدها في فستان سهرة، بغرابة شديدة كانت تجلس مع شابتين حول طاولة الطعام الدائرية، بهدوءٍ، وفي يد كل واحدة منهن فنجان شاي! لم أفهم تمامًا ما يحدث فتقدمت للأمام رغم اللهب المتصاعد من كل ركن، وأنا أسمع من خلفي بعض رجال الضبطية يدخلون، ثم وضحت رؤيتي وتنفست الصعداء داخل الجحيم لما أدركت الخدعة، لم تكن هناك ميرتل ولا شابات، بل ثلاث هياكل عظمية يرتدين الفساتين والشعور المستعارة، موضوعات في وضع الجلوس بفعل فاعل، وعلى الطاولة أمامهم تراصت أطباق خزفية تلمع في اللهب، كُتب على كل طبق منها كلمة بالإنجليزية من كلمات الرسالة التالية: (V ... أنا ... لم ... انتهِ ... بعد ... 14/1)

هي مجرد رسالة إذن.

خرجنا مسرعين من الأتون المستعر لنجد الفوضى تدور في الشارع بجنون، صراخ وزحام واضطراب، مستحيل تمامًا أن تعثر على أي شيء هنا، فالفوضى سلاح فتاك كثيرًا ما يُبخس حقه لكن كان چاك يفهم قيمته جيدًا عندما أضرم تلك النيران ليفلت منا كحفنة من الملح تذوب في البحر، فرغم الانتشار السريع لعناصر الضبطية ومحاصرتها لمداخل ومخارج الشارع لم ننجح في استخراجه من وسط الحشد الهستيري الذي راح أفراده يهرولون في كل اتجاه كمستعمرة من النمل الخائف.

من مكاني كانت عيني تركض، أبحث ببصري عن وجه يشبهني وسط الأطياف المتلاحقة فلا أجد إلا وجوه ضربتها فرشاة الخوف بألوانها، الكل مذعور، الكل يعلم أن السَّفَّاح قد يكون على بُعد خطوتين، قد يكون المحترم الواقف خلفه أو تلك السيدة التي تحمل رضيعًا، الكل

فزعًا يحاول تفادي طعنة قد تطوله في أي لحظة من ركن خفي، عندما تشعر بالموت قريبًا منك فالجميع مشتبه فيه.

رصاصة إلى السماء من مسدس (حسن سلامة) بثَّت القليل من النظام في الحشد وثبتت أطرافه المتخلخلة في حين انطلقت أنا مع الضباط وسط طوفان البشر المتدافعين نجري في أعقاب عدو لا نعرفه ولا نعرف له اتجاهًا محددًا، نتوغل في الزحام ونقلب في الوجوه عن قرب أو نبعد الأطفال الباكيين عن قارعة الطريق، وفي ضوء اللهب البرتقالي المتراقص تلفتُّ حولي تائهًا فكان العالم جحيمًا حادَّ التفاصيل أوضح من اللازم، الحقيقة الوحيدة المؤكدة الآن هي أن چاك غاضب جدًّا ويشعر بالإهانة لدفعه عن العرش، وأنه هنا، بيننا أو خلفي أو يفصل بيني وبينه باب ما، لكنه لن يظهر ولا يقدم على المزيد الليلة، لقد اكتفى بالتأثير المسرحي الذي أحدثه بعدما وصلت رسالته، هو يتبع نظامًا معينًا لن يخرج عنه، مهما كنا سنبذل من مجهود كنت أعلم أنه قد هرب مجددًا، وللمرة الألف فلت من بين أصابعي.

بنهاية الليلة نجحنا في إخلاء المنطقة من الجمهور المذعور بعدما انتشرت عناصر الضبطية في الشوارع المحيطة، وبحثًا عن بعض السكينة وقفت وحدي أمام الفيلا المتفحمة التي أخذت قوات الدفاع المدني تطفئ نيرانها بوسائل بدائية، في استسلام أزفر مغمضًا عيني وألعب بالطربوش بين أصابعي، أفكر: هل ما حدث يعد نجاحًا؟ ربما، على الأقل تأكدنا من ميعاد الليلة القادمة، تأكدنا أنه غاضب ويرتكب المزيد من الأفعال خارج مضماره، وأن ميرتل لا زالت بخير.

قطع قطار أفكاري إنجليزية رديئة بالنغمة الإيطالية إياها، ثم تبعها دخان غليون لومبروزو مميز الرائحة الذي اقتحم المساحة حولي ودغدغ أنفي وهو يحييني ثم يقول: « كان هذا جيدًا، لا تعبس ... كنا على وشك النيل منه«. أتى وحده دون مترجم، تشي قسمات وجهه أنه يريد الابتسام لكنه لا يعرف كيف يقوم به، في وقت غير هذا كنت لأجزم أنه يشمت بي وبخطتي، ولكنه كان صادقًا ودافئًا على غير العادة، فأجبته قائلًا وأنا أمط شفتي: «محاولة أخرى بلا فائدة».

«يتطلب الجدار الصلب ضربات عدة حتى ينهار». قالها وهو يسحب نفسًا طويلًا من الغليون ثم ينفث دخانه، متابعًا مجهودات الإطفاء الحثيثة، كان مرتاحًا ومسالمًا للمرة الأولى، بلا

تحفظ أو وقار مفتعل، كقلعة حصينة تخلت عن دفاعاتها، فكرت أن هذا وقتًا مناسبًا حتى أسأله سؤالًا كان يسبح بلا انقطاع في بِرك تفكيري منذ يوم بعينه:

«هل يتغير المجرمون يا سيد لومبروزو؟ القتلة على وجه الدقة».

ـ التغيير مفهوم فضفاض، ماذا تقصد؟

ـ أعني ... لو أُعطى القاتل فرصة جديدة، ظروفًا أفضل، هل سيتغير؟ أم سيظل بداخله قاتل ينتظر الفرصة المناسبة؟

ـ ربما سيتغير ...

ـ «ربما» ليست إجابة ... ليست ربع إجابة حتى.

تحرَّك في نصف دائرة متحولًا من يميني إلى يساري كما لو أراد أن يكشف ملامحي ويقرأها، ثم قال ملوحًا في الهواء: «سأجيبك، ولكن سامحني أنا أشعر أن الأمر شخصي ... هل أزعجك كلامي في مقابلتنا الأولى؟». ولم اعترض، فقط ظللت صامتًا معلقًا بصري باللهب الذهبي الممسك بالفيلا، والذي زاد مجددًا على الرغم من محاولات الإخماد. قال الإيطالي بنبرة علمية خالية تمامًا من المشاعر:

ـ وضع القواعد والنظريات عمليةٌ معقدةٌ وصعبةٌ يا سيد علاء؛ لذلك عادةً ما تكون النتائج أكيدة ... نعم، المجرم مجرم على طول الخط...

ـ ولكن العلم متبدل ومتغير يا سيد لومبروزو، أليس كذلك؟

ـ بالطبع، ولكن لمعلوماتك فعلاقاتي بالمجرمين والإجرام ممتدة عبر تاريخ طويل: بحارة وجنود ولصوص، كل صنوف المجرمين ... درستهم جيدًا وحفظتهم ككفِّ يدي.

ـ وطبقًا لنظريتك أنت تراني مجرمًا تامًّا، أليس كذلك؟ تخبرك ملامحي وعظام وجهي أنني ما حييت سأظل مجرمًا، وأنه لا خلاص لطبيعتي سوى في تابوت تحت الأرض.

صمت، لم يشوبه سوى طقطقة اللهب وأصوات الحركة.

ـ أنت تعرف ... النظريات بالنسبة للعلماء مثل الأبناء، كأطفالهم، يستغرق الواحد مِنَّا العديد من السنوات من أجل ولادة نظرية يتيمة، من الصعب ألَّا تكون منحازًا لطفلك.

أومأت برأسي في تفهم حزين محبط، احتجت بشدة في تلك اللحظات إلى يد تسندني وتربت على عقلي المتقد بالنيران لعله يبرد، كنت بحاجة إلى مرآة تحمل صورة أفضل مني، لكني لم أجد أمامي إلا حائط العلم البارد، لكن أردف لومبروزو وقد لان صوته: «ولكنك ستجبرني على قتل أحد أطفالي يا سيد علاء».

ـ ماذا تعني؟

ـ انظر: أنت مجرم بالفطرة، كل سماتك الشكلية والجسدية تصرخ بأنك التربة المثالية لمجرم من طراز رفيع ... ولكن عكس كل ما درسته، أنت إنسان نبيل.

ـ لم يكن هذا رأيك في لقائنا الأول على ما أذكر ...!

ـ للأسف سأعيد النظر في بعضٍ مِمَّا جمعت وكتبت، بسببك ... أنت ستجبرني على أخذ عوامل أخرى في الاعتبار بجانب السمات الشكلية، كممارسة الفنون على سبيل المثال.

ـ أكره أن أهدم نظريتك الجديدة أيضًا ولكن هناك فنانين سفاحين.

ـ ليست كل الفنون بالطبع، أتحدَّث هنا عن الكتابة بالتحديد، أخبرني السيد بنيامين أنك تكتب، وعندما تفكّرِ في الأمر فالكتابة تمرين مثالي للتنفيس عن رغباتك الشيطانية وتفريغها أولًا بأول ... يمكنك أن ترتكب ألف جريمة قتل على الورق وسيهلل لك الناس بدلًا من وضعك في مصحٍّ نفسيٍّ أو سجنٍ تحت الأرض.

وجهة نظر جيدة يا خواجة، أنت لست مخبولًا تمامًا على كل حال، ثم أردف قائلًا وهو ينظر إلى الأرض كأنما يتحدَّث إلى نفسه:

ـ يظهر جوهر الإنسان الحقيقي في أوقات كتلك التي نعيشها الآن، وأنت اخترت الجانب الجيد برغم امتلاكك كل ما يؤهلك للانضمام للجانب الخبيث.

ـ يسعدني سماع هذا يخرج من فمك.

ـ صدقني هذا لا يسعدني على الإطلاق، للأسف أنت الثغرة الوحيدة في نظريتي المثالية، أنا متأكد أنك لست مجرمًا.

خمدت نيران الفيلا، أخيرًا هدأت نارها، إيمي وخالتي ولومبروزو أكدوا لي أنني لست هو، وثلاث شهود يكفون في محكمتي، شددت قامتي والتفتت إليه قائلًا: «أشكرك يا سيد

لومبروزو، أشكرك». ثم ودَّعته متعللًا بالإرهاق راسمًا ابتسامة تكونت لا إراديًّا، وعدت أدراجي في تمشية خفيفة مع نفسي.

برغم فشل الخطة أخبرتني رسالة السَّفَّاح أنني على المضمار الصحيح وأنني على بُعد خطوة أو اثنتين منه، ناهيك عن مكسب اليوم الحقيقي بمعرفتنا موعد الليلة القادمة، والذي هو موعدها الأصلي بالفعل، مما يعني أن جراءمه محددة بإطار زمني ثابت، مربوطة بعامل لا يتغير، فأماكن الجرائم تتغير لكن التواريخ ثابتة دائمًا.

لدى عودتي مكثت بمعمل بنيامين في معسكر مغلق، لا أقابل مخلوقًا ولا مخلوق يقابلني، أقرأ مذكرات ميرتل مرارًا وتكرارًا من الصفحة الأولى للكلمة الأخيرة واضعًا جداول وراسمًا خرائط ورابطًا التواريخ بالأماكن بكل ما يمكن من تشابهات، معسكر كان قوامه سهر طويل والعشرات من أقلام الحبر وفناجين القهوة والملاحظات اليدوية، لكنني في كل مرة أتوقَّف عند نفس النقطة مجددًا: كل القتلى شابات عذراوات باستثناء شحتة في المرة الأولى والقس في المرة الثانية، ولكن لماذا؟ لماذا ثم لا إجابة بعدها، شعور مستفز حقًّا أن تقف على أعتاب استنتاج ما ثم تكتشف أن في نهايته شارع مغلق ... حسنًا، السؤال الثاني هو: ما علاقة مريم العذراء بخطته؟ وما علاقة المسيح بالجرائم؟ أنا غير مقتنع بتفسيرات هاريسون.

عبثًا استلقيت مغمض العينين على الأرض أحاول استدعاء رؤية أخرى من الماضي الخاص بي، لكن في كل محاولة كان ينتهي بي الأمر مصابًا بصداع في جبهتي وحول عيني، فقررت تجربة حظي مع أوراق الأدلة من جديد وافترشت حولي شبكة من الصور الخاصة بجثث القتلى، وفوق كل صورة وضعت بطاقة الهوية وشهادة الوفاة الخاصة بالضحية، وفي وسط الشبكة مذكرات ميرتل التي ستساعدني على فك شفرته. تأملت الشبكة مليًّا ورحت أغذي بها بصري مع فنجان من القهوة، وأفكاري تتردد في كل الاتجاهات مثل كرة مطاطية: من مذكرات ميرتل استنبطت بعض اهتماماته كالفن وشيكسبير والأبراج والحضارة الفرعونية، فأخذت أقيس كل منها على الصور والأدلة محاولًا الخروج برابط، صورة فيونا التي ماتت حاملة للميزان، وصورة ماجي التي خرجت السرطانات الصغيرة من بطنها، وتذكرت القس في الدلو الخشبي، ثم بزغت في رأسي فكرة!

ميزان وسرطان ودلو، الأبراج الفلكية! قفزت واقفًا من هول المفاجأة، عصرت رأسي لتذكر المزيد من التفاصيل: كانت لبريدجت أخت توأم (الجوزاء) ... ارتدت عديلة سلسلة تحمل ناب أسد، وماتت سارة في الليلة الثالثة بين أحضان تمثال جندي يوتر سهمه في قوسه (القوس) ... وعلى وجه ماريا لُصقت قرون أشبه بقرون تيس أو (جدي). وجدتها! انحنيت كالمجنون على بطاقات الهوية أبحث في تواريخ الميلاد، كل القتلى عدا شحتة والقس هم من مواليد أغسطس وسبتمبر، برج العذراء، هن عذارى فلكيًّا وليس جنسيًّا، 12 ضحية و12 برجًا فلكيًّا، هذا مثالي، وماذا عن علامة السَّفَّاح؟ الآن تذكرت أن لبرج الحمل رمزًا يشبه كثيرًا الرقم سبعة، لكنه مقوس الحواف، كم أنا غبي!!

هرولت منكبًا على مذكرات ميرتل، بعنف رحت أقلب الصفحات حتى أصل لصفحة تتحدث فيها عن حبهما المشترك للأبراج ... الأبراج، كان الأمر أمام عيني طيلة الوقت وأنا أتجاهله، أما الآن فالوحي يكسوني، يلهبني، إحساس يشبه ألف جمرة من نار تحت جلدي، والرؤية آخذة في الاتضاح أكثر فأكثر؛ الحمل والعذراء، كنا مُضلَّلين بالبحث عنها كرموز دينية للمسيح والعذراء مريم دون الأبراج، يحب چاك الأبراج كما قالت ميرتل، ويطلق على نفسه في الرسائل لقب الحمل، وله علامة تشبه رمز برج الحمل، في دقائق تمخَّض عقلي عن النظرية المثالية، حتى وإن تفرَّعت منها بعض الأسئلة أو الفجوات.

النظرية تقول: كرسام للمجتمعات الأرستقراطية يصطاد چاك مواليد برج العذراء من الشابات اللاتي يتعرف عليهن في الحفلات، ثم يمثل وقوعه في حبهن، وبعد فترة من الغرام ورسم الأحلام الوردية يتفق مع كلٍّ منهن على ليلة موعودة للهرب بعيدًا عن الأهل، إلى مكان وموعد الجرائم، ثم ينطلق ذابحًا القرابين الثلاث واحدة تلو الأخرى، ماذا عن الجريمة الشاذة في المرتين؟ ربما اتفق مع شابة ورفضت أو أخلفت بوعدها وكان عليه الارتجال وذبح القربان الثالث أيًّا كانت الضحية!

بحماسٍ شيطاني أشعلت سيجارة ورحت أرتجف وأنا أرمم المزيد من أركان النظرية في عقلي، لم يسعني الصبر حتى أخبر هاريسون ولو مبروزو وبنيامين وكل هؤلاء الأوغاد عن عبقريتي ... لا مجال للانتظار، الانتظار الآن سيكون بمثابة طير جارح يتغذَّى على لحم رأسي، فقررت قتله على الفور ونزلت لبنيامين متجاهلًا عقارب الساعة التي أشارت للثانية

بعد منتصف الليل، فتح لي ناعسًا باب شقته وفوجئ بي على العتبة أشرح له اكتشا في بكلمات مبعثرة مع الكثير من الرذاذ وحركات الأيدي العشوائية، وقبل حتى أن يطرد نومه أو يعالج ما سمع سَحَبْتُه من يده بمنامته الحريرية وخُفِّهِ إلى الشارع، يجب أن نبلغ هاريسون حالًا.

اتجهنا نحث الخطى للعربخانة في شارع النبي دانيال حيث تبيت عربات الخيول وحيث ينام سائق بنيامين، وعبر الطرق الحجرية والشوارع الخالية تبادلنا أحاديث متحمسة لاهثة حتى وصلنا العربخانة الضخمة التي استقبلتنا بروائح الروث وأصوات الغطيط، في عجالة أخذنا نبحث بين طوابير العربات المصفوفة والخيول النائمة إلى أن بلغنا عربتنا المنشودة، فلكز بنيامين بعنف سائقها النائم على المقعد الأمامي في وضع يشبه الجنين، فاستيقظ السائق فزعًا وهو يفرك عينيه لكنه هدأ عندما أدرك أننا لسنا سفاحين، فقط استعاذ بالله من الشيطان وصبَّ على وجهه بعض الماء البارد من كوزٍ صدئٍ وهو يتمتم بسباب منخفض، وفي لحظات كان قد انطلق بنا مفرغًا غضبه في لسعات السوط على خيوله.

كانت أفكاري تهتز وتتلاحق كالعربة التي نركبها، محاولًا جمع الأدلة وترتيبها من أجل طرحها على هاريسون بمنطقية: الحمل والعذراء والأبراج، الحفلات والحب، تواريخ الليالي وأماكن القتل، ولكن ظلَّت بعض الخيوط معلقة في الرياح بدون ترابط ... سألني بنيامين بأصابع ترتجف حول غليونه: «طب وكده ميرتل فين؟» فأجبته: «ميرتل بخير لحد دلوقتي، هو بيقتل في ليالي معينة وبطرق معينة... غير كده مش بيقتل». بالطبع لم أخبره بعلاقة الحب بين ابنته وقاتلها، فقط طمأنته أنها على الأرجح مختبئة مذعورة من جراء كل تلك الجرائم وأخبار القتل.

عندما وصلنا لمنزل هاريسون نزل كل مِنَّا مسرعًا يلف ثوبه المنزلي حوله وقاية من البرد أو الإحراج المفاجئ، على الرغم من خلو الشارع من المارة، ولدهشتي علمت أن هاريسون يقطن عمارة سكنية عادية في ميدان القناصل لا يحرسها سوى اثنان من العساكر على المدخل، لا قصر ولا فيلا كما يليق بحكمدار المحتل. طرقنا باب شقته ولم ننتظر طويلًا حتى وجدناه يفتح بابه بأعين حمراء جافاها النوم منذ زمن وفي يده فنجان شاي إنجليزي، ذُهل لجزء من الثانية ثم أدخلنا بإشارة من رأسه إلى الشقة الواسعة التي غرقت في فيضان من

الأنتيكات الإفريقية والعربية وجلود الحيوانات التي تبزغ تحت أضواء ثريا كبيرة، في البداية صبَّ الرجل لكل مِنَّا فنجان شاي من براد أزرق منقوش بورود بيضاء، ثم باهتمام سمع النظرية التي توصلت إليها حول الأبراج والعلاقات الغرامية، وفور انتهائي وضع فنجانه جانبًا وقال: «كلام جميل يا سيد علاء، ولكن فيما سينفعنا كل هذا والقاتل على بُعد خطوات من القيام بجريمته التالية؟ أريد دليلًا حاسمًا، نريد مكان سكنه أو مكان الجرائم التالية على الأقل».

رفعت كتفيَّ لأعلى قائلًا: «توقعت كلمة شكرًا على الأقل» ثم وجمت لبعض الوقت. نعم كانت خيوطي بالفعل صحيحة ومثالية ولكنها ناقصة وتحتاج للغزل بطريقة أفضل حتى تخرج إجابة نهائية، أغمضت عيني محاولًا التركيز وفكرت: الحمل والعذراء والأبراج، الحفلات والعلاقات، تواريخ الليالي وأماكن القتل ... أكرر الأفكار وأحاول ربط صورها في متوالية سريعة، ثم ضرب الصداع.

لو كان ما أصبت به قبل ذلك صداعًا، فإن هذا يعد قنبلة نووية، كخزانة ثقيلة تهوي على رأسي أو قطار سريع يصدمني شعرت برأسي تتفتت، فسقطت على السجاد الفخم ومعي سقط فنجان الشاي وانسكب أرضًا، لم أكن هنا، اختفت الحوائط المبطنة وتحلَّل ملمس السجاد الناعم تحتي ثم حلَّ ظلام سرعان ما تبدَّل بمشهدٍ يكاد يقارب الواقع في تفاصيله من روائح وألوان وأحاسيس؛ كنت في مكتبة فخمة مع الشابة التي سبتني في الرؤية الماضية، والتي كانت تجلس الآن على كرسي خشبي مرتدية قبعة كبيرة وفستانًا منفوشًا باللون الأصفر، وبيسراها تمسك كتابًا يحمل عنوان (إنجيل الأبراج)، كنت أجلس قبالتها، أرسمها بالألوان الزيتية على لوحة بيضاء من خلف مسند من الخشب، ولم أكن أكرهها في هذه الرؤية، بل على النقيض تمامًا شعرت ناحيتها بفيض من الحب يتغلغل بين كل ذرة من ذراتي، هذه هي مستقبلي وأملي ومكافأة الحياة لي، هذه هي (أودري).

سرعان ما مَلَّت أودري من جلستها الثابتة فتركت مكانها مخربة الوضع الذي كنت أرسمها فيه، أقبلت عليَّ ضاحكة وانقضت بفرشاتي على أنفي ملونة إياها باللون الأخضر ... كم أحبها! كم أود أن أضع العالم عند أقدامها وأنصِّبها ملكة على كل الممالك، كم أودُّ أن أقدِّم لها

السعادة على طبق وأحيطها بأكاليل من أشعة الشمس والزهور، سألتها وهي تجلس على أطراف ركبتي برشاقة تحسدها عليها الفراشات:

ـ ماذا تقرئين؟

ـ نظرية عن الخلق، ولكنها مذهلة بحق.

ـ اِحكِ لي.

قالت بدلال وهي تبتعد عني قليلًا: «لن أحكي لك شيئًا بالطبع، أنت دائمًا ما تسخر من إيماني». فأمسكت بيدها وأرجعتها من جديد للجلوس على فخذي ثم قلت: «بالعكس، كنت أفكر في الانضمام لطائفتكم».

ـ أحقًّا يا حبيبي؟!

ـ كل ما أريد هو أن أكون دومًا بجوارِك ...

ـ ولكن للانضمام لكنيسة الفلك يجب أن تكون مؤمنًا حقًّا ...

ـ أنا مؤمن بكِ ...

ـ وأنا لا أمزح!

ـ حسنًا، أؤمن ... لقنيني أول دروس الإيمان ...

ـ هل سألت نفسك من قبل لماذا يتشارك مواليد نفس البرج الصفات نفسها؟ لماذا كل مواليد الجوزاء هوائيون مثلًا، وكأنهم نفس الشخص ...

ـ لا، ولكنه سؤال جيد ...

ـ حسنًا ... يقول إنجيل الفلك إن أَصْل جميع البشر يعود إلى ١٢ إنسانًا فقط، في البدء قبل الخلق لم يوجد سوى الأبراج الفلكية التي خلقت الكون ثم تجسَّدت في شكل شكل ١٢ إنسانًا، هم كانوا البشر الأوائل الذين انحدرنا من أصلهم، نحن مجرد نسخ ممتدة من تلك الأبراج.

ـ بمعنى؟

ـ أي إن كل إنسان خُلق أو سيُخلق هو واحد من هؤلاء الـ(١٢) لكن في جسد جديد، ولهذا يتشارك مواليد نفس البرج الصفات؛ لأنهم عمليًّا نفس الروح تُبعث في أجساد عديدة مختلفة ...

ـ أودري حبيبتي أنا لا أفهم حرفًا مما تقولين.

ـ ركِّز يا لَوْحَ المعدن، على سبيل المثال: أنا برج العذراء، وآن بولين صديقتي برج العذراء أيضًا، جسدان مختلفان ولكن بداخلنا نفس الروح؛ لأننا نُسخ من العذراء الأصلي، انحدرنا منه وحلَّت روحه بداخلنا، هل تفهم؟ أنا وآن بولين وكل مواليد العذراء هم نفس الشخص في أجساد مختلفة.

ـ هل تعنين أنني لو صفعت آن بولين فكأنني صفعتك أنتِ أيضًا؟

ـ نوعًا ما ولكنك تسحب النظرية لنقطة سخيفة ... مثلك ...

ضحكتُ، كم أحب أودري.

ـ علميني الدرس الثاني إذن ...

ـ الدرس الثاني هو أننا لا نقول الرقم (اثنان)، لا نقول الأرقام أصلًا، فنحن لا نعد: واحد، اثنان، ثلاثة. بل نقولها: جوزاء، سرطان، أسد ...

ـ وما الدرس رقم: أسد؟

ـ قبلة من شفاهكَ الغليظتين ...

ثم اشتبكت شفاهنا في قبلة طويلة رطبة، قالت بعدها بغنج وهي تمسك بخنصري في رقة فتسري في جسدي أمواج من السخونة:

ـ أتعرف؟ من غير المحبذ أن يتزوج الحمل بالعذراء، ربما يجب أن أتركك.

ـ اِفعليها وسأقتل أنا أيضًا كل إناث العذراء، حتى أنتقم منك مرات لا نهائية.

ثم بعنفٍ مفاجئٍ سُحِبتُ من ماء الرؤية البارد كما لو أن قنبلة انفجرت تحت سطحه، ببطءٍ انقشع ضباب رؤيتي فشعرت بنفسي ملقًى على الأرض الصلبة وخدي الأيمن ملاصق للأرض، أتنفس بسرعة ومن جسدي نبتت قطرات عرق باردة لا تحصى، نظرت لأعلى فوجدت وجوه

هاريسون وبنيامين المصدومة تتأملني في ضوء الثريا غير عالمين ماذا حدث أو ما الذي سيحدث، لكني فهمت الآن، إنه ينتقم من حبيبته بقتلهن، يقتلها اثنتي عشر مرة كرقم الكمال بالنسبة له، الـ(12) برج، وعلى كل جريمة يكتب رقم الضحية، برمز بسيط، حتى يؤكدها: جوزاء، سرطان، أسد.

***

- 28-

العام 2024

(الزمن كما نعرفه)

ليلة واحدة فقط، ٢٤ ساعة تفصلني عن الخلاص أو الهلاك، يا له من رِهان ثقيل، كل ما مضى من عمري وكل ما هو قادم يتعلَّق بليلة الغد، أنا مقامر علَّق حياته على رمية واحدة، مقامر تحت رحمة نردٍ لا يرحم ولا يلتزم بقانون، فقد أصير بعد رمية بطلًا متوجًا أو ينتهي بي الأمر ميتًا حيًّا، مدفونًا في قبر مشاعر الفشل السوداء؛ لأن إنقاذ ميرتل قد صار بمثابة كفارة ضرورية واجبٌ عليَّ تقديمها حتى أستطيع أن أقبل نفسي مرة أخرى، وحتى أنتصر على الوحش الذي ما زال يكمن بداخلي في ركنٍ ما، وفي سردابٍ بصدري هو حي ويكتب الروايات البوليسية الأكثر مبيعًا.

كل تلك الأفكار المتخبطة كتمتها بنفسٍ عميقٍ من الشيشة على مقهى عروس البحر فتبددت في الحال، لطالما أردت تجربة الشيشة لكني لم أجرؤ، والليلة التي قد تسبق موتي هي توقيت مثالي لتجربة أشياء جديدة واتخاذ قرارات حمقاء كقرار العودة لزمني في سفرية سريعة، متجاهلًا الوقت والضغط والمنطق، كان قرارًا مفاجئًا اتخذته بعدما أُرهِقت أعصابي من جراء الأسرار والمفاجآت التي لا تنتهي في (س.م.ت): الحبر والدم والخيول والخشب والشموع، كل ما هو ساحر في الإسكندرية القديمة صار مغلفًا برائحة الموت والألغاز حتى امتلأت نَفْسِي به تمامًا وفَاضَتْ، فتركتهم هناك يبحثون عن سفاحنا العزيز بين رسامين المجتمعات الراقية وأعضاء الجمعية الفلكية، وقررت السفر لزمني لأغسل عقلي ببعض الضوضاء الحديثة ووجوه القرن ال٢١ عديمة المشاعر، وللمفاجأة شعرت براحة جَمَّة هنا في هذا المقهى الضيق.

عروس البحر مقهى شعبي يتسم بالقذارة الشديدة وأنظف أكوابه يُغسل مرة مع كل فيضان للنيل، وهو مملوك لبلطجي سابق يدعى (عمر الروسي)، عصامي بنى نفسه بنفسه، فهذا المقهى بكل ما فيه من كراسي وموائد وآنية أخذه الروسي قطعة قطعة بوضع اليد. في عروس

البحر جلست مع المفكرة أمارس عادتي المفضلة التي انقطعت عنها طوال الفترة الماضية: أراقب رجلًا أعمى يستعطي فأتخيله إمبراطورًا سابقًا هرب من انقلاب في بلده، أو أرى كلبًا رماديًّا يعرج فأتصوره أذكى مخلوق على الكوكب بدون علم بشر، كانت يمناي تكتب ومضات الأفكار بخطٍّ رديء ويسراي ممسكة برغيف حوا وشي من جزارة شهيرة، ألتهمه وأقضم منه في تلذُّذٍ كنت قد نسيته منذ زمن، للحظات شعرت أنني أنا مجددًا، أنني أقابل عزيزًا افتقدته بعدما سافر لأراض بعيدة، ولكن ها هو يجالسني الآن ونتحدث عن كل ما اعتدنا الحديث عنه من قبل، هي لمحة من حياتي الماضية كانت بمثابة تشجيع على إتمام مهمتي، هذا ما ستحصل عليه بعد عبورك خط النهاية، فابذل بعض المجهود الزائد في آخر السباق.

أجبرتني تلك الراحة المفاجئة على مراجعة الرحلة من بدايتها، أن أعيد تشغيل شريطها الكامل ثم أسأل نفسي لماذا خرجت من مضمار حياتي الرتيبة وانخرطت في كل هذا الجنون؟ ولكني على كل حال لم أكن أبدًا نادمًا، فبالرغم من أي ألم صاحبني فإني وجدت راحة في معرفة الحقيقة، راحة خلع ملابس السهرة بكل زيفها الاجتماعي ثم الجلوس عاريًا تمامًا في غرفة المعيشة. رغم حالة الاسترخاء التي غطتني ظلَّ سؤال يلح على رأسي بلا انقطاع: لماذا يحافظ چاك على أيام بعينها رغم تغييره للأماكن بسبب أثر اليعسوب؟ هناك إجابة ثمينة هنا لو فقط بحثت جيدًا.

بحلول الليل عدت لشقتي مُحملًا ببعض الهدايا وكعكة باهظة الثمن من أجل عشاء أعده بنيامين على شرف الليلة الأخيرة، فتجهزت وحلقت ذقني وارتديت نفس ما ارتديته في العشاء الأول، في الواقع أثار هذا العشاء مشاعري بشدة؛ الوجوه والموسيقى والشموع الخافتة والأطباق الخزفية، كل هذا سأختبره للمرة الأخيرة، وكل هؤلاء ستنتهي تجربتي معهم قريبًا جدًّا بعد رحلة طويلة من الكذب والصدق حتى أصبحت أرى حقيقتهم بكل ما بها من ضعف خالص ومشاعر حقيقية، رجال ونساء بصلابة الحديد رغم طبائعهم اللينة، مجموعة أسماك جرفتها أمواج الزمن على شاطئنا الجاف، ولكنهم أصروا على البقاء والتأقلم من أجل هدف شخصي للغاية؛ الانتقام مني.

في بداية العشاء تبادلنا التحيات المعتادة وتطايرت عبر المائدة الطويلة أحاديث خفيفة عن الطعام والأحوال وأنغام سيمفونية (زواج فيجارو) لموتسارت الصادرة عن الجرامافون، دون كلام حقيقي، وكأن الجميع في حالة إحماء للحظة البدء، حتى ضرب بنيامين بسكينه ضربتين خفيفتين على كأس النبيذ فسكتنا جميعًا، وقال: «الليلة الجاية ليلة مهمة جدًّا، مش هبقى كدَّاب لو قلت إنها الليلة الأهم في عمري».

صمت العجوز قليلًا يزدرد ريقه، ثم أردف: «في البداية علاء أفندي كان بالنسبة لنا مجرد حلنجي، نفس الضبع اللي دبح بناتنا لكن في صورة شيك شويتين، قلنا مهما اختلف المظهر أكيد من جواه نفس الشر». فابتسمت لكلامه ابتسامة لا إرادية لم أعلم إن كان منبعها السخرية أم الامتنان، لكنها ظلَّت معلقة على شفتيَّ وهو يكمل: «بس اتضح لنا جميعًا إنه مش المجرم اللي كنا نظنه، اتضح لي إني كنت غلطان وبشدة».

ولا يهمك يا خواجة، صحيح إنكم كنتم على وشك التضحية بي كخروف العيد ودفعي لأزمة هوية معتبرة، ولكن تلك الحوادث الزمنية شائعة ومعتادة ... انتظرت مواصلته الحديث لكن لم تفلت كلمة لا منه ولا من أي منهم، فوجدتني أتحدث من تلقاء نفسي قائلًا: «أنا كمان مسامحكم ... أتمنى تكونوا مسامحيني على أي حاجة عملتها، سواء دلوقتى أو زمان».

ـ زكريا: كلنا عايزين نسامحوك وننسى يا علاء ... لكن ياريت الزمن كان بيشفي يا بني، يا ريت كان يقدر ينسينا شيء بشع زي اللي حصل.

ـ ماري: صدقيني سماح دي رفاهية إحنا مش نملكها، أنا بنتي كان كل حاجة في حياتي.

ـ جوستاف (بالفرنسية): يا صديقي الموت حبر باهظ الثمن يلطخ كل ما يلمسه ويترك آثار لا تمحى، لقد لطخت حياتنا بالموت أيها المحترم، فلطخك هو بحبره الثقيل، بالإثم البشع لأخذ أرواح أحبائنا.

سألت: «يعني بعد كل ده مش مسامحين؟». فأجابتني (أليس) التي تكلمت أخيرًا: «يمكن بنحبك بس صعب نسامحك علاء، فرق بينهم مش قليل».

صدقتي يا امرأة، بين كليهما حائط شفاف رفيع، لكنه صلب كالحجر، فقلت متنهدًا وأنا أضع السكين في طبقي بعد أن خارت شهيتي قليلًا: «يمكن لو أنقذت ميرتل والبنات الباقيين

بكرة ده يخليكم تسامحوني».

نظرات مليئة بالأسى تبادلوها معي قبل أن نعاود كلنا الأكل في صمت، فلم تتحدث سوى الآلات الموسيقية مرددة جملًا خالدة مكتوبة بعناية لمقطوعة (الغناء للأوتار). كان الطعام في المجمل جميلًا متوازن البهارات ولكن ينقصه بعض الغفران والكثير من الشجاعة حتى أستطيع بلعه، وبعد دقائق من الأكل عديم الشهية قال بنيامين: «أنا مسامحك يا علاء، أيًّا كانت النتيجة». فرفعت وجهي صوبه وهو يكمل بشفاه تتراقص: «لكن أرجوك، اِنقذها».

استقرت كلماته في قلبي ونفذت، غطاني عار ذنب لم أقترفه لكنه حوَّل حياة الحاضرين لمأساة ضخمة، بل إنه غير وجه التاريخ بأكمله، لكن هل سيتوجب عليَّ دفع ثمنه حتى يوم مماتي؟ بهدوءٍ تكلمت، ثارت الكلمات المحبوسة بقفصي الصدري فانفتح فمي تحت وزنها قائلًا:

«تجربتي في العمارة مش هتتنسي أبدًا، لو فضلت عايش بعد بكرة هفتكركم كل يوم، انتم عرَّفتوني حقيقتي، برغم نيتكم في الأذية خليتوني أوصل لمكان جوايا مكنتش عارف أوصل له ولا عارف إنه موجود، أنا مش متضايق منكم؛ لأن اللي عملتوه كان من غلبكم ومن وجعكم، أوعدكم إني بُكرة هعمل كل اللي أقدر عليه عشان أمنع إن أي حد يموت».

وعندما تخرج الكلمات من أعمق نقطة في قلبك، مهما كانت بسيطة، فهي قادرة على تفتيت الحجارة وإذابة الحديد، ورسم بسمات مفاجئة دافئة كتلك التي تقوَّست على وجوه الحاضرين، ثم كالسحر انفكت الأجواء، فأخذوا يأكلون ويشربون ويتحدثون بأريحية أكبر، تبادلنا ذكريات وأسرار وتذكرنا إسحاق الرابح الوحيد حتى الآن، ثم أدارت الخمر رؤوسهم فراحوا يحكون كواليس خطة الإيقاع بي بين الفواق والضحك والبكاء أحيانًا. شرب الجميع وثمل، حتى ماري الكئيبة تجرعت كأسين وثلاثة وربما ابتسمت مرة أيضًا، وعندما بلغت الثمالة الذروة أمسوا يغنون أغاني فلكلورية غطت على موسيقى الجرامافون، اختلط فيها الفرنساوي بالنمساوي بالمصري بالتصفيق والرقص حول المائدة. كان احتفالًا صاخبًا بالأمل والغفران، وتكريمًا للجانب الأبيض من البشرية وإيمان بقدرته في التغلب على الجوانب المظلمة، رأيت جيراني كما لم أرا هم من قبل، رقصوا جميعًا وطرقت حيوية مفاجئة

أجسادهم، الكل يتمايل ويتقافز ويقهقه، ما عدا أنا وبنيامين؛ إذ جلسنا على رؤوس المائدة مشتركين في حوار صامت بالأعين عن الرجاء والثقة، والخوف.

الحمل والعذراء، الحب والانتقام والذبح، طقوس قائمة على تواريخ ثابتة من كل شهر مهما اختلف المكان، ثمة رابط، لكن أين هو؟ دخلت رأس هذا الوغد وتوغلت فيها أكثر من أي وقت مضى ومع ذلك لا زلت عاجزًا عن اكتشاف طريقة تفكيره كاملة، بالتحديد أعجز عن فهم كيفية اختياره للأماكن والتواريخ، هاجمتني الأسئلة مجددًا وكادت تخل بتوازن مزاجي الرائق، فضقت بها ذرعًا وهششتها بعيدًا عندما سألت بنيامين تحت أصوات الغناء والتصفيق: «تفتكر ليه الأماكن بتتغير بس تواريخ القتل ثابتة؟».

ـ بنيامين: يمكن التواريخ مرتبطة بشيء ثابت ...

ـ صح. بحاجة ثابتة أكتر من أن أثر اليعسوب يطولها، مهما الظروف البسيطة اتغيرت ...

ـ شيء ثابت زي الاحتلال مثلًا، حاجة ماتتأثرش بسهولة، راسخة في الأرض.

ـ أو ... أو حاجة مش على الأرض أصلًا!

برقت الفكرة في رأسي بصورة لامعة، صورة جسم يشع بضوءٍ فضيٍّ رافقني طوال رحلتي، إنه القمر! القمر بالأعلى، القمر ثابت في مواعيده، القمر هو الأخ الكبير للنجوم والأبراج، يجاورها ويقودها ويرشدها، القمر الكامل كان حاضرًا في الليالي الثلاث الماضية، والقمر سيكتمل غدًا، هو مرتبط باكتمال القمر دائمًا! مهتزًا باكتشافي ألقيت منديل الطعام وتركت السفرة مسرعًا حتى أني أسقطت الكرسي خلفي بدوى عالٍ.

في شقتي رحت أبحث محمومًا عن ملحوظاتي الأخيرة حتى أتمكن من تكوين خريطة بصرية، أمامي استلقت الصور الفوتوغرافية وبدأ كل شيء يسكن في مكانه الصحيح؛ العلامات والتواريخ والشابات وكل دليل كان في البداية بلا أهمية ولا دلالة صار قطعة مفهومة في قصة السَّفَّاح، تلامست الخيوط الآن أكثر والتقت في عدة مواضع، صحيح إنه إلهام متأخر ولكنه أفضل من ألا يأتي أبدًا.

على ركبتي جثوت من جديد كما فعلت في آخر مرة، يتنقل بصري ويتردد بين كل الأوراق في سرعة محاولًا الإمساك بهم كلهم في وقت واحد، قلبي يدق معلنًا حماسه، تمشي أصابعي

وتجري على الورق الخشن والصور الباردة والحروف البارزة، تأكل عيناي التفاصيل وتعُب أنفي الروائح فتمتلئ حواسي بالأدلة وتدفعني مع الوحي الجديد للحافة؛ حافة الجنون وحافة الذكريات وحافة الـ ... صداع!

ركل باب رأسي ودخل بلا استئذان، كعادته ضيف ثقيل لا يفهم أبسط قواعد الإتيكيت ولا يراعي خصوصيتي، دخل حاملًا ألمه الحاد وومضات من الضوء ورؤية جديدة سحبتني من شقتي إلى عالم آخر، لكنه كان مختلفًا عن كل ما جربته من قبل؛ الآن أنا في رؤية داخل رؤية، رؤية أتذكر فيها نفسي وأنا أتذكر لمحات غير مرتبة من ماضيَّ فبدا الأمر وكأنني أرى الأحداث من خلال منظار أو تيليسكوب:

أنا أبكي أودري، ما زلت في لندن تحت نافذتها، أبكي بصوتٍ عالٍ يشبه نهيق الحمير لعلها تقابلني بضع دقائق فقط فأخبرها كم أحبها وأنني على استعداد للتغيير، لكن لا تطل رأس أودري من النافذة ولا تطول أذناي صوتها، أودري ستتزوج الأحد القادم في كنيسة سانت باتريك، ألن تظلم الشمس يومها وينشق حجاب الهيكل؟ ألن تتساقط النجوم وينتهي العالم؟ لا بل كانت شمسًا صافية بلا سحابة واحدة في جبين السماء، بل وغردت العصافير يومها تغريدًا مضاعفًا، وتزوجت أودري برجلٍ آخر، وطئها رجل غيري ولمستها أصابعه، ولم ينتهي العالم.

أنا على متن سفينة متجهة لمصر، البحر يمتد في كل مكان حولي، والغضب بداخلي يزأر، أقبض على حافة السفينة الحديدية وأقسم في رأسي ألف مرة على الانتقام من أودري في كل شابة وكل أنثى تحمل روحها، سأغتصبها وأعذبها وأمثل بجثتها حتى تشفق عليها الغربان.

أنا أغادر السفينة أخيرًا متجهًا لمكان لا أعلمه، تستقبل أرض الإسكندرية أقدامي التائهة وحملي الثقيل في إشفاقٍ ... إلى أين أذهب؟ على ظهري بعض اللوحات معلقة وفي يدي حقيبتي الرثة التي لا تحوي سوى ملابس بالية وأدوات رسم وأحلامًا مكسورة، بلا وجهة ولا هدف، حتى ناداني صوت غريب، رجل أبيض سمين، ضخم الجثة وله طابع ناعم برغم الشارب الضخم الذي يزين وجهه، فيوحي مظهره بنوع من الشذوذ تجلَّى في قناع يغطي نصف وجهه وفي مظاهر الترف التي تغلف حركاته، بصوت سخيف حاول أن يبدو رجولي

خشن أخبرني أنه راقبني طوال الرحلة وأنا أرسم البحر والسماء وأنه معجب بموهبتي حقًّا، ثم سألني بإنجليزية جيدة:

ـ وما الذي أتي بك إلى الإسكندرية؟ على ما أظن ما زال في المملكة متسع للفنانين أمثالك.

ـ أصبحت المملكة أضيق عليَّ من تابوت، أي مكان سواها هو مكان أفضل ...

ـ ما عملك هنا إذن؟

ـ ليس لديَّ واحد ...

ـ أتعني أنك هنا بلا هدف محدد؟

ـ لا مسكن ولا وظيفة، أنا كومة من القش في مهب الريح ...

ـ لا تقلق، ربما يمكنني أن أُدّبِر لك مسكنًا ووظيفة، فنان مثلك يستحق الدعم ...

ثم مدَّ يده في صديري بدلته وأخرج بطاقة فخمة غير مألوفة الشكل، مصنوعة من العاج البُني وكُتب عليها بماء الذهب:

منتصر عناية باشا ...

٢٣ ش. المماليك ـ الحي اليوناني

***

- 29-

سنة 1899 (س.م.ت)

اليوم الأخير، الفصل النهائي في قصتي الطويلة المتقلبة.

في ساعات الصباح الأولى كنا نقف على أعتاب قصر (منتصر عناية)، الثري السمين ذي قناع النصف وجه الذي رأيته في زيارتي الأولى لهذا الزمن يدخل المومسات والأقزام للحفل، أمام قصره كنت أقف مع هاريسون وبنيامين، فلم نهدر ثانية واحدة من بعد إخباري إياهما باكتشافي الجديد: هناك مَن يستطيع أن يدلنا على عنوان چاك، هناك مَن يستطيع أن يمدنا باللون المفقود في اللوحة!

واللون المفقود كان منتصر عناية، إمبراطور الإسكندرية السري الذي لم ولن يذكره التاريخ، بحسب كلام بنيامين فلم يكن منتصر رجلًا عاديًّا، بل كان شبحًا خفيًّا وأخطبوطًا متعدد الأذرع له في كل شارع ماخورًا، أو بيتًا، أو مومس تعمل ضمن منظومته، هو يتاجر في الأقمشة والأسلحة والأفيون وكل شيء تقريبًا تحت هوية خفية وعدة أسماء مستعارة، تحميه شبكة متشعبة ومعقدة من العلاقات والرشاوى والعصابات الأجنبية مثل إل-راجاتسو، وحول إصبعه يرتدي بلطجية وفتوات الإسكندرية كالخاتم.

حتى تحظى بشرف مقابلة (منتصر) فعليك أن تكون إما وزيرًا أو خديويًّا أو ملكًا، أو محظوظًا بدرجة غير عادية لأنه يختفي معظم أيام السنة وما أكثر سفرياته خارج البلاد، فضلًا عن أنه يسحب على نفسه ثوبًا من الغموض ولا يعرف شكله سوى قلة قليلة من الناس؛ لأنه لا يظهر إلا مغطيًا وجهه بقناع من الأقنعة أو حتى برقعًا في بعض الأحيان. وعندما سألت هاريسون في الطريق لماذا لم يُقبض عليه أو حتى تضيّق الحكومة على نشاطاته أخبرني في ضيق إنه أكبر من حكومات بأكملها، كما أن له علاقات ومصالح مباشرة مع الإنجليز وأنه أهم مصادرهم للإمداد والتموين، والدعارة.

كان (منتصر) ملكًا بكل ما تحمله الكلمة من معان، وهو ما صرخ به قصره الفخم الذي يكتظ بمظاهر بذخ تناطح الأمراء في كثرتها ووقاحتها؛ فهناك وجدت حديقة بديعة مليئة

بنوافير مرمرية وأشجارًا مقلمة على أشكال طيور الفلامنجو، ورخامًا فاخرًا في كل ركن، وزجاجًا ملونًا ومقابضَ من الذهب الخالص أو الفضة، ناهيك عن جيش من الخدم والحشم يجوبون المكان، كان قصره تجسيدًا للأحلام والثروة الخيالية التي لا تعرف حدًّا ولا منطقًا.

قبل الذهاب عملت بنصيحة بنيامين واصطنعتُ تنكرًا بسيطًا مكونًا من وشاحٍ وقبعة ومنظار داكن حتى لا يتعرَّف (منتصر) على الشبه بيني وبين چاك، وهناك في القصر استقبلتنا مدبرة المنزل اليونانية التي كانت نسخة كربونية من كل مدبرات المنازل فتظن من النظرة الأولى أنها خرجت من رحم خط إنتاج خاص بوجهها الطويل وشعرها الرمادي المعقوص، ببرود أخبرتنا السيدة أن (منتصر) بك مشغول ولن يستطيع مقابلة أحد ولكن إكرامًا لحكمدار الإسكندرية الذي رافقنا ذهبت لإخبار سيدها أننا هنا من أجل أمر ضروري وعاجل يخص أمنه الشخصي، وعلى غير المتوقع عادت السيدة المتأففة تدعونا لدخول حصن البغاء المنيع المخصص للمختارين، والذي سندنسه بأقدامنا طبعًا.

وقفنا في غرفة معيشة واسعة أقرب لبهو قام فيه صالون فريد المنظر من الأخشاب النادرة والجلود الفخمة، بالإضافة إلى تماثيل نصف جسدية لملوك وأمراء ونساء، ومدفأة ضخمة قعدت في ركن من الأركان انعكس لهبها على الحوائط القرمزية واللوحات المرسومة الضخمة التي تغطي مساحات واسعة من تلك الحوائط، كانت اللوحات هي أكثر ما لفت نظري في البهو، لطابعها الفني المختلف ولتشاركها كلها تفاصيل معينة أبرزها السيدة السمينة البيضاء التي كانت بطلة لكل اللوحات تقريبًا مهما اختلفت أوضاعها أو موضوعاتها، والغريب في الأمر هو شبهها الكبير بمنتصر، غمغمت لهاريسون قائلًا: «أخته؟» فرفع كتفيه من سكات وهو يفتش في المكان بعينيه ثم أخبرني باقتضاب أن (منتصر) لا يمتلك عائلة معروفة وأن كل ما حوله مبهم، لكنه لا يستبعد وجود أخت توأم من باب اكتمال الغرابة.

ثم تناهى إلى مسامعنا صوت خطوات تزحف ببطء على الأرض كما لو أنها أكسل من أن تمشي، ومن الباب الكبير دخل (منتصر) يتبختر في مياعة واضحة بجسده الضخم المدسوس في روب حريري ياقوتي اللون ومفتوح الصدر، أقبل علينا بلا قِناع ولا بدلة ولا شارب فظهر بمظهرٍ غريبٍ لا يتناسب أبدًا مع سمعته الرهيبة: جسده البدين يمتلئ بانحناءات مترهلة،

ووجهه السمين الوردي يشبه الأطفال في ملامحه ونعومته، وله شعر أنثوي مبتل يلامس الكتفين، ويدان تتحركان بإيماءات مائعة.

صافحني بيد ناعمة تحمل خاتمًا ذهبيًّا ضخمًا، والتقطت أنفي رائحة سُكرية تفوح منه تشبه عطور النساء لكنها مركزة للغاية، وكأنه كسر القنينة كلها على رأسه، كان جليًّا على مظهره ورائحته أنه قد انتهى لتوه من الاستحمام وخرج على عجالة ليقابلنا، بلا ملابس رسمية أو حذاء بدلًا من الخف الذي يرتديه، فصافح من بعدي بنيامين بابتسامة واسعة ثم مدَّ يده لهاريسون الذي ظلَّ عاقدًا كفيه خلف ظهره غير راغب في مصافحته، يرمقه بنظرات متجهمة تمامًا، لكنه ـ (منتصر) ـ تجاهل برود هاريسون غير المبرر وأولانا ظهره وهو يؤرجح رأسه لليمين ثم الخلف بطريقة معها يُرجع شعره الطويل كله خلف رأسه، ثم قال: «بونچور يا بهوات ...يسعد صباحكم».

لم يرد أيٌّ مِنَّا ولم تجبه سوى عصافير تصدح في حديقته الغناء، فصوته غريب مضحك كما سمعته في الرؤية، خليط بين الأنوثة الخشنة أو الرجولة الناعمة، وأردف وهو يمشط شعره المبتل بمشطٍ خاصٍّ من العاج: «الخواجة بنيامين وهاريسون باشا في بيتي المتواضع، أنا ماصدقتش ودني وهيلجا بتقول لي».

ـ هاريسون (بالمصرية): الشديد القوي ...

ـ كل زباييني مابييجوش غير للشديد القوي ...

ـ لكن إحنا مش زباينك ...

ـ طول ما اللي بين رجليك صاحي تبقى زبوني ...

نظر له هاريسون ممتعضًا بينما فلتت من (منتصر) ضحكة ناعمة ممزوجة بشخرة على دعابته البذيئة، فشعرت من مكاني بغضب الحكمدار يشع سخونةً لكنه بطريقة ما لم يطلق له العنان، ثم التفت لنا (منتصر) واضعًا يديه في جيوب الروب الحريري: «خير؟ عايزين حريم ولا رجالة ولا ... صبيان».

ـ هاريسون (بجفاء): إحنا هنا عشان استجواب ...

ـ أنتم هنا عشان ضيوفي وأنا اللي أحدد شكل المقابلة، تشربوا إيه؟

ـ إنت تشرفنا في حكمدارية وتشرب اللي تحبه، عندنا شاي صعيدي يعجبك ...

ـ لا يا جناب الحكمدار باينك فهمت غلط، إنتم مش ضيوفي في القصر، إنتم ضيوفي في إسكندرية ... بكلمة مني أقدر أرجعك بلدكم، حبايبي كتير وانت عارف.

بحاجبين يتلاعبان قالها، فدُهشت لجبروت هذا الرجل المائع المتناقض، الذي رغم ميوعته الفجة يتحدى الحكمدار الإنجليزي بكل تبجح وبلا ذرة خوف، وكأن له نفوذًا مساويًا لبلاط الملك. همَّ هاريسون بالكلام لكني لكزته برفق، لا وقت لمعارك إثبات السلطة يا عم هاريسون، استجوب الرجل وخذ منه ما نريد وننتهي. فقهقه (منتصر) عاليًا وهو يضع بعض مكعبات الثلج في أكواب زجاجية فترن رنينها المميز، وقال: «على العموم ماحدش بيقول للويسكي لأ».

وبينما صبَّ الويسكي من زجاجة كانت على رفِّ المدفأة الرخامي رحت أجوب المكان بعيني، فلاحظت بعد تدقيق ان المرأة المرسومة في اللوحات هي منتصر نفسه، الذي أضفى شعره الطويل مع ملامحه الناعمة تلك المسحة النسائية، لكن اللوحات نفسها كانت عادية في موضوعاتها فهناك واحدة له يدخن الشيشة وأخرى كان يجلس فيها مستندًا إلى نخلة في غيط وثالثة له عاري الصدر في سرير من الحرير، وكل اللوحات تحمل نفس التوقيع في الركن الأيمن من أسفل، (چاك جابرييل).

ـ بنيامين: تعرف رسام اسمه چاك؟

سرى صمت موتر، لا يشوبه سوى طقطقة اللهب وصوت صبِّ الويسكي في الأكواب ...

ـ ولنفترض أني أعرف، إيه المطلوب؟

ـ مطلوب القبض عليه، چاك يبقى سفاح الحريم ...

سقطت زجاجة الويسكي من يد (منتصر) وتفتت لشظايا صغيرة تسبح في السائل البُني، فانتفضت أنا وبنيامين فزعًا على عكس هاريسون الذي كان ثابتًا راسخًا لم يتزحزح خطوة، بل ألقى نظرة مطولة على (منتصر) فاحصًا إياه من مقدمة رأسه وحتى أخمص قدمه. (منتصر) الذي تلطخ وجهه بشحوبٍ واضحٍ وزاغت عيناه كأنما تلقَّى خبر وفاة عزيزٍ عليه، ثم

التفت يصرخ في هاريسون وقد تحوَّل صوته لصوتٍ ذكوريٍّ خشنٍ: «مستحيل!! ده لا بد تلفيق ... أكيد ملعوب».

ـ بنيامين: للأسف ده أكيد يا منتصر باشا، المجرم ده بيتعرف على الشابات في الحفلات ويوقعهم في غرامه وبعدين يقتلهم، كل الأدلة ضده.

ولم يكد الخواجة ينهي كلماته حتى تداعى (منتصر) على أقرب كرسي ... هذا رجل مريب بحق، كل ما يتعلق به أو يصدر عنه منقوع في الريبة، فها هو منهار وترتعش يده كمبنى على وشك السقوط وتكفَّن وجهه في كآبة، وحتى صوته أيضًا تهدَّج وتقطَّع كأنما حمل حملًا ثقيلًا، وهذه كلها أعراض جانبية لمخدر سام وفتاك أعرفه جيدًا، ويُعرف في أوساط العامة باسم (الحب)، أيعقل؟

نظرنا ثلاثتنا لبعضنا البعض في استغراب بينما قبض (منتصر) على ذراع الكرسي وكأنه يقاوم ألمًا معويًّا ما، لكنه فجأة انتحب وصار يبكي، بل أخذ يلطم وجهه ويخمشه في هيستريا غير مبررة كالنسوة في المآتم، دون مقدمات قال نائحًا: «كنت شاكك ... كنت حاسس إنه بيصرف الشهرية في شيء بطال، كان قلبي حاسس».

ـ بنيامين: هو متوظف عندك؟

هزَّ الرجل الباكي رأسه نفيًا من بين كفيه، وقبل أن يتكلَّم سأله هاريسون ممتعضًا: «عشيقك، مظبوط؟». ثم انهار الإمبراطور في الحال؛ اندفع الكلام خارجًا منه وكأنه يهرب من بين انهيار هذا الجسد الذي طال أطرافه المرتعشة وأنفاسه المتسارعة، باح بما لم يطالبه به أحد وبتفاصيل من شأنها تدمير نصب هويته الشامخ، تكلَّم وكأنه ينزع عن قلبه حجرًا ثقيلًا من الكتمان، فقال بوجهه المدفون بين يديه:

ـ عشيقي وحبيبي وأغلى ما في حياتي ...

هل تفاجأت؟ إطلاقًا، ولكن ظهرت المفاجأة واضحة على وجوه مرافقَيني اللذين لطالما سمعًا عن (منتصر عناية) واختبرًا سطوته في هذا البلد، ليكتشفًا أنه في النهاية مثلي الجنس مُتيَّمٌ برجُل أجنبي. اتسعت عينا بنيامين قليلًا لكن ظلَّ هاريسون جامدًا في انتظار باقي الاعتراف، الذي أتاه على هيئة نشيج بطيء في البداية قبل أن يرفع (منتصر) وجهه ويردف:

«بس هو ما حبنيش، كان بيشوفني مسخ، راجل منسون بشنب عيرة ... قابلته على سفينة سيسيلي، كنت راجع من عند الإنجليز بشوف حريم للشغل ... عجبني وملى عيني، شعرت ناحيته بشيءٍ ماجربتهوش قبل كده، عرضت عليه وظيفة وسكن، وعشان أعرفه أكتر كنت بجيبه كل أسبوع مرتين يرسمني».

هذا يفسر اللوحات العديدة المعلقة على الحائط، بالتأكيد هناك المزيد بالأعلى وفي غرفة نومه والمطبخ وحتى الحمام، عندما يحب البشر يفقدون عقولهم حقًّا، يصيرون أسذج من الأطفال وكرامتهم تغدو ترابًا بلا ثمن.

ـ أما اعترفت له بحبي غضب وهجرني، حتى ساب السكن اللي كنت جايبه له، لكنه بعد فترة رجع، اشترط عليَّا مافتحش الموضوع إياه تاني ... بس وعدني إنه مع الوقت ممكن يفكر.

تأملت ملامح هاريسون التي كانت تتقلص وتتقزز أكثر كلما غاص الرجل في تفاصيل قصة حبِّه فيبكي وينوح، الندم يأكله أكلًا بعدما اكتشف الحقيقة، الندم نار تحرق كما أخبرني بنيامين، الذي كان أول مَن يجلس ويتحدث، وأشعل غليونه قائلًا: «كنت عارف إنه اللي بيقتل البنات؟».

ـ قلبي ماطاوعنيش، لكني بديت أشك فيه الشهرين اللي فاتُم، مابقاش طبيعي، كان بياخد مني يوماتي بالمليم والقرش، وبيسهر كل ليلة في حفلة شكل.

سكت قليلًا وراح يراجع في رأسه الأشهر الماضية، على الكرسي كان ملك البغاء يبكي في هيستريا وقد انفتح روبه كاشفًا عن ثدي ذكوري مترهل تدلَّى خارجًا، شُق ثوب كرامته وسقط تاجه تحت أقدام العشق، ولا يصلح عالمه الآن لشيءٍ سوى النحيب، فما أقبح العالم عندما تدرك أنك واقع في حبِّ سرابٍ، ما أقسى ألم الأسرار المخفية التي تباغتك حقيقتها.

للحظات نحيت تقززي منه وشعرت بتعاطفٍ، عندما قال منتحبًا: «بعد ما أخبار السَّفَّاح كانت بتظهر كل فترة كان بيتوتر ويمسك أي جرنال يفتشه بعينيه، وكان بياكل زي المجنون الفترة اللي فاتت، أنا شكيت إن عَيَا بَطَّال صابه».

ـ هاريسون: وهو ساكن عندك هنا؟

ـ قاعد في ماخور من بتوعي بس باسم حُرمة جريجية، كان واخد السندرة بتاعة البيت وعايش فيها.

فغمغم هاريسون بالإنجليزية (لهذا لم نستطع التوصل إليه) ثم قال وهو يشد قامته: «إديني العنوان حالًا». فقال (منتصر) منكس الرأس: «ماتحاولش، ساب البيت بقى له كام يوم، مش عارف له طريق ... أنا قلت إنتم تعرفوا عنه حاجة عشان كده دخَّلتُكم».

الوغد كالعادة يسبقنا بخطوة، سواء عن قصد أو عن غير قصد! شعرت بغصة أخرى في حلقي من غصات هذا الزمن التي لا تنتهي، ومن القصر المنيف انسحبنا في عاصفة من الإحباط، جيوبنا ملأى بأجوبة لكن بلا طائل، لو فقط أصابتني تلك الرؤية منذ أسبوع لاختلف كل شيء، كل شيء كان صحيحًا والتوقيت هو الخطأ الوحيد، يا له من شعور مُر. الخطوات الوحيدة الجيدة التي اتخذناها هي تأمين بنات كل من زكريا وأليس بعدما أبلغناهم بحقيقة السَّفَّاح، ثم محاولة هاريسون اليائسة الأخيرة للإمساك به عندما توجَّه إلى الماخور الذي أخذ عنوانه من (منتصر) على رأس فرقة صغيرة للتأكد من احتمال عودته، وتركني مع كلاب الصيد في الحكمدارية، في محاولة أخيرة لفكِّ القطعة النهائية من اللغز قبل الموعد الذي أوشكت أنيابه أن تطبق علينا، قبل موت ميرتل الغائبة.

كرهت مشهد غرفة الاجتماعات أكثر من أي وقت مضى، فهذا المنظر لم يعد يعني سوى الفشل والتيه وسط عشرات والأسئلة: أين ميرتل؟ أين چاك؟ ولو اختطفها فلماذا لم يختطف ابنة زكريا ولا ابنة (أليس)؟ أكثر الأحاسيس ثقلًا واستفزازًا هو ما أمرُّ به الآن، كامتلاك سيارة سريعة لكن بلا وقود أنا أمتلك كل التفسيرات لكن دون وجهة! يكاد رأسي ينفجر من التوتر وتخنقني المناظر ذاتها؛ نفس الموائد والكراسي والدفاتر المفتوحة على مصراعيها يأسًا، نفس الضباط والمسئولين العابسين يدخنون سجائرهم في استسلام، ونفس النتيجة في كل مرة: يهرب الوغد مِنَّا.

لم نتبادل كلامًا كثيرًا تلك المرة، احتاج الحوار طاقة أكثر مِمَّا تجود به حالتنا فاعتزل كلٌّ مِنَّا في صومعته الخاصة مفكرًا أو مراجعًا بعض الأوراق في روتينية، جلسنا تحت رحمة الانتظار أملًا في عودة هاريسون من البيت إياه بخبرٍ سارٍ غير متوقع، لكن ولأن الصدف السعيدة لا تحدث إلا في الأفلام عاد بالطبع خالي الوفاض،

كل ما تحصَّل عليه بعد اقتحام البيت عنوة ـ رغم القوانين التي تحرِّم تفتيش بيوت البغاء المملوكة للأجانب بدون إذن القنصلية ـ كان حديثًا مرتبكًا مذعورًا من صاحبة الماخور اليونانية التي أخبرته أن ساكن العُلية غادر منذ ثلاثة أيام، ومن حول وجهه كانت تتراقص شياطين الجحيم، حاملًا حقائبه وبقجة قماشية كبيرة، وأنه هددها ألا تفتح العلية لأي مخلوق حتى يعود وإلا قتلها وأكل كبدها. الجزء الشيق في القصة كان ما وجدوه في العلية الرطبة، أقنعة مصنوعة من وجوه الضحايا المسلوخة ومعلقة على قوائم خشبية، أراني الحكمدار واحدًا منها بعدما أخرجه من كيس قماشي فتعرفت على صاحبته على الفور، كان هذا وجه بريدجت من ضحايا الليلة الأولى، وإن كانت ملامحها قد اختلفت قليلًا بعدما عولجت بكيماويات خاصة.

في غضبٍ مكتومٍ ألقى هاريسون بالقناع على الطاولة الكبيرة وامتطى كرسيًّا خشبيًّا في منتصف الغرفة، ثم تغلَّب الصمت علينا طويلًا فلم يجرؤ أحد على الحديث إلى أن تكلم هو من تلقاء نفسه، غنَّى لحنًا إنجليزيًّا قديمًا عن البحارة والغنائم والبلاد البعيدة، ثم قال بحزمٍ عندما فرغ من اللحن وهو يداعب خزانة مسدسه الدوار: «سنلجأ للخطة «ب» إذن ... أعطوا الأوامر للقوات بالانتشار في كل الإسكندرية حسب النقاط التي حددناها، بداية من أصغر عسكري حتى أكبر رتبة، سنكون جميعًا في الشارع الليلة ... ليساعدنا الله ويعين قلة عددنا بعدما تخلت عنا حكمدارية القاهرة( )».

وعلى الفور تلقَّى كلمات الطاعة والتمام من كل صوب في الغرفة، ثم قام الجميع يشدون أجسادهم المتيبسة ويتمطعون متكاسلين، وامتلأت الغرفة بحركات خفيفة هنا وهناك، في أثناء الهرج سحبت كرسيًّا بالقرب من كرسيه وربتت على كتفه قائلًا: «أنا عايز أروح البيت اللي كان ساكن فيه». فنظر إليَّ نظرة ضجرة وغمغم أنه لا شيء هناك، ولكني علمت أن بهذا البيت ما سيفيدني عندما رأيت القناع، بالتأكيد هناك دليل مختبئ تحت لمسة أو رائحة ما قد تدفع رؤية جديدة داخل رأسي، وهو ما لم أستطع صياغته له لكني أصررت وأخبرته أن وساطتي الروحية تعمل جيدًا حيث يترك المجرمون آثارًا، فرفض رفضًا قاطعًا وأخبرني أنه لم يعد هناك وقت للوساطة الروحية ولا يحزنون، واعتذر لي بصدقٍ ثم تركني ليتابع إجراءات

التأمين والخطة، ولم أناقشه، فقط ابتلعت حججي في إحباط ثم جلست على الأريكة الجلدية أراقبهم وقد ذبل جزءٌ ما بداخلي، بالتأكيد هذا هو شعور المشلول على متن سفينة تغرق.

أنا رأيت اليأس مرات عديدة في هذه الرحلة المشئومة، شاركني طرقًا وجالسني موائدَ وسكن صدري، ولكن هذه المرة كانت الأثقل على الإطلاق، فبعد أميال من الركض والبحث والألغاز والتفكير ما زالت المحصلة صفرًا. لم أدرِكم من الوقت مَرَّ في مكاني، لساعات انفصلت عن الواقع دافنًا رأسي بين يدي وقد استسلمت لهزيمة مبكرة فلم أبالِ بأي مِمَّا دار في الغرفة من أوامر واجتماعات مصغرة تنعقد بين كل مجموعة والأخرى، حتى أيقظني لومبروزو من عزلتي وهو يتثاءب بصوتٍ واضحٍ وعلى عينه المتورمة ما زالت آثار النوم محفورة، سألني إلى ماذا توصلنا فهززت رأسي نفيًا، ثم سألني عن بنيامين ببرود وهو يقشر ثمرة موز فتلفتُّ حولي بحثًا عن العجوز الذي لم أجد له أثرًا، وانتابني شعور سيئ مفاجئ.

أعرف جيدًا أي نوع من الرجال هو بنيامين وأعرف أنه لن يجلس مكتوف الأيدي وهو يعلم أن ابنته المختفية قد تقتل بعد ساعات، اختفاء بنيامين الذي غيَّر التاريخ من قبل علامة سيئة بالتأكيد وإنذار خطر أجبرني على التنبُّه ونفض غبار السلبية، فقمت أبحث عنه في الممرات، ولكن بلا أثر، ومع كل دقيقة تمر دون إيجاده كان القلق ينخر في أعصابي أكثر، فخرجت للشارع آملًا في رؤيته يدخِّن وسط الزِّحام لكن كل ما وجدته كان زحامًا بلا بنيامين، أشعلت سيجارة عابسًا وأنا أصعد سلالم الحكمدارية فقابلت عليها فيضانًا من الطرابيش الحمراء والبدلات السوداء النازلة في اتجاه نقاط التأمين المختلفة، اضطربت معدتي عندما ألقيت نظرة على السماء الملونة بالوردي، الغروب يتلاشى واللون الأزرق يلامس الأفق بمخالبه ويزحف على المشهد ببطء، ومعه يزحف الوقت.

لقد جاء الرعب، ها هو قد بدأ يترجَّل في شوارع الإسكندرية مع مشاهد قوات الضبطية التي تنتشر والعوام الآخذين في العودة لمنازلهم والمحال التي بدأت في الإغلاق مبكرًا، الجميع متأهب مذعور، يخاف أن تطوله سكين السَّفَّاح، الجميع يعود أدراجه عدا أطفال الشوارع المتناثرين في كل مكان كالقمل المتحمس يصيحون وينادون على بعضهم لمشاهدة رجال الضبطية أو ملاحقة المنادين الذين يجوبون الشوارع طالبين من الكل بعلو الصوت المكوث في البيوت لأن «الليلة ليلة القتل» كما كانوا ينادون.

في مثل هذه الأجواء المشدودة هل ما زال يمتلك الجرأة للقتل في شوارع مكدسة بالضباط ورجال الأمن؟ هل سيتحرك تحت أعين مدينة بأكملها تعلم الموعد وتتوقعه؟ نعم، مهووس متطرّف مثله سيفعلها معتقداً أن الحمل يحرسه كما حرسه في الليالي السابقة، ولكن ماذا عن ضحاياه؟ في ليلة كتلك هل ستطيعه مرتل الهاربة متجاهلة الرعب والتحذيرات؟ وهل سيرتجل جريمتين أخريين بدلًا من بنات زكريا وأليس؟

من بعيد بدد أفكاري صوت طفل صغير من أطفال الشوارع، جاء راكضًا حافي القدمين وعلى وجهه تعبير يضاهي في الحماس رحالة اكتشف قارة جديدة لتوّه، وفي يده كانت ورقة مطوية يتطاير طرفها الحر مع الهواء، أمام الحكمدارية توقَّف الولد لاهثًا ثم ابتلع ريقه ورفع الورقة عاليًا وقال: «بوسطة ... سفاح الحريم ... باعت معايا بوسطة».

خفق قلبي وجريت إليه على الفور متعطشًا لبعض الأمل، وتجاهلت حقيقة أن جوابات سفَّاح العذارى قد صارت موضة وهواية الآن، وأن المئات يكتبون للشرطة جوابات وهمية ويذيلونها بإمضاء السَّفَّاح، انتزعت الورقة من يده خاطفًا كلماتها ببصري، ثم شعرت بثقلٍ في معدت، وطرت من على سلالم الحكمدارية إلى باب غرفة الاجتماعات، وقلت ملوحًا بالورقة:

«راس التين»

***

- 30-

لا أعرف حقًّا كيف يمكن أن ينجو بفعلته تلك المرة، فالخط خطه والكلام كلامه والتوقيع الخاص به يزين الرسالة، وفيها يخبرنا متبجحًا بموعد وموقع الجرائم، فكيف سيفلت هذه المرة إذن؟

أم أنه لا يريد الإفلات من الأساس! نعم، ربما كل ما يريده الآن هو لحظة أخيرة من المجد، يقف فيها على مسرح كامل العدد مؤديًا آخر وأعظم فقراته، أمام جمهور ضخم يصفّق اعترافًا بعبقريته. أجفلت متوقعًا مصيبة، هو سيفعلها، سيستعرض ويذبح أمام الجميع انتقامًا لسرقتنا سمعته بالسَّفَّاح الوهمي، وكبرهان علني على وحشيته. ثم عَبَرت رأسي صورة خيالية لميرتل المذبوحة في ضوء القمر، تتشنج بحركات يابسة وهي غارقة في بِركة من الدماء، تنظر إليَّ في لَوْم، أنا خصيصًا من بين كل جمهور الواقفين ... لا، لن أتحمل مجرد التفكير في هذا المشهد، لو قُتلت ميرتل فعلًا لن تكون حياتي سوى جحيمٍ ممتدٍّ ومستمرٍّ من اللوم والشعور بالذنب.

تطلعت لهاريسون الذي كان واجمًا صامتًا في منتصف دائرة من الضباط المترقبين بينما ورقة الجواب متشبثة بأصابع يديه، يعمل عقله البوليسي بسرعة مضاعفة مفاضلًا بين كل الأفكار والاحتمالات للتنقيب عن قرار مناسب، حتى قال بحسم: « لتتجه جميع القوات لرأس التين». فقال حسن سلامة: «يا هاريسون باشا مش يمكن مايكونش هو؟ مش يمكن يكون بيضللنا!».

ـ هاريسون: لقد أكد خبير الخطوط أنه خطه، كما أن هذا الوغد بالفعل أبلغنا المرتين الماضيتين بالمواعيد والأماكن ولم يكن يكذب.

ـ ضابط إنجليزي: إنه مهووس لا يرتعد له طرف.

ثم تدخَّل لومبروزو وهو يتفقد الوقت في ساعة جيبه قائلًا على لسان المترجم: « السيد هاريسون على حق، هذا السَّفَّاح في مرحلة متأخرة من البارانويا، وعالمه مبني على الهلوسة

وغياب المنطق ... قد يظن الآن أن بإمكانه القضاء علينا بفرقعة من إصبعه أو الطيران بعيدًا عنَّا، أو التحول لأسدٍ مفترس لو أراد».

حلَّ الصمت برهة قبل أن يقول هاريسون: «لنبقِ جزءًا من القوات في الحكمدارية من باب الاحتياط وسنتابعهم بالتلغراف من نقطة رأس التين، هيا بنا». وفي الحال توجَّه الجميع للخارج نازلين في حين راح هاريسون يملي أسماء الضباط الذين سيمكثون، عندما انتهى أمسكت بمرفقه وهمست: «بنيامين مش موجود من بدري، اختفى هو كمان».

ـ نعم؟؟

خرجت منه الكلمة الاعتراضية بمصرية خالصة حتى كادت تصحبها بعض أصوات الشخير، فقلت مستدركًا: «دورت عليه ومالقيتهوش... أخاف يكون عمل حاجة غبية». فدحرج الحكمدار عينيه في محجريهما وأخبرني أنها ليست مشكلته الآن وأنه لا وقت لديه لهذا الهراء، طلبت منه بإلحاح عنوان الماخور حتى أبحث عن بنيامين هناك فأعطاه لي بعصبية، ومن ثَمَّ ودعته متجهًا للعنوان على متن أقرب عربة، أراقب الشوارع بقلب مضطرب، ولمسات الهواء البارد المتلاحقة على وجهي تزلزل كياني حاملة معها حقيقة أن العد التنازلي قد بدأ وأن كل شيء على وشك الانتهاء، فالظلام يحل والمصابيح تضاء وكل الأصوات تخفت عدا حوافر الخيول المتلاحقة.

بعد دقائق نزلت من العربة مسرعًا وأعطيت الحوذي ما استقرَّ في جيبي من نقود بدون أن أعدها، ثم وقفت لثوانٍ أمام البيت أبيض اللون أتفحَّص شكله لعله يطرح في رأسي فكرة ما أو ذكرى لكنه ظلَّ واقفًا كما هو، ففتحت بابه الخشبي ودخلت بخطوات واسعة حتى استوقفني بالداخل جدار بشري يرتدي جلبابًا أصفر قذرًا ...كان يجلس على مائدة قمار عاقدًا قدميه، يدخن نرجيلة بدائية الصنع ومنه تفوح رائحة العرق والخمر الرخيص، سألني وجوزته تقرقر إلى أين أنا ذاهب وأخبرني بلهجة ذات طابع ريفي لم يخلُ من آثار السُّكر «شطبنا».

وقبل أن أجيبه تفرَّس في ملامحي بعينين ضيقتين ثم نفض رأسه يمينًا ويسارًا بسرعة كأنما يطرد أفكارًا ألقاها الخمر بداخلها، ثم ابتلع ريقه ونادى على المدام صاحبة الماخور، فأقبلت علينا امرأة قصيرة ممتلئة الجسم وفي يدها تحمل آنية طبخ نحاسية، خرجت من المطبخ

تصيح بكلام يوناني لم أفهم منه حرفًا، لكني فهمت الرعب الذي ركبها عندما ابتعدت عني وهي توسِم نفسها بعلامة الصليب بشكلٍ متكررٍ، في هلع اتسعت عيناها ومن يدها سقطت الآنية النحاسية مقعقعة، بالتأكيد لاحظت الشبه بيني وبين چاك وظنت أنني هو وقد جئت للانتقام منها بسبب تعاونها مع الضبطية.

بلطف جربت أن أسألها عن الخواجة بنيامين فصرخت، حاولت أن أشرح لها أنني شخص مسالم لكنها جعلت ترتج في فزعٍ عندما أمسكت بذراعيها لتهدأ، فتركتها تصيح بنفاذ صبر وصعدت سلالم البيت حتى العُلية، بإحساس غريب يغلفني. وكأن هذا البيت صديق قديم، عرفت الطريق بلا مجهود أو سؤال، فبسلاسة كانت قدماي تشقه من سلم لآخر ومن ممر للثاني حتى وجدتني أمام باب العُلية الخشبي الرطب، الذي كان منظره وحده كفيلًا لأشعر ببوادر صداع تتجمع وتحتشد في مقدمة رأسي، مِمَّا شجعني على التقدم، ربما هناك رؤية قادمة في الطريق أو إجابة ستظهر الآن في ركن من الأركان، ثم فتحت الباب.

لقد كنت هنا منذ أيام، في هذه الغرفة الرمادية الباردة التي تتسلَّق الرطوبة جدرانها وتقشر طلائها، لقد زرت هذه الغرفة المقبضة في رؤيتي الأولى، لا زلت أتذكر هواءها المكتوم ورائحته الفاسدة، غرفة تليق بخلق سفاح إن لم يكن قد خُلق بالفعل قبل العيش فيها، ورغم بشاعة العفونة ورائحة الكيماويات أخذت شهيقًا عميقًا، لم أتقزز أو أشمئز بل على النقيض، عانقت هواء الغرفة فاحتضنتني الرائحة بألفة غريبة كما تتلاعب الروائح دومًا بالذكريات وتستحضر أطيافها.

كرائحة بيت الطفولة القديم عندما تعود إليه، حقنتني الرائحة بخليطٍ مفاجئ من المشاعر لم أعرف من أين أتى ولكني أعرف أنني اختبرت كل مكوناته هنا بين تلك الجدران؛ غضب ونشوة وتوهان ومشاعر أخرى مركبة، خاصة ومفصلة على مواقف بعينها اختبرتها هنا.

الصداع كان حاضرًا، يتزايد ببطءٍ ويضغط على رأسي أكثر مع تجلي المزيد من تفاصيل الغرفة: لوحات مرسومة، حوامل خشبية مُعلق عليها أقنعة من وجوه مسلوخة، أحواض غسيل معدنية واسعة، تشعُّ منها رائحة فورمالين محفوظ تحته بعض الأعضاء البشرية كالكُلى والقلوب أو ما تبقى منها، وكانت كل هذه التفاصيل أكثر مما أتحمل.

تخلخلت حواسي، اقتحمني المشهد وضرب حصارًا مفاجئًا حول حواسي التي ساحت، فانفتحت بوابات الذكريات مرة أخرى لتتمخض عن روية جديدة: زارتني نفس الجدران الرمادية، لكن تلك المرة كنت أجلس القرفصاء على الأرض ممسكًا بنصف قلب بشري، وفي فمي طعم مالح كريه درَّبت نفسي على حبه وتقبله كجزء لا يصح أن يتجزأ من شخصيتي، بظهر يدي أمسح الدم السائل من ركن فمي ثم أدفن القلب في الفورمالين فأشعر بالراحة المستحدثة لإنجازي ليلة أخرى، أقوم من على الأرض الباردة متوجًا بالرضا ومدثَّرًا بالفخر، أتأمل من النافذة القذرة القمر المكتمل فأشعر أنني جندي أمام قائده يقدم التحية بعد تنفيذ المهمة.

وماذا بعد؟ هل شبعت؟ هل ارتوى ظمأي؟ ارتواءٌ لحظي ربما، كرشفة ماء سريعًا ما يزول أثرها فتتركك راغبًا بالمزيد، لطالما كان هذا هو الحال مع هؤلاء الشابات وتلك الرغبة، فكلما تأمَّل الوحش الكامن في صدري القمر ونجومه المعلقة في السماء ينسَ الشبع ولا يفهم معناه، بالأعلى تسكن أودري الحقيرة، بالأعلى تطفو نجوم العذراء في رعب واستسلام غير قادرة سوى على مشاهدتي وتلقي طعناتي، والصراخ المتألم، فأحيانًا كثيرة أسمع صرخاتها تتردد في أذنيَّ، وأنا أرسم أو أستحم أو أتسوق، يدوي الصوت العذب لصرخات روح أودري المذبوحة داخل رأسي فأشعر معه براحة أقرب للنشوة.

كم الساعة الآن؟ أسحبُ من على الخزانة المعدنية القصيرة ساعة جيب ذهبية تقشَّر طلاؤها في مواضع عدة، أفتحها وأتسمر أمامها قليلًا، العقارب على ضفتها اليمنى تقول إنها الرابعة والنصف، وعلى ضفتها اليسرى تستقر صورة لي طفلًا بجوار أكثر وجه كرهته في حياتي، حتى أكثر من أودري، الأنف الحاد والعيون الصارمة للسيدة چود، والدتي.

كانت أمي الرعب الخالص، الكراهية بنفسها متجسدة في ثوب فلاحة إنجليزية قاسية لا تستطيع التفرقة بين أطفالها والبهائم؛ فالعصا عندها هي الحل، والخوف هو الوسيلة الوحيدة، أما الحب فهو رفاهية للأغنياء ومفهوم فاسد لا يجب أن يدخل حياة أطفالها إلا في لحظات خاطفة مسروقة من خلف ظهرها. قاعدة هذا الكون الرئيسية أنه دار تعب كما تقول كلما اشتكى أحدنا، للشقاء خُلق الإنسان وللدم والتراب، وكان أبوها يعاملها كما الحيوانات فلماذا تعامل أولادها كالبشر؟ إنه التسلسل الطبيعي الذي لا يحق لها التدخل فيه ولا تغييره، تُضرب

فتَضرِب وتُعاقَب صغيرًا فتُعاقِب عندما تكبر. أغلقت ساعتي في ضيق، ما زالت صورتها تبعث في جسدي قشعريرة رعبٍ رغم أن التراب ابتلع جثتها منذ زمن وتعازم الدود على بقاياها.

لم تعرف السيدة چود طريقًا مع أولادها سوى الصراخ والضرب والحرمان، وكأننا دُمى من القش، بل أدنى من الدُّمى، فهي لن تدمر دمية من أجل طبقٍ من العدس ولكنها فعلتها بي، كانت ليلة من ليالي فبراير المقيتة، أطبق فيها البرد مع الجوع على جسدي الصغير فسرقتُ طبق العدس الخاص بأختي بحثًا عن بعض الدفء، مجردَ طبق عدس كان كافي لتصبَّ جامَّ غضبها على رأسي بعصا تأديب المواشي الغليظة، وتنهال بضربات كانت أقوى من اللازم وأقسى من تحمُّل رأسي الصغير الهش، فألصقت الشقاء بي وقلبت حياتي للأبد بعدما سببت لي خللًا في الدماغ يخلق الهلاوس والأوهام، فصرت منبوذًا من الجميع من يومها، والأكثر إيلامًا في القصة هو أنها لم تعتذر حتى، لم تحتضنني وتذرف دموعًا نادمة، الحقيقة الباردة التي تقبلتها مع الوقت هي أنها لم تحبنا يومًا ولم يعرف الحب طريقًا لقلبها المتحجر.

لم تُظهِر أمي بادرة رحمة واحدة حتى تجاه ابنها المريض، بل كانت تتقزز وتخجل وتغضب عندما تأتيني الهلاوس أمام الغرباء فلا تقابلني إلا بالمزيد من الضرب والحبس، مُعاقِبة إيَّاي على ذنبها الذي ارتكبته، قضيت السواد الأعظم من طفولتي وحيدًا، طفل لا يعرف سوى البكاء نشاطًا ومتنفسًا، فبينما كان يذهب الأطفال إلى المدرسة أو للعب كانت تتركني حبيس الظلام في حظيرة تفيض برائحة الفضلات والحيوانات النافقة عقابًا على رؤيتي لشياطين ووحوش من صنع عقلي المصاب، لا أملك إلا مواجهتها بالصراخ والبكاء.

علمتني السيدة چود وأكدت لي أودري أن النساء عمومًا مخلوقات وضيعة، فخاخ متحركة لاصطياد وتعذيب الرجال، أما أحقر النسوة وأدناهم فهن مواليد برج العذراء؛ أمي، وخطيبتي السابقة، وكل من احتوى جسدها تلك الروح النجسة. بعد عمرٍ من كُفري بالأبراج وفي لحظة وحي وتجلٍّ اكتشفت أنني ومنذ ميلادي يطاردني هذا العذراء بلا دافع سوى رغبة في تعذيبي، في هيئة أم تدمر عقلي ثم خطيبة تهجرني بسبب مرضي وفقري.

والآن، وبعد كل تلك السلسة المؤسفة من الأحداث، ها أنا في غرفتي المتواضعة منتصرًا، بفخر أغسل يدي ثم أمسحها في جذعي العاري، بكل تأكيد أنا أستحق راحة، ولكن ليس

الآن. تحين مني نظرة للسماء فأرى نجوم العذراء تلمع في كآبةٍ، في حزنٍ، تتحرك فتُشكّلِ وجه أودري وتترجاني أن أتوقَّف، تتحرك مجددًا لتُشكّلِ وجه أمي الكريه صارخة فيَّ كعادتها أن أطيعها، اِذهبن للجحيم ... لا راحة سوى بعد الليلة الرابعة، بعد الضحية الثانية عشر، هكذا خططتُ، وهكذا تسير خطتي في طريقها الصحيح.

ها (إنجيل الأبراج) على السرير، مرشدي ومصباحي، ألتقطُه ثم أفتحه على افتتاحية سفر (كوكبة الحمل)، وعلى الصفحة المقابلة للسفر أتأمل رسمة كبيرة لكوكبة الحمل، صورتي البدائية الأولى، أربع نجوم تُشكلني وتمثل روحي، بهدوء أقلب الصفحات وصولًا لسفر (كوكبة العذراء) الذي يعرض رسمة لنجوم الكوكبة، أمد يدي في جيب سروالي القماشي وأخرج ورقة بالية تم طيُّها وفتحها مئات المرات، وعليها مرسوم بخط يدي خريطة مصغرة للإسكندرية، أفردها أمام لهب شمعة تذوب على الخزانة فيكشف الضوء المزيد من تفاصيل الخريطة المرسومة، وبوضوحٍ أرى أماكن جرائمي السابقة حيث وضعت حرف (X) مكان كل جريمة، أقارن بين أماكن الجرائم وبين الرسمة في الكتاب و... اختفت الرؤية.

لمسة مذعورة على كتفي كانت كفيلة لطردي منها، فوجدتني مطروحًا على أرض الواقع، ألهث في العُلية الرمادية، أمامي اليونانية العجوز وقد غالبها الذعر مع حارس المنزل الضخم ومومس أخرى لا يفهمون ما يحدث، ولكن لا يهم، أعتقد أنني وجدت الإجابة!

***

أجري وأجري وأجري، فتتوسَّل رئتاي طلبًا لهدنة، ولكن لا وقت.

في الشوارع الخالية الميتة أخذت أركض كالمجنون قاطعًا المسافة حتى عمارة ميرتل، يلطمني الهواء البارد ويدفعني للخلف لكني أواصل ولا أبالي بشيءٍ، فأخيرًا اكتملت الصورة وفهمت، دقَّ قلبي طربًا، ثم دقَّ ذعرًا ويأسًا، فالوقت يركض ويسابقني كعداء أوليمبي، والسكون المقبض في كل مكان هنا، الإسكندرية الآن مدينة أشباح، لا حركة ولا صوت ولا نفس، حتى الحيوانات والحشرات اختفت ومكثت في جحورها.

ولا أعلم كم من الزمن والمسافة قطعت حتى أبلغ العمارة، ولكني وصلت، وصار البناء المميز على بُعد خطوات، أخيرًا، أردت بشدة السقوط على الأرض وابتلاع ما استطعت من الهواء لكن الوقت لم يكن أبدًا حليفًا، فاندفعت داخل شقة بنيامين دون أن أدق الباب، دفعته بكتفي فانفتح وصوب غرفة ميرتل دخلت كالمحموم أفتش عن كتاب كُحلي كُتب عليه العنوان بخطوط من ذهب، إنجيل الأبراج الذي أهداه جاك لميرتل، كنت قد رأيته هنا من قبل في أثناء بحثي في متعلقاتها، وسط ملابسها وجدته أخيرًا، فقلبت صفحاته بسرعة حتى أتأكد من وجود الصفحة التي فتحها جاك في الرؤية، ثم انطلقت للحكمدارية.

بأسرع ما أمكنني عدت لغرفة الاجتماعات التي جلس فيها الباقون من أفراد الفرقة يغطيهم شيء من التراخي، فكان بعضهم نائمًا على الأرائك والبعض الآخر يلعب الورق أو يدخّن، وفي دخولي المفاجئ التفتوا إليَّ مستغربين وأنا أنطق بكلامٍ غير مُرتب طمس الملهاث ملامحه، فهدأت قليلًا حتى تمكنت من التقاط أنفاسي وبدونٍ أن أخبرهم بالمزيد فتحت الكتاب وأخذت قلمًا، وعلى خريطة الإسكندرية الكبيرة التي تحتل أحد الحوائط شرعت أرسم علامات (X) في مكان كل جريمة تم ارتكابها.

تسع علامات رسمتها على الخريطة ثم وصلتها ببعضها البعض فبدأ يظهر شكل كبير الشبه بالرسمة التي تحتل الصفحة، والتي كُتب تحتها (الرسمة الأصلية لنجوم كوكبة العذراء).

أخذت نظريتي تتأكَّد ومعها تتسع عيناي ويخفق اليقين بداخل صدري؛ في المرتين (قبل أثر

اليعسوب وبعده) قتل جاك ضحاياه الـ(12) في ترتيب يتشابه مع شكل كوكبة العذراء الأصلي، لكن في كل مرة رسمها في اتجاه مختلف!

تراصت النقاط التسع أمامي وفهمت، هو يقتل العذراء بـ(12) طعنة حتى تتلقى في كل نجمة من نجومها طعنة، والرسمة أمامي على الخريطة كانت رسمة ناقصة لكوكبة ناقصة، تفتقد لأماكن النقاط الثلاث الأخيرة، نقاط من المفترض أن تضاف بعد دقائق ليكتمل هذا الشكل، وهنا برزت مشكلة صغيرة: فالجزء الأخير من شكل كوكبة العذراء لن يكتمل في رأس التين كما قال الجواب، ولكن في حدائق المنتزه، لقد تلاعب بنا كما فكَّر حسن!

سألني أحد الضباط مجددًا عمَّا أفعل فلم أرد ولم تصدر عني أي حركة، فقط وضعت كلتا يدي فوق رأسي عندما ألجمني الرعب، فكرت في أن أخبرهم ولكن لن يعود هذا بفائدة سوى فتح وابل من الأسئلة المتشككة أو المستخفة، معظمهم نائم تمكَّن منه الدفء، أو خائف من الخطر المتجول بالخارج، أو غير مستعد لتلقي الأوامر من أفندي غريب لا رتبة له، ولكني رغم شكوكي قلت بصوت كتمه الخوف: «السَّفَّاح ضحك علينا، هيقتل في المنتزه!».

«وكيف عرفت أيها العبقري؟».

«هل أنت متأكد من هذا الكلام!».

«نحن نأخذ معلوماتنا من هاريسون باشا».

وكما توقعت، تراوحت ردود أفعالهم بين الاستخفاف والقلق الكسول، أخبرتهم وأقسمت بأغلظ الأيمان أنني متأكد فقام البعض منهم متحسسًا مسدسه أو واضعًا إياه في حزامه، وأطفأ آخر لفافة تبغه دافنًا إياها في منفضة نحاسية، ثم قال ضابط منهم أعرفه بشكلٍ سطحي: «علينا أن نصبر حتى نُبلغ هاريسون باشا عن طريق الترانك، لا يصح أن نتصرف من تلقاء أنفسنا في أوقات كتلك».

هل أنتم حمقى؟! صرخت بالكلمات في عصبية، الصبر رفاهية غاية في السخف الآن، الصبر سفَّاح آخر سيجر معه أذيال الدم والجثث، الصبر موتٌ متنكِّر لن أقبل به، لن أسمح للبيروقراطية بقتلي أنا وميرتل، ركلت أحد الكراسي غضبًا ثم واصلت صُراخي بهم أنه لا يوجد وقت لتلك الإجراءات المترهلة وأن طلب المغفرة من هاريسون بالتأكيد أفضل من

الندم على موت الشابات، فاقترب مني بكباشي آخر مصري وقال ببرود: «احترم يا أفندي رجال القانون اللي انت واقف قدامهم، لو معاك دليل اتفضل اعرضه علينا بدل الكلام المُرسل بدل ما احبسك». لا مزيد من التوسُّل إذن، فلتلعنكم السماء واحدًا تلو الآخر.

على قدمي دُرت ثم أطلقت لها العنان ناهبًا الممرات والسلالم، من جديد رحت أجري في الشوارع الخالية لكن هذه المرة صوب المنتزه حيث سيكتمل رمز العذراء، لا يشغل عقلي سوى الصورة الفوتوغرافية لميرتل المقتولة التي تزيدني إصرارًا وتملأني هلعًا فأجري جريًا ملسوعًا، أقطع بأقصى سرعة بحر الصمت الراسخ في الشوارع ومع كل شهقة أشهقها يخدش هواء الليل البارد رئتيَّ فيكاد يمزقها، أتأمل القمر المعلَّق بالأعلى وأتوسَّل إليه أن يرشدني للجريمة موشكة الحدوث في نوره وتحت ناظريه: دِلني في خيوطك الفضية، قدِّم لي معروفًا لن أنساه لك ما حييت.

ثم صعقني إحساس مفاجئ بالوحدة كما لم أشعر بها من قبل، وحدة حادة، متوحشة، تمزقني بأياديها العارية، شعرت بها تتغلغل بين كل شبر من جسدي عندما أدركت كم أنا وحيد في المدينة النائمة، فلا مخلوق يتنفس في الجوار ولا صديق يركض بجانبي، الكون كله ساكن يراقبني بعينيه الناعستين، الشبابيك مغلقة والأبواب مسدودة وأعدائي كُثر ويتزايدون، وحتى جسدي ثار وانقلب عليَّ وصار يبث في أطرافه آلامًا حادة ليجبرني على الاستسلام فتوقفت عن الركض، أخذت ألهث وفي صدري نيران ثاقبة، وانتابتني رغبة مفاجئة في البكاء عندما غلبتني الوحدة.

ولكني مقاومًا أخذت شهيقًا ثم واصلت الجري، للقمر المهيب الراسخ في السماء علقت بصري، أقطع شوارع وحواري، تمر بي تماثيل وأشجار وأسيجة، يخترق الألم باطن قدمي ويدق مساميرَ في صدري فأقول لنفسي كاذبًا إنني اقتربت وإنني قطعت شوطًا طويلًا، رغم عدم ظهور أي بوادر لأتشبث بها، أصعد طرقًا وأهبطها وأتعثر، ينشع عرق ساخن على جبهتي وتلطمه الرياح الباردة فأسعل، بدت لي حدائق المنتزه الآن في أقصى الجانب الآخر من الكرة الأرضية، لا تقترب ولا تظهر مهما جريت وعدوت، ثم أخيرًا، بدأ العمران في الانحسار وظهرت نقاط سوداء بعيدة في الضوء الفضي، هذه هي أشجار المنتزه.

ولا أدري هل نزلت الهالوس برأسي أم كان هذا هو الواقع بالفعل، ولكني رأيت المنتزه يجري تجاهي هو الآخر، تقبل عليَّ أشجاره مسرعة في الاتجاه المعاكس فتتضح ملامحها بالتدريج من جذوع وأفرع وحشائش مطلية بظلال فضية، بين تقاطعات تلك الغابة حيث موجود، بجوار صخرة ما أو في ظلال شجرة ضخمة هو يقف مستعدًّا لذبح خلاصي، هو هنا والصداع الذي سرح في جبهتي يؤكد شكوكي ويختمها.

ما أن عبرت حدود الغابة المظلمة تلفتُّ حولي لاهثًا، وضعت يدي على صدغي محاولًا احتواء الصداع الذي يتزايد متلاطمًا في رأسي، وضيَّقتُ عيني بحثًا عنه، ولكن لم يكن هناك سوى حفيف الأشجار وزقزقة صراصير الليل. لم أكن أملك خطة؛ لذا رحت ارتجل الاتجاهات والقرارات بسرعة الزمن، بخطوات متوترة أسير على فراش الأوراق الجافة المتساقطة كاسرًا السكون، حتى رأيته من بعيد، في مرج من الحشائش القصيرة مغمورًا بنور القمر رأيته، مع شابة أعرفها جيدًا ملقاة في حضنه تعانقه، ولم أحتج لذكاءٍ خارقٍ لأعلم أن يده الخفية ستخرج خنجرًا الآن.

***

- 32-

«چاك!»

من حلقي انفجرت الكلمة في صرخة عالية محمَّلة بشحنة من المشاعر، صرخة حطمت مفاهيم الصوت والمسافة والزمن، بل لثانية تجاوزتهم لتملأ كل الكون من حولنا وتستولي على تفاصيله، قبل أن تحين اللحظة التي انتظرتها وصورتها في رأسي مرارًا؛ النظرة الأولى الواضحة في وجه شيطاني الرجيم.

كانت كما توقعت، مظلمة مقبضة، انتصب لها شعر جسدي كله وعلى عمودي الفقري سرت كهرباء، ورغم طمس ظلال قبعته لبعض ملامحه لكني شعرت بها من مكاني كريهة ملتوية تتوعدني بالجحيم نفسه عندما أفلت ميرتل لتتعثر وتسقط أرضًا، ثم خطا ناحيتي خطوات متمهلة.

وقفنا على مسافة ليست بالقريبة ولا بالبعيدة عن بعضنا، وبيننا يفصل جسد ميرتل الساقطة أرضًا، التي أدرَكَت في شيءٍ من البطء ما يحدث، وأن الذي كانت تتوسَّد حضنه منذ لحظات هو سفَّاح العذارى بعينه، فتراجَعَت زاحفةً في صدمة. أما هو، فكان يتنفَّس ببطءٍ وبصوت مسموعٍ لم تنافسه سوى أصوات الليل، كان يفتش عن الكلمات المناسبة ليقولها، بطريقة ما هو يعرفني، ربما أصابه إحساس أو حدس أو رؤية، لا أعرف سوى أنه كان يعرفني وكوَّن عني من قبل صورة، حتى لو كانت مشوهة.

«ماذا تريد؟»

قالها بصوتٍ خشنٍ وكئيبٍ يختلف عني كلية فلا يظن السامع أبدًا أننا نفس الإنسان، وقبل أن أنطق لفت نظري لمعان يشع من يده اليسرى، حيث كانت أصابعه تقبض بشدة على خنجر يبرق عاكسًا ضوء القمر، مِمَّا اقترح بوضوحٍ أنه سيلجأ لطريق الأفعال بدلًا من حواري الحوار، هذا غير قناع حديدي له شكلٌ غريبٌ ويتدلى من ذات اليد أيضًا. عند ظهور الخنجر سمعت بكاءً مكتومًا يتصاعد من ميرتل الملقاة أرضًا، والتي غطَّت فمها بكلتا يديها ومن

عيونها فاضت دموع مصدومة، فابتلعت ريقي وحاولت السيطرة على صوتي ثم قلت بهدوء: «هل تعرفني؟»

ـ لا أعرف، أشعر بك كأنك قريب لم أره منذ زمن، أو حلم قديم ...

ـ أنا ...

تلعثمت وتلجلج لساني الذي بحث عن تفسير منطقي للموقف، لكنه ـ چاك ـ شاكرًا أخذ على عاتقه مواصلة المشهد المسرحي وقال: «تبدو لي كـ ... ذيلي، وكأنني تغوَّطتك، تبدو لي كجلدٍ قديمٍ تخلصت منه وتجددت مثلما يفعل الثعبان».

ـ نوعًا ما، أنا أنت.

كان بإمكاني سماع صوت ضربات قلبي المتسارعة، عالية في أذني تغطي على كل شيء آخر بل وتشوّش على حواسي فلم يصلني من النسيم المالح ولا من هدير الأمواج البعيدة سوى القليل ... هل سيهاجمني؟ أم سيهرب؟ أم سيقتل ميرتل أولًا قبل كل شيء؟ في كسور من الثوان تخشَّب الزمن وجمع عقلي كل الاحتمالات ثم فحصها في آنٍ واحدٍ، لكن كان من الصعب استنباط معلومة واحدة في هذا الضوء الشاحب، فتجمدتُ ولم أقدم على فعل أي شيءٍ حتى رفع هو رأسه ناظرًا إلى السماء لتنكشف ملامحه أخيرًا: كان يشبهني في كل شيء ويختلف عني تمامًا، كلوحة «بورتريه» لوجهي لطَّخها أحدهم ببعض ضربات الفرشاة العشوائية فتشوَّهت، فكان يرتدي عوينات دائرية، له سوالف طويلة وخصلات شعر تنساب ناعمة على جبهته من أسفل القبعة، وفي رقبته يسكن جرح طولي أحفظ شكله ومنحنياته جيدًا.

ولم أفهم سر النظرة التي صوبها للسماء ولا البسمة الساخرة التي تلتها إلا حين قال وهو يتناقل السكين من يد ليد كقطاع الطرق: «هم من أرسلوك إذن؟» محركًا رأسه لأعلى حركة ذات مغزى، فسألته وقد أخذت قدماي في التراجع لا إراديًا: «ماذا تقصد؟»، ولكني كنت أعلم ماذا يقصد، رغم تباعد الأزمنة والتجارب فأنا دخلت رأسه مرارًا وجلست خلف مقود السائق؛ لهذا لم يكن من العسير إطلاقًا فهم ما يرمي إليه: هو يتوهمني مخلوقًا سماويًّا أتى من وراء النجوم ومُرسلًا منها لإيقافه عن مهمته النبيلة، هو يظنني كومة من الغبار النجمي متخذة شكله حتى أقتله وأستبدله في هدوء.

ومخلوق قادم من السماء يجب أن يكون مرعبًا، له قوى تفوق الخيال ويستطيع القيام بأي شيء ما دام خياله ـ چاك ـ بلا سقف، إذن هو يخاف مني أكثر مما أخاف منه! قررت استغلال الفكرة لصالحي فأخذت خطوات معدودة تجاهه، وتدفَّق الحماس في أوردتي عندما قابلها هو بخطوات أسرع للخلف، خطوات أيقنت معها أنه إنسان مثلي من لحمٍ ودمٍ وخوف. بحماس أسرعت من خطواتي فاستدار للخلف، ثم تحوَّل صراع النظرات لسباقٍ راكض عبر غابة المنتزه، هو خائف الآن، هو ليس شيطانًا، هو بشري ضعيف يتشبث بالحياة ويخاف أن يذوقَ جسده الموت.

صرت أعدو خلفه بين الأشجار الطويلة وعبر الفواصل التي يتخلَّلُها ضوء القمر، تدريجيًّا شعرت بقوة التحول من الفريسة للصياد تعتريني لتقودني وتعبِّد الطريق أمامي بلا خوف إلا خوف هروبه مني، فوحدت كل تركيزي وطاقتي في قدميَّ وتحولت لآلة لا تجيد سوى الجري، حتى خرجنا راكضين من غابة المنتزه إلى شاطئ واسع امتدت رماله لمسافة كبيرة، ومن خلفه كان السواد اللامع الأبدي للبحر يمتد كهوة سحيقة.

بطول الشاطئ الرملي راح يجري هربًا، بلا توقُّف ولا هوادة كان يركض وكأن رئتيه تنتجان هواءً خاصًّ بهما وعضلاته مصنوعة من الفولاذ، ولما لم أستطع مجاراته بدأ التعب ينال مني وأخذت المسافة تتسع، فكاد يهرب تمامًا، إلا أنه توقَّف فجأة واستدار مواجهًا إيَّاي، ثم اقترب مني في بطءٍ، لاهثًا بَصَقَ على الأرض، خار خوارًا كالثور وعلى وجهه ارتسمت نظرة تحدٍّ، فالمخلوق الكوني الذي يطارده لا يستطيع أن يجاريه، هي خدعة إذن لم تنطلي عليه إلا لبعض الدقائق، فظهرت على وجهه أمارات الفهم والسخرية، وبزمجرة وحشية أعلن انقلاب المطاردة من جديد وتبادل الأماكن بين المطارِد والمطارَد.

ولم أعرف وقتها ماذا يجب عليَّ أن أفعل بين الهجوم أو الهروب، لكنني عرفت أن عليَّ التحلي بالخوف، من الشرار المتقد في نظراته، ومن الحشرجة التي صدرت عن حلقه بصوت أقرب لصوتِ حيوانٍ مفترسٍ يبتلع صيدًا سمينًا ويمضغه لحمًا وعظمًا، وقبل أن أتخذ قرارًا لمعت سكينه الحادة في السماء القاتمة عندما رفعها، ارتفعت عاليًا ليس لغرض إلا قتلي، وها هي تقترب مع خطوات صاحبها الحيوانية السريعة الذي انقضَّ عليَّ بطعنة، فلم يكن مني

إلا أنني تفاديتها بميلة لليسار اختلَّ توازني على إثرها وسقطت على الرمال الخشنة، ولكني نجحت على كل حال، فطعن هو الهواء وترنح للأمام.

ولأن الوقت لم يكن أبدًا حليفًا، فما أن سقطت وقفت مترنحًا واستعدت توازني بأقصى سرعة، ثم استدرت وشرعت أجري بقلب يدق رعبًا، كنت أشعر به يلاحقني، أسمع صوته واضحًا خلفي وهو يطاردني، مسرعًا لاهثًا كذئبٍ جائعٍ، يعتزم ذبحي لتضييعي ليلته وإفساد خطته، ثم عندما لفحت أنفاسه الحارة رقبتي أدركت اقترابه الشديد مني، وسمعت صوت الخنجر يشق ستار الهواء مرة أخرى، فألقيت بجسدي على الرمال الرطبة المبللة يميني متفاديًا الطعنة، ولكني شعرت بخطٍّ من الألم الحاد ينفجر في جنبي الأيسر، فصرخت وأنا أسقط على الأرض اللينة بعد الطعنة السطحية التي طالتني.

ورغم ألم الطعنة التفتُّ سريعًا في رعبٍ، غير مُحرَّكٍ إلا بفكرة أن الموت أقرب الآن من أي وقت مضى، بل إنه بالفعل قد وضع أصابعه في جانبي الأيسر بحميمية ليصحبني بعيدًا، ثم رأيته يهوي بسكينه حيث قلبي بالضبط، فاستيقظت غريزة البقاء بداخلي واستولت على عضلاتي، وبقدمي ركلت معصم يده الهابطة فوقي فطار خنجره وأمسك برسغه متألمًا، فجعلت أزحف للخلف محمومًا، تنغمس أصابعي في ذيول الأمواج، وللحظات قصيرة راح يبحث عن خنجره وسط الرمال، فقمت مستغلًّا تلك الثواني الثمينة وركضت مبتعدًا.

كنا متاخمين لأطراف شاطئ صخري، تلمع صخوره القاسية بماء الموج ويرتفع حوالي نصف متر عن شاطئنا الرملي، فتسلقته عندما واتتني فكرة تغيير حلبة القتال لأخرى بقواعد جديدة: لو كانت قدراته في الظروف الطبيعية تفوقني فلما لا أنقل الصراع لحلبة عشوائية غير منتظمة تجعلنا متعادلين، وليربح ذو الرغبة الأقوى في البقاء إذن.وكأن الطعنة الحارقة قد فتحت أعيني أو أزالت قشرة ما، كساني شعورٌ جديدٌ وحقن أعصابي، تحررت من الخوف وأوزاره وغيَّرت قراري، لن أجري من چاك ولن أفر، إنه قدري وشيطاني، ولن ينتهي هذا الكابوس إلا بمواجهته، التفتُّ خلفي فوجدته قد تسلَّق الصخور، وبسرعة حيوان بريٍّ هجم عليَّ هجمة أخرى مطوحًا خنجره، لكني عاجلته بلكمة مفاجئة على صدغة رجَّته رجًا ليهرب الخنجر من يده ويسقط بين الصخور، ثم مستغلًّا لعدم توازنه ركلت قصبة ساقه فانحنى في ألم أغراني أن أمسك بتلابيبه وأصرخ فيه، ولكن قبل أن أبدأ صرختي حتى انهالت على جبهتي

ضربة ثقيلة من رأسه هدَّت العالم من حولي وبثَّت فيه ألمًا وظلامًا، فتهاويت على الصخور القاسية التي غرست المزيد من الألم في عظام ظهري.

من بين ظلام الرؤية شعرت به يجثم فوق مني وبكلتا يديه يمسك وجهي، يعجنه ويعتصر فكي وملامحي بينما يتمتم بهمسات غير مفهومة وضحكات مجنونة، ثم أخذ يخمش وجهي ويخربشه بأظافر حيوانية قذرة فأُجبِرت عيناي على الانفتاح، لكنه قابلني بفيض آخر من الألم عندما دقَّت قبضته وجهي فشعرت معها بجمجمتي ترتج، دار العالم قليلًا وخفَّ وزني، أحسست بجسدي يتدلَّى من على حافة الوعي فجاهدت للتركيز، ثم تنبهت كل حواسي عندما لمحت ما هو موشك على فعله، ففي يده كان القناع المعدني الذي رأيته سلفًا، كان عازمًا على تلبيسي إياه، فاتضح لي جانب آخر من الحقيقة: بداخل القناع مجموعة من الشفرات الحادة المُصمَّمة بعبقرية حتى تسلخ الوجه بسلاسة مع انتزاعه، هكذا يسلخ ملامح الفتيات في ثوانٍ، هكذا فهمت في رعبٍ وهو يهوي بآلته الجهنمية على وجهي.

وبدون تفكير قابلت القناع بلكمة هوجاء من قبضتي، فانغرست فيها الشفرات الحادة مولدة ألمًا بشعًا كجمرات من النار، لكنها نجحت في منعه من غرضه، ثم استجمعت كل ما تبقَّى من قوة في خلاياي ودفعت هذا المسخ للخلف بقدمين تموضعتا على صدره فطار وسقط على حافة الشاطئ الصخري حيث اصطدمت رأسه بالصخر ثم تدلَّت فوق الماء.

بهمجية قمت على أطرافي الأربع، وبخطوتين أو ثلاث انكفأت فوقه حيث انطرح، وقبل أي شيء وضعت القناع الملعون في جيب سترتي حتى أتقي شره، ثم جذبت شعره الطويل وصرخت فيه بكلام لا أذكره، غطست رأسه في الماء، دفنتها بعمق وكأنما أعمّده من ذنوبه وأتطهر من كل صلة لي به، غطسة طويلة عميقة كانت لتفرقع رئته لو كان بشريًّا، لكني سمعت سعاله البائس المتحشرج وشهيقه طلبًا الهواء عندما أخرجت رأسه، ما زال حيًّا رغم حالته المزرية.

تدريجيًّا شعرت بطاقة الغضب تفارقني، تلاشى هواؤها من داخل صدري عندما خمد خوفي وانقشع ضبابه: أنا لا أريد قتله، أنا لست بقاتل حتى لهذا الشيطان، كل ما أريده هو إيقافه وهزيمته، وهو ما نجحت فيه؛ لذا طرحت رأسه على الصخور وبصعوبة قُمت بينما أسمع صوته يتحشرج ويتشنج كسمكة على شاطئ جافٍّ، حتى اختفى الصوت، أخذت شهيقًا وتأملت

يدي في ضوء القمر وقد لمع عليها سائل لزج، فلم أدرك إن كانت تلك هي دماء يدي المثخنة بالجراح أم دماء رأسه التي انفتحت.

المشهد الآن ثابت، هادئ، كمقطوعة أوبرالية ارتفعت نوتاتها وتشابكت آلاتها في صراع كريشندو ثم خفتت فجأة فلم يبقَ سوى البيانو ليعزف نوتاته الرزينة، تنهيدة حارة خرجت من صدري وأنا أتأمل چاك المغشي عليه، داهمني شعور مفاجئ بالراحة أسهم فيه قمر السماء اللامع، سحرني نوره المصبوب على صفحة البحر الذي رسم طريقًا فضيًّا ممتدًا للأفق، تتبعه بصري مسحورًا به وبفكرة أنني قد أديت مهمتي، في أفكاري غُصتُ، منتشيًا بنصرٍ سريعٍ وقمرٍ مكتملٍ، لكن دون إنذار فوجئت بكل شيء يختل دفعة واحدة.

قوة ما اقتلعتني من مكاني وألقت بي خارج نطاق بصري لتطرحني من أعلى الصخور إلى الشاطئ الرملي، في منطقة الماء الضحل الذي لا يكاد يصل طوله للركبة، فاصطدم جسدي بالأرض وغاص في ماء بارد، كان هذا چاك الذي استغلَّ لحظات اعتقادي بأنه فقد وعيه، فقام من رقدته وقفز معانقًا إيَّاي عناقًا مؤذيًا طرحنا معًا للأسفل، وكانت المفاجأة غادرة فغمرتني تمامًا كالماء الذي سقطت بداخله ليقتحم أذني وعيني، ويتدافع لرئتي كقوات احتلال.

كنوع من الدفاع الأعمى عن النفس أخذت أشيح بحركات عشوائية متلهفة، حتى نجحت في الخروج مسرعًا من تحت الماء، ثم انكشفت رؤيتي فنظرته واقفًا هو الآخر لكنه كان مستعدًّا تمامًا، فما كدت أقوم حتى باغتني بلكمة أخرى أطاحت بجسدي ليرتطم بالماء مجددًا، وبفعل غطسة أخرى انقطع عني الهواء مع الرؤية، لكني قمت مسرعًا، لا يحكمني إلا الخوف.

ثم اشتبكنا في قتالٍ بالأيدي كحيوانات الغابة، كجودزيلا وكينج كونج يحاول كل مِنَّا إسقاط الآخر في عرض البحر، الآن كنت قريبًا منه أكثر من أي مرة فرأيت وجهه الكريه بوضوح رغم خصلات الشعر المبللة الملتصقة بوجهه، فكان خبيثًا كذنبٍ، عفِنًا كجثةٍ نافقةٍ، كان كل ما أخاف وكل ما أكره، ورغم إعيائه ونزيف رأسه كان يبتسم في شرٍّ مطلقٍ متحمسًا كأنه نبتة زُرعت في أفضل تربة لها، فقال بهمسٍ من بين لهاثه الكريه، أثناء اشتباكنا فيما يشبه المصارعة الرومانية: «بعد ما أذبحك، سآكل قلبك مع بعض الجعة»، ولا أدري لما ذا

أغضبني ما قال إلى هذا الحد حتى تتدفقَ في عروقي المنهكة دفعة هائلة من الغضب منحتني القوة اللازمة لدفعه بعيدًا، ثم بكل الغِل المتقد في أحشائي قابلته بلكمة من يمناي تلتها لكمة من يدي اليسرى فتداعى ساقطًا في الماء الضحل.

تفتَّقت عن صدري صرخة مدوية وأنا أجلس أعلى منه، أخذت أصرخ وأصرخ بينما يداي تكيل له اللكمة تلو الأخرى، فترتطم لكماتي بوجهه وبصفحة البحر، مع كل ذكرى ألمٍ أو توهانٍ كنت ألكمه لكمةً، بطول رحلتي الطويلة وعرض معاناتي كنت أدكُّ وجهه، لكمْتُه على ذنوبه وذنوبي، سحقت ملامحه عقابًا على كل إخفاقاتي السابقة، حتى ابيضَّت صحيفة ذنوبي تمامًا وفرغ صدري من الهواء، فتوقفت لاهثًا لثوانٍ أستجمع هواءً وغضبًا، ولكنها كانت ثوانٍ كافية لينقلب ميزان القوى مرة أخرى.

انشقَّ فخذي بألمٍ بشعٍ يخترق الجلد واللحم ويكاد يصل العظام، بخنجرٍ صغيرٍ أخرجه من جيب سرواله طعنَ فخذي ولفَّ النصل فشعرت بشُهُبٍ ونيازكَ تخترق أعصابي، وكأنَّ الكون كله انفجر في فخذي، صرخت وسقطت وتبادلنا الأماكن بين راكب ومركوب، انتزع سكينه الصغير من لحمي ثم وقف أعلى مني وحدَّق فيَّ ببرود للحظات، ورغم وجهه الدامي المتورِّم كان مهيبًا كالموت فلم أملك أمامه إلا الزحف للخلف كصرصور، في محاولة فاشلة للخروج من الماء للشاطئ، فأخذ يخطو تجاهي بخطوات بطيئة باردة، هي خطوات القدر متجسدة في إنسان، حتى بلغني أخيرًا وهوى بخنجره على رقبتي، ثم حدث كل شيء بسرعة.

حين مال ناحيتي بالخنجر، كنت أستند إلى الأرض بيسراي، وكانت يمناي قابضة على قناعه الذي انتزعته من جيب سترتي، وفي المنتصف تقابلنا، مَيْلَتُه مع قِيَامي، هجومُه مع دِفَاعي، وجهه مع القناع الذي دفعت به أمامي بكل ما أوتيت من قوة وسرعة، فكانت يدي أسرع من خنجره الذي خدش رقبتي خدشًا سطحيًّا، أما القناع فاحتوى وجهه وضمه وكأنما يعرف طريقه جيدًا أو صُمِّم خصيصًا لهذا الغرض، وقبل أن يدرك حتى ما حدث انتزعت القناع من على وجهه بسرعة، كما وضعته، فانسلخ جلده مع القناع بسلاسة شيطانية فجرت من صدره صرخة ربما هي أشنع ما سمعت في حياتي، صرخة كانت بمثابة اللمسة المثالية لهذا المشهد الذي بدا كلوحة قوطية بشعة بكل مكوناته؛ الليل الأسود، والبحر، والنجوم، ووجهه المسلوخ بعضلاته وأعصابه ودمائه، وصرخته الجهورية التي تلوَّنت بكل معاني الألم والرعب، سقط

على ظهره وسط الماء الضحل يتحسس بجنون وجهه النابض بصواعق من النيران المستعرة، وتداعيت أنا أيضًا.

لبسني ضعف مفاجئ، تنميل في كل جسدي صاحبه دوار شديد أعلن كلٌّ هذا بصراحة أن جراحي المتعددة تطالبني بسداد ديوني من صبرٍ وتحمُّلٍ في معركة متعبة، فكل هذا الكم من الدماء النازفة من جروحي سحب أي أثر لقوة باقية في جسدي، وأتى الإعلان عنها وقحًا رسميًّا على شكل دفعة قاسية من الألم والإعياء، بوهن حاولت التشبث بوعيي وبالعالم من حولي، ترنَّحتُ باذلًا جهدًا إضافيًّا لأقف لكن جذبتني قوة خفية فسقطتُ أرضًا في الماء الضحل أنا أيضًا.

لدقائق طويلة ممتدة لم ترَ عيناي سوى سقف السماء الأسود ولآلئه البيضاء، أعلى مني كان الليل يغطي بصري ويغلف الكون وكأنه كفنٌ فاخرٌ، بينما أصوات الأمواج الهادرة المنتظمة هي كل ما أسمع من داخل وعيي الذي تخبَّط في ظلامٍ يزحفُ متلصّصًا على أفكاري، الشيء الوحيد الذي أبقاني واعيًا كان الألم المتفرق في أنحاء جسدي، وجروحي التي تزداد وجعًا والتهابًا مع كل هجمة من هجمات الموج المالحة.

ثم سمعت چاك يسعل في قوة، فسعلت أنا الآخر وكأنني احتجت للتذكير باحتياجي له، وخرج مني السؤال المُلحُّ منذ ليلة الجوابات، بضعفٍ: «لماذا تفعلها؟» ولدهشتي فوجئت أنه سمعني، بل وأجابني قائلًا بصوتٍ منتحبٍ: «كانت اللحظات الوحيدة التي أشعر فيها بأنني لست وضيعًا، بأنني رجل، بأنني حي». فقلت: «لحظات حياتك كانت تحوّل حياة أناسٍ لا ذنبَ لهم إلى جحيم».

ـ كانت حياتي جحيمًا منذ يوم ولدت ولم يحرّك أحدهم ساكنًا ...

ـ معاناتك ليست عذرًا ...

ـ وماذا تعرف أنت عن معاناتي؟

ـ أعرف كل شيء.

ـ لا تجرؤ أن تقارن نفسك بي.

ـ أنا لا أقارن يا چاك، أنا أنت.

سكت قليلًا وكأنَّما يحاول عقله الموشك على التلاشي في الغيبوبة استيعاب ما قلت، لكن أي شيطان هذا الذي يتكلَّم بوجهٍ مسلوخٍ! ولما لم يجد ما يمكن أن يقال، تحشرج صوته قائلًا: «فلتذهب إلى الجحيم، ألقاك على أبوابه بعد لحظات». فقلت ساعلًا: «لن تأخذني معك، ولن أموت ... لقد أوقفتك، لقد انتصرت».

وهنا تعالى صوت بكاؤه ليخالط هدير الأمواج، انتحب نحيبًا جريحًا تواصل فيما يشبه عواء كلب يموت، وكأنه رثاء لجسده الذي خذله فلم يستطع النهوض ومواصلة القتل، ورثاء لخطته التي فشلت.

في تلك اللحظة فقط علمت أنني انتصرت، رغم وعيي الذي كان يتبدَّد ويتلاشى ابتسمت ابتسامة خفيفة، رغم الماء البارد والموج الذي تلاعب قليلًا بجسدي وقذف الملح الملتهب في جروحي ملأتني سكينة النهاية، هل أموت؟ لو كان هذا هو الموت فهو أهون مما يقولون، دغدغة خفيفة تشبه النوم في سحرها وتجبرك على الاستسلام.

اسودت الرؤية تمامًا فلم يعد هناك سوى الأصوات من حولي، هدير الموج، والنحيب، وصرخات رجال تتسابق خطوات أقدامهم على الرمال.

***

- 33-

عادةً ما أبدأ الفصل الأخير من رواياتي بالطريقة الكلاسيكية: يستيقظ بطلنا في جناح بأحد المستشفيات، مُنهك القوى لكنه منتصر، يستعيد وعيه ببطء ثم تتلو عليه شخصية ثانوية الأحداث التي تلت إغمائه، طريقة آمنة لكن مضمونة لنهاية سعيدة وإغلاق خطوط الأحداث.

لهذا ابتسمت وأنا أستعيد وعيي عندما التقطت أنفي رائحة محلول كحولي دلتني على وجودي في مستشفى ما، وعلى الرغم من دوران محركات عقلي وتنبُّه حواسي لم أقوَ على فتح عيني أمام نور الصباح الواقف على أعتاب أجفاني، ولدقائق ظننت أنها الجنة متغاضيًا عن جراحي وآلام جسدي، فالفراش الوثير تحتي وزقزقات العصافير العذبة الآتية من النافذة، مع درجة حرارة الغرفة اللطيفة، كلها تصلح لمشهد افتتاحي في الفردوس. مرَّت بعقلي مشاهدٌ من ليلة أمس بكل قتاماتها وبرودها فأجفلت، ولامست أنفي رائحة شهية أجبرتني على التخلي عن عناق الظلام، فأضاءت عيناي بضوء الشمس وأخفيت وجهي خلف يمناي بشيءٍ من الضيق، ثم لمحت بنيامين يجلس على طرف سريري، يبتسم في حُنوٍّ وهو يربت على قدمي.

قال العجوز وهو يخرج غليونه من فمه: «الحمدلله، ماكنتش هسامح نفسي لو جرالك شيء». ولم أرد على مجاملته، بل قلت بصوتي المتآكل وبعينين ضيقتين تحاولان التأقلم على الضوء: «روحت فين امبارح؟». ولم يجبني إلا بابتسامة مرتبكة ولعثمة واضحة، ثم قال مغيِّرًا دفة الحديث وهو يمد بيده عربة طعام خشبية فخمة استقرَّ عليها إفطار من مربى وعسل ومخبوزات متنوعة: «قصدك من يومين ... اتفضل فطارك، إنت محتاج أكلة تمام».

ولم أمانع عزومته، اعتمدت على مرفقيَّ رغم آلامي وقد ألفِت عيناي الضوء واعتادته، استوعبت أني لست في مستشفى من أي نوع ولكني نائم في غرفة شاسعة تليق بقصر ملكي، أثاثها مطعَّم بالذهب وجدرانها مكدسة باللوحات الأصلية والنقوش، سألته مستغربًا وأنا أتناول قطعة الكرواسون من على المائدة بيد لفتها الأربطة والضمادات: «هو أنا فين؟». فقال مشيرًا بعصاه للنافذة الواسعة: «السلاملك».

ـ قصر المنتزه!

ـ هو بعينه، هاريسون أمر إنك تتعالج هنا عشان حالتك كانت مش ولا بد.

ـ والملك وافق؟

ـ مايعرفش، هاريسون هايشيل المسئولية كاملة.

ابتسمت، ربما للمفاجأة أو لشعوري بامتنانٍ عميقٍ تجاه هاريسون، مضغت طعامي في صمتٍ ثم سألت: «ميرتل عاملة إيه؟» فأجابني متنهدًا: «أعصابها تعبانة شوية، لكنها بخير ... أنا مش عارف أشكرك إزاي يا علاء».

ـ ماتشكرنيش، أنا كنت محتاج أعمل كده.

ـ ربنا ستر عشان إنت تستاهل ...

ـ چاك حصل له إيه؟

ـ مات ...

ـ مات!

تفاجأت وكأنني لم أسلخ وجهه بالأمس، ضممت شفتيَّ في أسًى على ميتته الشنيعة رغم كونها عقابًا مناسبًا، فشعرت بالحزن لكن لم أشعر بالذنب لقتله، فبعد كل شيء هو لم يكن بشريًّا، ولم يكن قتله سوى بمثابة التطهر، ثم سألت مجددًا عندما أردت أن أبعد الفكرة عن رأسي:

ـ مش هاتقول لي روحت فين إمبارح؟

سكت قليلًا ثم قال منكسًا رأسه: «كنت جنب كابينة السفر بفكر أرجع تاني أقبض عليه، بعد ما عرفنا عنوانه». فقلت رافعًا حاجبي: «وتغيَّر الزمن تاني! إنت عارف إن ده هيعمل مصيبة».

ـ الإنسان لما يفقد أعز ما يملك بيكون مستعد يخسر الكون كله ويلغبطه، بس يرجع اللي فقده تاني.

ـ قولت لي كده قبل كده.

ـ إيدي كانت بترتعش وأنا بجهز الكابينة، كنت بفكَّر ألف مرة، بصلي لربنا وبترجى القديسين إنهم ينقذوني.

ـ وإيه اللي منعك؟

ـ أنا، آآآآ ... بنيامين، بنيامين الأصلي رجع من زمنك، قلبه كان حاسس.

ـ هو هنا!

ـ واقف على باب الجناح، مستنيني أبلغك.

ثم انفتح الباب الكبير المطلَى بألوان الفستق والذهب، وظهر من خلفه بنيامين آخر، متهلل الأسارير باسمًا أقبل عليَّ بخطوات لا تتفق مع سنه وصحة ظهره، عانقني عناقًا خانقًا دافئًا وربت على ظهري مرات عديدة، أدفأتني الأبوية التي أشعَّت من عِناقه وهو يقول: «أنا كنت واثق إنك هتعمل كل ما في وسعك، وكنت عارف كمان إنه، بنيامين التاني يعني، إنه ممكن يعمل كده، يعمل كارثة جديدة في مسار الزمن».

فقلت بالكاد من بين عناقه الضاغط: «شوف مين بيتكلم» ثم ضحك ثلاثتنا، قليلًا أربكني مشهد النسختين من بنيامين يجوا ر بعضهما البعض ، متشابهان ظاهريًا لكن في باطنهما يختلفان كل الاختلاف، فقلت مازحًا وأنا أعد شطيرة من الخبز والمربى: «شكلكم اتصاحبتوا على بعض» . فأجابني بنيامين من الخط الزمني الحالي وقال: «عزمته على قهوة وسهرنا نتكلم، دايمًا بيكون إحساس غريب جدًّا أما تقابل نفسك، غريب لكن حماسي ... ده إحنا حتى لعبنا شطرنج». فسألتهم باسمًا أيهما ربح، وأجاب الآخر وهو يبرم شاربه مقهقهًا: «ماحدش كسب طبعًا».

تبادلنا الباقي من الحديث ثم تركاني أكمل إفطاري في سلام وهما يتجادلان حول نظرية علمية ما قاد إليها الحديث، فتجولت ببصري في الجناح الفخم الذي كان مغريًا إلى حدٍّ دفعني لتجاهل آلام فخذي وجانبي الأيسر واكتشاف الجناح ثم باقي القصر على عكاز، فراحة انتهاء المهمة ملأتني بخفة لا توصف.

أمضيت بالسلاملك نهارًا هادئًا، وعندما حلَّ الغروب انتقلت لمنزل بنيامين بناءً على أوامر هاريسون كي لا يتعرَّض لمساءلة من أي نوع، وهناك حزمت أغراضي القليلة وجلست معهما

ـ نسختا بنيامين ـ في المعمل نتسامر ونحكي حكايات مختلفة، وفي شيءٍ من الحزن أخبروني أن على أحدهما الاختفاء والتلاشي لاستحالة وجود نسختين منهما في نفس الخط الزمني، وأن أحدًا منهما لن يطق العيش بعيدًا عن بيته وأسرته فقرَّرَا عن طِيب خاطر أن تقفز نسخة منهما في نهر الزمن لتتلاشى في سلام، في ملجأهما الحصري وجنتهما المثالية، ما دامت أن ميرتل بخير ولم يمسها سوء، لكنهما لم يخبراني أي واحد منهما سيضحي بنفسه.

ولم يكن من اللائق أن أعود دون أن أودّع هاريسون؛ لذا طلبت من بنيامين أن يسمح لي بمقابلة أخيرة مع حكمدار الإسكندرية فوافق على الفور وعرض عليَّ توصيلة بعربته، لكني رفضتها مفضلًا جولة أخيرة في شوارع الإسكندرية القديمة، بقلبٍ يعتصره الحنين أخذت جولتي الأخيرة في الحواري والشوارع الكوزموبوليتانية التي احتوت على الجنسيات واللغات والعقائد ما لم تحتويه أي مدينة، قلَّبت ببصري في الوجوه وعلى ثغري ذُقت ابتسامة عريضة وأنا أنهل من التفاصيل ما استطعت وأغذي بها بصري لمرة أخيرة، مستزيدًا منها لرواياتي القادمة كأديب، ولروحي كإنسان يعشق الجمال والأصالة.

مصافحة قوية وعناق رجولي هما طريقة هاريسون الدائمة في التعبير عن الامتنان أو الحب، هكذا استقبلني في مكتبه بالحكمدارية، مرتاح البال صاف الملامح وكأنه شخص آخر غير الذي عهدته، يضحك كثيرًا ويبتسم فأكاد لا أعرفه. شربنا الشاي معًا على الطريقة الإنجليزية كما يفضله، وأخبرني أنه كان قد أخذ عهدًا إلى الله بتبطيل الخمر لو استطعنا الإيقاع بالسَّفَّاح، ثم قصَّ عليَّ ما حدث ليلة القتل الرابعة من وجهة نظره بتفصيل وتدقيق روائي، فحكى لي عن اضطراب الرجال وتأثير وصول البرقية من الحكمدارية، وكيف طار لومبرزو فرحًا عندما وصل لجثمان السَّفَّاح كقرصان عثر على سفينة بضائع، وشرع ينشر جمجمته باستمتاع حتى يتسنى له دراسة المخ، وبعدما انتهى من حكاياته قال بالمصرية وهو يشعل سيجارة: «إنت مين علاء أفندي؟».

سألته مستغربًا: «أنا مين؟». فقال بابتسامة: «أنا مش راجل غبي، السَّفَّاح يشبهك جدًّا، أنا شوفت وشه المسلوخ». تلعثمت قليلًا وقلت: «صدفة، يخلق من الشبه أربعين». فقال بعينيه الذكيتين وهو يهز رأسه نفيًا: «كلام ده تقوله لشاويش عبدو، مش لهاريسون الخواجة». ثم مدَّ يده إلى درج مكتبه، وأكمل كلامه بلغته الأم عندما لم تسعفه حصيلة كلماته المصرية:

«ولكني لا أهتم سواء كنت وسيطًا روحانيًّا حقيقيًّا أو حتى مخلوقًا أتى من عالم آخر ... كل ما يهمني إنك راجل شريف وذو نية سليمة». ومن الدرج سحب خاتم فضي مزين بنقش إنجليزي لأسد يتقاطع مع سيف، قدمه لي وقال: «حتى تتذكرني».

وزنت الخاتم في كفي المبسوطة، تأملته قليلًا دون النظر في وجه هاريسون الذي استطرد: «حدسي ينبئني أن لك مهمة هنا وانتهت، وأن هذا سيكون لقاءً أخيرًا بيننا؛ لذا يليق به هدية وداع». فابتسمتُ ابتسامة عريضة وهاجمتني أمطار دافئة من المشاعر أمام هذا الأسد العجوز، الذي كانت روحه صالحة للتواصل مع كل زمان ومكان وإنسان، ثم قلت وأنا أضع الخاتم في جيب سترتي: «إنت كمان ليك مهمة هنا هتخلصها وترجع وطنك، الرجوع للوطن ده أجمل إحساس في الدنيا».

فقال شاردًا وقد رجع بظهره في كرسيه، وداعب بأصابعه مسدسه: «لا أعلم حقًّا، أنا رجل بلا وطن، أجبرتني وظيفتي على التنقل والترحال عشرات المرات من بلد لأخرى، من مركز لآخر ... ولكن هنا؟ هنا شعرت أن لي وطن، لمسَت رمالكم قلبي، وغسله ماء البحر».

ـ يعني ناوي تكمل حياتك هنا؟

ـ هذا حديث سابق لأوانه، ولكني بكل تأكيد سأحب أن اتقاعد على كرسي هزاز بشرفة شقتي بميدان القناصل، أراقب أمواج الماء في البحر، وأمواج البشر العجيبة في الشارع.

اكتفيت بإيماءة موافقة شربت بعدها ما تبقى من الشاي الذي برد، ثم خطرت لي فكرة عبثية سابق كلامها على لساني المنطق في رأسي فقلت: «أنا مش من هنا، أنا من زمن مختلف ... بنيامين جابني عشان ننقذ ميرتل». ولدهشتي لم يستخف بكلامي، فقط رفع حاجبيه عاليًا لكن سرعان ما لانت ملامحه، صبَّ المزيد من الشاي من البراد الخزفي الأنيق ثم قال ببساطة: «حسنًا، لا مشكلة في هذا».

ولم أدرِ حقًّا هل صدقني أم كان يظن أنني أهذي، ولكني لم أتحسس طريقي في هذا الموضوع مجددًا، في النهاية تعانقنا عندما دقَّ باب مكتبه أحدُ الكونستابلات من أجل متابعة قضية ما، شدَّ على يدي وودعني وقال لي إنه كان من الشرف العمل معي، وأنني رجل صالح.

أفْرَخَ فيَّ لقاء هاريسون العديد من المشاعر الحلوة التي لا تخلو من المرارة، فكَّرت أنه بعيدًا عن رعب الخسارة وقلق الساعة الرملية التي لا تتوقف فقد حظيت بمغامرة جميلة حقًّا وفرصة لم تتسنَّ ربما لأي إنسان آخر سواي، فبأم عيني رأيت الإسكندرية القديمة، رأيت أناسًا يكتبون التاريخ وهم لا يعلمون، لفَحَ برد الماضي جسدي ودخل جوفي طعامه، واستقبلت أذني من الأصوات والكلام ما صار بائدًا ميتًا، ثم سألت نفسي وأنا اشتري بعض الحلوى الفرنسية من أجل سفريتي الزمنية: هل كنت سأشعر بكل هذا لو لم أكن أنقذت ميرتل أم كان سيغطيني الخزي لأسبح في عاره؟

شغلت كل تلك الأفكار رأسي في طريق العودة للعمارة، فلم أدرِ بنفسي إلا على أعتاب المعمل حيث يلعب بنيامين مباراة شطرنج حامية مع نفسه، شُمرت فيها الأكمام وخُلعت السُّتر والطرابيش وانعقدت الحواجب في تركيز، ربما لم يشعرَا بدخولي من فرط التركيز حتى اضطررت لأن اتنحنح، وعندما لاحظاني أوقفَا المباراة حتى يعملا على إعادتي لزمني، ولكني أخبرتهما كاذبًا أنني لن أسافر قبل أن تُحسم نتيجة المباراة، فما أردته حقًّا كان مهلة بسيطة وقفت خلالها ألقى نظرة أخيرة على الإسكندرية من النافذة العالية، اضطرب أثناءها قلبي وعصفت به الذكريات في سعادة مؤلمة أو ألم سعيد.

فالفراق دائمًا مقبض، وفكرة القيام بأي شيءٍ للمرة الأخيرة هي دائمًا فكرة حزينة مليئة بالشجن؛ لذا أخذت شهيقًا عميقًا من الهواء الساحلي البارد، وزفرته في حرارة وأنا أحفر المشهد لمرة أخيرة على جدران ذاكرتي.

***

- 34-

خاتمة

ودَّعت عمارة ميرتل أخيرًا، كان لقاءً حارًّا اختلطت فيه دموع الفرح بمرارة الوداع، عزمتنا فيه (أليس) على تشكيلة من أفضل أعمالها الفنية من مخبوزات وحلويات طازجة بمناسبة نجاة ابنتها، تناولناها مع النبيذ والأغاني وأخذنا نتذكر ضاحكين كل ما اختبرناه في العمارة من مسرَّات ونكبات، قدَّم لي جوستاف المخبول طوقًا من زهور البرسيم التي يزرعها وزجاجة من زيت البصل أدهنها على جسدي لتحرسني من الأرواح الشريرة، قدَّمَت لي ماري وشاحًا من الصُّوف غزَلَته بيديها وقد زارتها ابتسامة خفيفة أخيرًا، كما أعطاني هنري صندوقًا من سجائر ماتوسيان نمرة واحد عندما عَلِم أنني نسيت أن آخذ منها في رحلة عودتي، ومنحني زكريا بجانب لوح الشطرنج خاصته عناقًا قويًّا، دمعت له أعيني.

رفع بنيامين العزيز نخبي ونخب رحلتنا، ثم التفت إليَّ وسألني عَمَّا سأفعل بمكافأته لي؛ الفرصة للرجوع في الزمن وتغيير حدث واحد في حياتي، فرفضت بأدب، وأخبرته أن الزمن لا ينقصه عبث، وأنني لو كنت قد تعلَّمت من هذه الرحلة شيءٍ حقًّا فهو أن الإنسان سيِّدَ مصيره أيًّا كان ما فات، وأن مقابلتي مع إيمي كانت هي كل ما أحتاج.

ولدهشتي علمت أن جوستاف وأليس وماري وهنري لن يعودوا خطهم الزمني، بل سيستكملون ما تبقى من عمرهم القصير في عمارة ميرتل، يعيشون على ما يخرج من المخبز الصغير هَربًا من معضلة موت نُسخهم الأخرى في الخط الآخر، فقالت أليس إن نجاة ابنتها هي كل ما يهمها وأن تلك الحقيقة كافية لتثلج صدرها، حتى لو كانت تعيش مع نسخة أخرى منها، يكفيها أنها لم تمت مذبوحة، قرَّرَا منحي شقتي بصفة دائمة حتى إذا ما قررت المجيء في أي وقت، وأن العمارة ستكتب باسمي بعدما ينال الموت من آخرهم، وفي النهاية ودَّعت أيضًا الجاموس عثمان الذي نقل حقائبي حتى السيارة بسماجته المعهودة، لكنه ودَّعني بحرارة، ربما طمعًا في بعض البقشيش.

وأمام ملجأ خالتي في المعادي ركنت سيارتي، أخذت حقائبي عازمًا على قضاء بعض الليال المسالمة مع الأولاد، في قلبي فيض من المشاعر، وفي رأسي رواية ضخمة لأكتبها، وعلى وجهي تشكَّلت ابتسامة عريضة، عندما رأيت الرسالة الواردة من إيمي على شاشة الهاتف.

تمت

ترشيحات قائمة الأغاني الخاصة بالرواية

سيد درويش (انا هويته وانتهيت) -سيمفونية بيتهوفن الخامسة- cigarettes after sex (apocalypse)- مقطوعة الصيف (الفصول الأربعة ـ انطونيو فيفالدي)- cigarettes after sex (pistol) -Moonlight sonata (ludwig van beethoven) -The marriage of figaro overture -cigarettes after sex (heavenly) -Antonio vivaldi - Four seasons: spring -أم كلثوم (أنساك) -محمد عبد الوهاب (مضناك) -آخر زفير (بتلاشى) -سيد درويش (اهو ده اللي صار)

للمزيد من الترشيحات قم بعمل مسح للكود أدناه الخاص بقائمة الرواية على تطبيق أنغامي:

وأخيرًا, شكر واجب وخاص لكل من ساعدني في رحلة أثر اليعسوب الطويلة والمجنونة, وبالأخص صديقي العزيز باسم الخشن, و د. مارينا ماهر